محاكمة شهيد

محاكمة شهيد

الأسير وليد خالد

الطبعة الأولى – ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

الناشر: مؤسسة فلسطين للثقافة

سورية – دمشق – ص.ب: ١٣٠٢٩

هاتف: ٠٠٩٦٣١١٦٣٧٤٨٠٢

فاكس: ٠٠٩٦٣١١٦٣٧٤٥٥١

البريد الالكتروني: thaqafa@thaqafa.org

الموقع الالكتروني: www.thaqafa.org

محاكمة شهيد

الأسير وليد خالد

رواية

الإهداء

إلى إخواني الكبار.. صنّاع الحرية والمجد

حسام بدران... وعبد الناصر عيسى...

صالح العاروري... وموسى دودين...

زاهر جبارين.... وحسن سلامة...

محمود عيسى... وجمال أبو الهيجاء

إبراهيم حامد... وعبد الله البرغوثي

على موعد مع شمس الحرية يتمناه، ويعد له الأحرار.

وليد خالد

سجن النقب الصحراوي

٢٠٠٥

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد:

لست روائياً، فهذه المرة الأولى التي أكتب فيها رواية! هي محاولة إذاً أن يضرب لي بسهم في هذا المضمار.

علاقتي بالأدب، شعره ونثره جيدة، ولعل هذا ما شجع أستاذي وأخي الشيخ «أبو همام» محمد جمال النتشة من الخليل، فكَّ الله أسره وإخوانه، أن يدفعني إلى هذا العالم شارحا لي أهمية أن يقتحم الإسلاميون بقوة عالم الدراما، التي تبدأ من وجود النص الروائي المتميز؛ إذ أن الدراما اليوم هي من يشكل عقول الناس، ويصنع الرأي لديهم، ويبني القيم والثقافات. وفي فلسطين آلاف القصص البطولية التي تناسب عالم الدراما. وفي الأسر، حيث التقينا وكانت بداية هذا العمل، آلاف الأسرى يصلح كل منهم أن يكون بطل رواية لأضخم عمل درامي مميز.

ومن هنا كانت البداية.... استجمعت كل أفكاري، وكل قراءاتي التي كان لا بأس بها في عالم الرواية، وقررت أن أبحر في هذا البحر.

كان الأخ المهندس سامر المصري من نابلسَ، فكّ الله أسره، وهو فنان مسرحي هاوٍ مبدع تمنّى عليّ أن أكتب له نصّا مسرحيّاً صغيراً عن فكرة محاكمة لشهيد يُجلب من

قبره بدمائه، فيحاكمه المهزومون بغية إدانته... لكنه يحاكمهم هو، وتنقلب محاكمته إلى ثورة، فارتأيت أن أقتبس هذه الفكرة لروايتي هذه مع شيء من التطوير.

وبما أني صاحب رسالة، وأحمل فكراً، فإن القارئ لن يجد صعوبة في اكتشاف المدرسة الفكرية التي أمثّلها، وجاءت هذه الرواية ترجمة لنهجها، لذلك لم أجد بأساً، بل وجدت من المفيد أن أطعّم روايتي هذه بأقوال مفكرين، وأساتذة يمثلون هذه المدرسة من خلال بعض النصوص الحوارية التي حرصت ألا تكون حشواً، وتكلفاً، بل تجيء في مكانها المناسب حتى لا يكاد القارئ يشعر أنها مقتبسة، أو هكذا حاولت...

بدأت الكتابة في السجن، وساعدني الإخوة الأسرى وأخص منهم الأخ محمد نوح حامد من سلواد– رام الله في عملية التبييض والنسخ، وكان من طريف ما يمكن قوله أن أحد الإخوة ظن الرواية مسودة أحد المفرج عنهم، فقام بالتبرع بها لآخر كان يسأل عن دفتر فارغ، فوجد بها بعض الصفحات الفارغة، فأعطاها له، ليقوم بتمزيقها، ورميها، محتفظاً بأوراق دفترها الفارغة! ولكن الله سلّم حيث اكتشفنا الأمر وجمّعنا الأوراق من القمامة من جديد، وأعدنا لها الحياة!!!!

كانت الدراما هي ما يسيطر على تفكيري وأنا أكتب، على أمل أن تلقى قبولاً لدى مخرج يقوم بتبنّيها.. واخترت أن أجعلها خيالية تمثّل الواقع وتجسده؛ إذ أن الخيال يتيح لي عرض الأفكار والمشاهد والأحداث دون قيود... لكن القارئ سيلحظ تماما أن كثيراً من المشاهد والأحداث حدثت في واقعنا الذي نعيشه تحت حراب الاحتلال.

وأخيراً فإني إذا لم ألج بعملي هذا باب الروائيين الأدباء، فعزائي أني حاولت أن أقدم لإخواني من فتيان الدعوة مادة أدبية يستمتعون بقراءتها، وهم يتعلمون من معانيها التي حرصت على بثّها فيها، ليكون بين أيديهم أدب بديل عما تعج به الأسواق من أدبٍ لا أدب فيه!!

ولا يسعني إلا أن أشكر كل من ساعدني بنصح وتشجيع، أو نقد وتصويب... أشكر كل الذين ساعدوني في نسخها وتهريبها من داخل أسوار السجن إلى خارجه... أشكر أشقائي: عثمان وعبد الله، وأشكر الإخوة: محمد نوح، وأبو علاء عاصي، وحسام أبو حسان، ومازن النتشة... أما أستاذنا الشيخ أبو همام فأجدني عاجزاً عن شكره، فأسأل الله أن يجزيه عني وعن إخواني كل خير. ويبقى أن أتقدم للإخوة في: **مركز بيت المقدس للأدب** بجزيل الشكر على تبنيهم للمشروع، وما بذلوه من جهود حتى رأى النور... لهم جميعاً: الأساتذة: وليد الهودلي، وصابر زيادة، والدكتور محمود العطشان... مني كل الشكر والتقدير.

والله أسأل أن يتقبل منا، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل.

والحمد لله رب العالمين

الفصل الأول

هزيمة وإعداد

هزيمة وإعداد

في زمان ما من أزمنة التاريخ، وفي مكان ما من أرضنا الطيبة... نزل (سلام) عن فرسه بعد أن أدّى على ظهره حركات فروسية بديعة، كرّاً وفرّاً، إبطاءً وإسراعاً، جالساً وواقفاً، يهز الرمح إلى الهدف المتحرك حركةً لا يقل اضطرابها عن حركة الجواد فيصيب هدفه بكل براعة، ويشهر السيف فيضرب به يمنةً ويسرةً أهدافاً من الخشب على شكل محاربين، كان قد أعدّها على جانبي الطريق الذي اخترقه جواده الأشقر بسرعة البرق. والتحمت الفرس مع فارسها، حتى بتَّ لا تعرف أيهما الآخر! فخيل تعرف هدفها من الخصم وتدرك متى تقترب منه أو تبتعد عنه وكأنها الفارس الذي يتخيّر مَقاتِلَ عدوِّه، وخيّالٌ يتحرك فوق ظهر جواده تَحَرُّكَ الريح تُغَيِّر وجهتها بكل خفّة، وهي تحدّد المسار الذي تريد، بثبات الراسخة أقدامهم في قلب الأرض، حتى يتراءى للرائي أنه الخيل الطليقة تمضي لوجهتها، لا الخيّال الذي يأمر خيله فتطيع أو تحرن. كان فوقها بقلب الجواد، وكانت تحته بسيف الفارس، فكأنما ولد على ظهرها، أو لكأنما ولدت من تحته! فكأنه هي، أو لكأنها هو!

(سلام) بن (شهيد) بن (مصعب) فتىً ممتلئ بالحيوية والشباب، هادئ القسمات، مستقر الملامح، حادّ البصر، وضّاء الوجه. في طول قامته اقتصاد

يهبه حسنات الطوال، ويجنّبه سلبياتهم. مقدام وشجاع، ذكيّ ولمّاح. أتقن فنون الحرب التي انتهى إليها عصره، وهو بَعدُ فتىً لم يتخطَّ اليفاع إلى فتاء السن، وأنهى من المعارف في علوم عصره ما جعله بين أقرانه الأمثل طريقة، والأقوى شكيمة، ومحطّ إجماع القلوب إذا ادلهمت في حالكاتها الخطوب.

حمل (سلام) قوسه وصوّب نباله تجاه أهدافها. ما يرمي سهماً إلا ويتبعه بآخر، تتابع قطرات الغيث على الثرى الظّمآن، حتى وصل سهمه العشرين، بعدد ما مضى من سنيّ عمره فثبّته في قوسه، وحدّق نظره ثم أطلقه كالريح مخترقاً قلب سهمه التاسع عشر.

وعلى مرأىً منه، كان العمّ (أبو البشائر) يراقب بعين المحب الناقد ابن أعز أحبابه، سليل المجاهدين الشهداء (سلام). كانت كل حركة متقنة بديعة يؤديها (سلام) كأنما تهب له عاماً جديداً من الحياة، أو بالأحرى تعيده للوراء عاماً يتجدد به شبابه، وتعود معه ذكرياته:

– ها قد كبرت يا (سلام) وأفلحت تربيتي لك. الآن ينام جدّك (مصعب) قرير العين، وملِء جفونه والدك (شهيد)، الآن أوفّيهم بعض الواجب، وأردُّ لهم بعض الدَّين.

هكذا حدثت (أبا البشائر) نفسُه وهو يمتّع ناظريه بمشاهدة براعة (سلام):

– (سلام) [متقدماً نحو عمّه وهو يبتسم]:

تسرّني نظرتك المبتسمة الراضية.

– (أبو البشائر) [مخفياً ابتهاجه]:

ليس كلّ الرضا، ولكن على أية حال أراك في تقدم مستمر!!

– [بابتسام ماكر]:

حسبتُني قد بتُّ أحسن قراءة قسمات وجهك، فأُبصر من نظرات الأعين ما تحرص على إخفائه –لحاجة في نفسها– فلتاتُ الألسن!

– إنك رأيت منّي عين القلب الكليلةَ عن كلِّ عيب، ولم تر، أو لم تُرِد أن ترى عين العقل التي تبدي المساوي – حباً وحرصاً– وحسبي منك يا عماه إحدى عينيك.

– بل كلتاهما يا (سلام).. أيها الحبيب ابن الحبيب ابن الحبيب.

ومضى نحوه يضمه إلى صدره.

ثم قال (سلام) بعد أن مشى خطوات باتجاه شجرة كانت هناك:

– أتذكر يا عماه مشهدي تحت هذه الشجرة قبل خمس سنوات؟!

– [بعد أن هز رأسه]:

نعم يا بني!! جئتك هنا، فشاهدتك باكياً كمن فقد حبيباً له!، فسألتك وقد راعني أمرك: ما بك يا (سلام)؟ ما الخطب؟ هدئ من روعك يا بني، فقلت لي:

– يا عمّاه لقد أخطأ سهمي هدفه.

– لا عليك يا بني جرّب غيره.

– ولكن، ما الذي يدريني في المعركة غداً، أن العدو سيمهلني حتى أعيد الكرّة؟!

ضممتك إلى صدري يومها وقلت في نفسي: هيهات تهزم أمة هؤلاء فتيانها!

– ها قد كبرتُ يا عمّاه، وباتت رميتي –بحمد الله– لا تخطئ مرماها.

– الحمد لله يا بني... الحمد لله.

– والآن، قد حان موعدنا المرتقب.

– نعم أنا جاهز لأنجز لك ما وعدتك، فأقصُّ عليك الحكاية من بدايتها بالتفصيل. فأعرني أذن قلبك وأصغِ إليَّ.

– كلّي آذان صاغية.

وبدأ (أبو البشائر) يقصّ على (سلام) حكاية أجداده التي كان أحد معاصريها، وعاشها لحظة بلحظة، واختلطت فصولها بلحمه ودمه:

***

في بيتها الصغير الذي لا يحمل من معاني البيت إلا السقف والجدران تقي البرد والحر حيناً، وتحجم أحياناً أخرى، وكأن بها حياءً يمنعها عن ردّ الضيوف ما واصلوا طرق الأبواب!!.. في بيتها المتواضع ذلك، أنهت (أم خولة) للتوّ هدهدة ابنتها الرضيعة (خولة) بعد أن أرضعتها ما استطاع جسدُها الناحلُ جمعَه مِن لحمها ودمها من الحليب، أرضعتها حزنَها المؤمن بالله... الله الذي يعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، الله الذي يهب الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء، يؤتي الملك من يشاء فيعزّه، وينزع الملك ممن يشاء فيذله، ويؤتي الملك من يشاء كي يذله، وينزع الملك ممن يشاء كي يعزه. بيده الخير وهو على كل شيء قدير. وضعتها في السرير الذي أسندت

ظهرها إليه، وأخذت تنظر إليها بإشفاق. لكنّ فكرها كان هناك، في مدينة (الأمل)، تعيش ذكرياتها مع زوجها وحبيبها الذي اختارته على غير هوى الأم الحنون والوالد المسكين.

لقد قالا لها:

– (الأب):

ليس ابن حياة. أنا أعرفه. يبحث عن المتاعب والصعاب، كما يبحث أبناء جيله عن الرزق والحياة.

– (الأم):

ويلي عليك يا (زينب)! خطبك من هو أحسن منه حالاً في أسرته ومعيشته ومستقبله. ما لك والهموم؟! أما يكفينا ما لقيناه من بؤس؟!

– (زينب أم خولة):

لكني رضيته، وأختاره على من سواه، وليس أحبّ إليّ من أن أكون شريكة رسالتهِ حلوِها ومرِّها. هذا قراري وقد اخترت.

وأمام هذه الرغبة الواثقة، لم يكن أمام الوالدين المسكينين إلا الاستسلام!

مدينة (الأمل)، وادعٌ سكانُها، آمنٌ عيشُها، ضعافٌ حكامُها، كبيرة الحجم، كثيرة السكان، غافلة عن مكر السياسة والسياسيين، مطمئنة إلى رغد عيشها الوادع الساكن، لها تاريخ قديم في الحرب أنساها إياه طول العهد:

– مشفق أنا عليك يا (زينب) بكل ما في الشفقة من لهفة، أن يرتبط

جمالُك المتطلّع لمستقبله الورديّ مع مثل شبابي الباحثِ عن الصعاب، يجد فيها متعته وسلوته يوم يقل عنها الباحثون، ومحبٌّ لك أنا يا (زينب) بكل ما في الحب من رغبة ووداد، وصدق ووفاء، حبّ الذي لا يطيق فراق حبيبه الذي سكن السويداء، وملك الشغاف، وأنا بين الحب والإشفاق محتار الهوى، قلق العقل، مضطرب الفؤاد.

كذلك قال (حسن) لـ (زينب) قبل أيام من زفافهم، عندما تقابلا على ضفاف النهر يَرسُمان ملامح المستقبل المشترك، فقالت له:

– أحبّ حبك وهو سلوتي ومناي، وأراني به سيدة الفتيات، ولا أرضى منك الإشفاق ولا أقبله، ولا أحب أن تكرر على مسامعي مثل هذا القول.

– والله إن كلامك هذا ليزيدني حيرة على حيرة! أرأيت حيرة دمعة الوجد في مقلة العاشق يدفعها الشوق ويمنعها الحياء؟!، إني الآن أكثر حيرة منها يا (زينب)، أحبك ولا أتصوّر أن أعيش دونك ساعة، وأعلم أن حياتي معك لن تكون طويلة، فوا لهف قلبي عليك من بعدي.

– بل سنعيش العمرَ كله، حلوَه ومرَّه، وإلى جانبك سيبدو شهداً كلُّ علقم... وسنرحل إن أزفت ساعة الرحيل معاً... أجل لن تتركني ولن أتركك. أليس كذلك؟! لن تتركني.. عدني يا (حسن).. عدني أرجوك!.

ويقف شريط ذكريات (زينب أم خولة) فتقول عن هذه اللقطة وقد دمعت عيناها:

– لماذا رحلت و لم تأخذني يا (حسن)؟! لماذا تركتني هنا وحيدةً في دار

الغربة!؟ سريعاً رحلت يا (حسن)، آه... أسرع مما كنت أظن وأحسب.. لا إله إلا الله.

ثم عادت إلى شريط الذكريات من جديد:

يوم الزفاف... شهر العسل... وشهران بعده... ثلاثة أشهر من السعادة التي تعجز عن وصفها الأقلام، ولا تجدها إن أردت البحث عن معانيها إلا في نبضات القلب إن كنت تحسن أن تفك شيفرات القلوب... ثلاثة أشهر من السعادة التي قلّما يجود بمثلها الزمان، عاشتها (زينب) مع (حسن). وككل الأوقات الجميلة مرت بسرعة البرق... ثم بدأت نُذُر الحرب:

– ولكنها ليست مدينتنا هي المستهدفة بالغزو يا (حسن). إنها (الواحة)، نحن بعيدون عن الحرب فلماذا نسافر إليها، نصلى لظاها؟!.

– حين ندافع عن (الواحة) يا (زينب) فنحن ندافع عن (الأمل).. نحن نحمي أهلنا هنا حين نذب عنها هناك، فضلاً عن أنه الواجب والدين، والمروءة والرجولة، والشهامة والشرف، فأين يكون زوجك إن لم يكن هناك؟!.

– إن هاجمونا في مدينة (الأمل) فإننا ندافع عنها. من سيبقى هنا ليدافع عن (الأمل) إن هاجرنا ندافع عن (الواحة)!؟..

– إن سقطت (الواحة) يا (زينب) وأظنها كذلك، فستسقط (الأمل) ومعها كل القلاع دون حرب، وسيدرك الذين خذلوا (الواحة) من جيرانها أنهم أُكِلوا يوم أُكِلَت، فلا نامت أعين الجبناء.

– إذاً صحيحٌ ما قيل عن همجية الغزاة، وأنهم يحرقون الأخضر واليابس في طريقهم؟! ها أنت تراها معركة غير متكافئة يا (حسن)! ماذا سنفعل وحدنا أمام جبروت قوّتهم؟ ماذا سيعمل سيفك وحده في الميدان؟!

– إنه الواجب يا (زينب). دورنا هناك. سنحمل الراية مع من يحملونها هناك. تعلمين أني أملك من خبرة القتال ما ورثته عن أجدادي الفرسان الذين ورّثوني الفروسية التي كانوا أساتذتها أيام حروب الأزمنة الغابرة، حتى إذا جاء زماننا الوادع هذا بتُّ غريباً بين أقراني الذين كانوا يرون الفروسية لزمن غير زمانهم، يظنون إن تركوا العدو أن يتركهم!. وما علموا أنه سيحاربهم إن لم يحاربوه، وقد فَعَل. دوري هناك يا (زينب)، أدافع وأدرّب وأعدّ فإنها معركة طويلة.

– لا يا (حسن). لا تقل دوري. إن كان ولابدّ فهو دورنا معاً، أليس كذلك؟!.. ألم نتعاهد على البقاء معاً، والرحيل معاً ؟! ولكن يا (حسن) أهل (الواحة) يرحلون عنها هرباً من الموت، ونحن إليها نرحل؟!

– طلباً للحياة يا (زينب). طلباً للحياة. الحياة الكريمة الجميلة الوادعة التي جاء يفسد صفاء سمائها الغزاة. إن لم يكن لنا فلأبنائنا وأحفادنا، هل نورثهم الهزيمة والذل؟ أم نوقفهم على أرض صلبة من المقاومة يواصلون بها المشوار إن عجزنا نحن عن إكماله؟

– يقولون إنهم يرحلون عن (الواحة) بسبب مجازر الغزاة هناك. أهي إشاعات الحروب؟ أم تراها الحقيقة التي سنكتشفها هناك؟!

– ربما يدركون متأخرين أن الموت أهون من الرحيل، فهو مرّة واحدة ولمرة

واحدة، أما الرحيل والفرار فهو الموت على مدار الساعة، وأية حياة هذه التي تكون بطعم الموت؟!... لا... لا ألوم النساء والأطفال والشيوخ العزّل، فقد تخلّت جيوش ورجال، وسيكتب التاريخ.

– لماذا ينفرد اللص ببعض أفراد الأسرة الواحدة، فيقف بقية الأشقّاء كلٌّ خلف جداره يرقب في صمت؟

– لأن آفاقَنا صارت أقربَ من مواطئ أقدامِنا، وحدودَنا أشخاصَنا، ودماءَنا هيّنةً علينا، ومستقبلَنا دقيقةً بدقيقة، وآمالَنا المالَ والسلطةَ والنعمةَ والجاه. لقد صرنا كالحمامة ينظرُ إليها الثعبان ليفترسَها.. فَتَنحَلُّ وتنشلُّ، وكان في مُكنَتِها أن تطير، وانتقلنا بذلك من حالة المذعور إلى واقع المسحور والمقهور...

– حسناً لماذا لا نعمل هنا على إنهاض الناس وتحشيدهم لنصرة إخواننا، فنذهب إليهم أشدّ بأساً وأقوى حيلة ؟

– هو دور هام وواجب، وسيؤديه بعضنا ولا شك، ولكن أنا دوري.. أقصد دورنا هناك يا (زينب). بالله عليك لا تخذليني فقد حسمت الأمر.

– أما وقد عزمت فهيا نمضي على بركة الله.

***

ككل الباحثات عن حنان الزوج، ودفء بيت الزوجية، كانت جدتك (زينب) يا (سلام).

[هكذا قال (أبو البشائر) (لسلام) معلقاً على حديث (زينب) و(حسن)]

– (سلام): ولكن الأشرار يا عماه لوثوا حياتنا، وما تركوا فيها فسحة للحياة.

– (أبو البشائر): هو قدر الشر نصارعه بقدر الخير حتى نغلبه، وكذلك هي سنة الحياة.

– وكيف رحل جدي (حسن) إلى (الواحة)، وكيف رحلت معه جدتي (زينب)؟! ما الذي جرى بعدها؟!

***

واصلت (أم خولة –زينب) ذكرياتها في وداع أمّها وأبيها:

– (الأم) [باكيةً وهي توجه الحديث للأب حينا و(لزينب) حيناً آخر]:

أما قلت لك أنّا نزوجها للموت، لسنا نزفها للحياة؟! كان عليك أن تمنع هذا الزواج بالقوة. ويلي عليك يا ابنتي!! أي جنون هذا الذي سيقدم عليه زوجك؟ تسافرون للموت الذي يفرّ منه الناس ويرحلون، ويلي.. ويلي...

– (الأب): كفي عن هذا يا امرأة. قضي الأمر. لا حول ولا قوة إلا بالله. في أمان الله يا ابنتي.

– (الأم)[وقد شعرت بلحظة الحسم وأنه لا مجال.. وهي تصرخ]: (زينب).. ابنتي.. حبيبتي..

ثم ضمتها إلى صدرها وهي تجهش بالبكاء.

كان الكل يبكي في ذلك المشهد، بكاء الذي يعلم أنه اللقاء الأخير، فلتكتحل إذاً بالدمع العيون.

وصل (حسن). ودع دار عمّه، وأخذ زوجته ومضيا في طريقهما المحفوف بالموت نحو الموت –إلى (الواحة)– التي يجتاحها الغزاة.

(الواحة) مدينة سحرية الجمال، أخّاذة النسائم، مخضرّة الزرع، مثمرة الأشجار، كثيرة الخيرات والبركات، يفصل شطريها نهرٌ جارٍ تحفه على الجانبين أجمل البساتين والحدائق. حلية قصائد الشعراء، ودرّة وصف الأدباء على مر العصور. هي جنة الله في أرضه كما يصفها الواصفون، ولذلك –ربّما– كانت وتظل مطمع الغزاة والأشرار.

***

غير بعيد من بيت (أم خولة) التي تعيش مع ذكرياتها الحزينة بحثاً عن مستقبلها المجهول، كان يجلس بين الأشجار رجلٌ عينُه على ذلك البيت النائي نوعاً ما، يراقب ويرصد... أطلق العنان – هو أيضاً– لذكرياته في تلك اللحظات:

– (كامل): أنا أيضاً يطمئن قلبي له، لكن عقلي يستصعب تصديق روايته.

– (مصعب): ألأننا في زمن الهزيمة والتراجع، يصعب عليك تصوّر نقطة ضياء وسط هذا الظلام؟ ألأنّ الناس يفرّون من الموت أما هو فجاء مسرعاً إليه ؟! ألأنه يطارد الموت كما يطارد غيره الحياة؟

– (كامل): نعم... ولأن عدونا ماكر ولئيم، جعلنا نشك بأنفسنا، فلماذا لا

يكون قد زرعه بيننا ليكشفنا، ثم يقضي علينا؟!

– (مصعب): هل تحسب أني لم أضع هذا الاحتمال في خلدي؟ لقد اختبرته أكثر من مرة وكان خيراً مما أظن، وما تزال الأيام تريني من جواهره المخبوءة –والتي يحرص على إخفائها– ما يزيدني إعجاباً به... ومع ذلك لا أنكر عليك شكّك ولك أن تختبره كما تشاء على شرط ألا يشلّ هذا حركة مقاومتنا، وهو كما تعلم في طريقه إلينا.

وصل (حسن) وقد أمّن طريق وصوله، وتأكد من عدم وجود مراقبة ترصد حركته.

– (حسن): السلام عليكم ورحمة الله.

– (كامل) و(مصعب): وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

– (حسن): أرجو أني لم أكن قد تأخرت.

– (مصعب): لا، أبداً. أنت على الموعد تماماً.

– (حسن): حسناً أظنهم سيمرّون من هنا بين لحظة وأخرى. كما اتفقنا: بصفتي الأكثر تدريباً وقدرة سأتولىّ أمر اثنين، ويتبقى لكل واحد منكما خصمه يتكفل به.

– (كامل): أسمع صوت حركة قريبة. كأنهم يقتربون. استعدوا.

وبدأ الجنود الغزاة بالاقتراب. كان الظلام دامساً، وكانت حركتهم بطيئة حذرة، فيما كمن فرساننا الثلاثة بين الأشجار:

– (مصعب): يا إلهي إنهم خمسة لا أربعة كما رصدناهم سابقاً!

– (كامل): علينا إلغاء المهمة.

– (حسن): انتظروا. راقبوا جيداً. يبدو أن خامسهم صيد ثمين. انظروا كيف يعاملونه باحترام؟ إنها فرصة لا تعوّض. لا عليكما. اسمعاني جيداً، سنظل على ما نحن عليه. سيتولّى كل منكم خصمه، وسأتدبر أنا الثلاثة، ولكننا سنعدّل قليلاً في الخطة. سأبتعد عنكما حتى أصيد الصيد الثمين عن بعد، فأفرّ باتجاهكما، وسيتبعنا ثلاثة فيما يبقى الرابع عند صاحبه يسعفه، فإذا مرّوا من أمامكما تبعتما المتأخرَين فتقتلاهما، فأستدير أنا إلى المتبقي فأجهز عليه، ثم نعود لصاحب القلب الرحيم فنبقيه إلى جانب صاحبه، ولكن تذكرا: السرعة والخفة، وضربة واحدة في أسفل العنق وتنتهي المهمة..

– (كامل): ولكن...

– (مصعب) [مقاطعاً]:على بركة الله.

تحرك (حسن) بخفة بين الاشجار وكمن قريباً من الجنود، حتى إذا أصبحوا على مرمى رميته. استلّ خنجره، ثم صوّبه باتجاه الرجل الذي اعتقد أنه مسؤولهم، ثم رماه، فانطلق سريعاً ملتهباً ليصيبه في مقتله –أسفل الرقبة–... ارتمى الرجل على الأرض، وركض (حسن) باتجاه رفاقه فتبعه ثلاثة وبقي الرابع مع صاحبه يسعفه... مرّوا أمام (مصعب) و(كامل) فانقضا كالسهم عليهما، وبضربة واحدة لكل منهما أصابت هدفها في مقتله... فيما لم يكن يحتاج (حسن) حينها أكثر من التفاتة فارس مباغتة، يقتل خصمه بحدة بصره قبل أن يرميه بشفرة سيفه، وهذا ما حدث، إذ لم تكن ضربة سيفه له إلا ضربة لجسد ميّت قد قتله الرعب فسمّره في مكانه كالوتد، قبل أن يقتله حد السيف فينزع روحه.

عاد ثلاثتهم إلى (الخامس) وألحقوه بأصحابه، وعادوا سالمين كلٌّ إلى بيته.

كانت تلك مهمة من عشرات المهمات – على مدار عام كامل– قضاها (حسن) ابن مدينة (الأمل) في مدينة (الواحة) يدافع عنها. أيّ صنفٍ من الرجال عجيبٍ هو (حسن) هذا؟! إنه الرجل الصعب في الزمن الصعب:

– (حسن): أريد أن تبحث لي عن بيت جديد.

– (مصعب): سأفعل إن شاء الله.

– (حسن): من السهل عليَّ إيجاد بيت جديد كما كان سهلاً عليَّ إيجاده أول قدومي (الواحة)، حين ظنني الناس مجنوناً، وأجّروني بيوت أقربائهم التي هجروها بأجرٍ زاهد، ولكنك ابن المدينة وقد بتّ تدرك جيداً مواصفاتي في المنزل.

– (مصعب): نعم. نعم. بيت متواضع، ناءٍ بعض الشئ عن بيوت الناس، حوله أشجار كثيفة.

– (حسن): لست تدري يا (مصعب) كم أثّر في نفسي استشهاد (كامل). كان –يرحمه الله– متهوراً بعض الشيء، يظن أن معركتنا يمكن حسمها بالضربة القاضية، وأشد ما كان يدهشني فيه هو جمعه لمتناقضين لا أدري كيف لهما أن يجتمعا في شخص واحد. إقدام إلى حد التهوّر، وحذر وريبة وشك إلى حد الوسوسة، أليس هذا غريباً ؟

– ربّما أستطيع فهم أمر ما حيّرك في شخصيته العجيبة... إنه صراعنا ومعادلته العجيبة يا (حسن). لقد جعلنا الغزاة على كثرة جرائمهم ومجازرهم، ونحن الوادعون الآمنون، لا نستوعب إمكان بقائهم مدة أطول

حتى تفزع آمالنا إلى يوم الخلاص منهم، فنحسبه قريباً، أو كما قلت، نحسبه صراعاً يحسم بالضربة القاضية فنستعجل الخطى، كما لم يدع لنا لؤمهم مجالاً للثقة بأحدٍ من حولنا. هل تعلم أن (كامل) يرحمه الله كان يشك...

– نعم... أعلم تماماً أنه كان يشك بي، وما كان لمثلي أن يخطئ قراءة نظراته، وكنت والله أحب فيه حذره، ولا ألومه، ولو كنت مكانه ربما لكنت أشدّ حذراً، لقد تعلمنا منكم الكثير يا (مصعب)!

– من تعلم ممن يا (حسن)؟ لقد أفدنا من خبرتك وفروسيتك ومهارتك في القتال ما كان يخفى علينا، وليتنا نوفيك بعض حقك علينا.

– لا تقل هذا يا (مصعب)، هذا واجبي. هذا وطني. إنها أرضنا المقدسة يا أخي.

ثم أطرق رأسه قليلاً وقال:

– ولكنك ترى أن الخناق بدأ يضيق علينا. إن الأمور تزداد سوءاً. لقد خسرنا الحرب، ونار المقاومة تخبو شيئاً فشيئاً. العدو بدأ يعرف الأرض وخباياها، والناس وأحوالهم... وصيتي يا (مصعب) أختك (زينب). في أحشائها مولودي الذي قد يرى النور، ولا يراني ولا أراه..

أراد مصعب أن يقاطعه فنهاه وأكمل:

– هذا قدر الرجال يا (مصعب). اسمعني للنهاية:

إنا نخوض معركة غير متكافئة. صراعنا طويل. رفاقنا يستشهدون واحداً تلو الآخر. لا زال الناس غير مهيئين للثورة والانتصار... كنت أدرك ذلك جيداً.

أدرك أنه زمن الهزيمة، لكني لم أستطع التخلّي عن أداء الواجب. المؤامرة أكبر منا. نعم، لكن الحق سينتصر في النهاية. أعدّوا الجيل القادم. أرضعوه مع حليب الأمهات معاني الكرامة والثأر، **علّموهم حب الوطن كما تعلمونهم حب الصلاة، أحلى عبادة يا (مصعب) – وقد ذقت – هي صلاة القتال بوضوء الجراح**... عليك أن تنتقل من خندق القتال إلى خندق الإعداد والحشد، وأنت في جميع ذلك لم تغادر مربع المقاومة.

– وأنت يا (حسن)؟!

– وكذلك أنا... لن أبادر في الهجوم، لكني سأتدخل حيث لا أجد بداً من التدخل إن كان بإمكاني منع جريمة أو مجزرة... هل نتعاهد على هذا يا (مصعب)؟

ومدّ يده للمصافحة، فمدّ (مصعب) يده وهو يقول:

– نتعاهد يا (حسن)، وسنكمل مشوارنا معاً كما بدأناه معاً إن شاء الله.

– أختك (زينب)، يا (مصعب)، وجنينها..

ودمعت عيناه

– لا إله إلا الله... هوّن عليك يا (حسن)... هوّن عليك.

– لقد كان حدسه صادقاً يرحمه الله... كان يعلم أن عينيه لن تكتحلا برؤية مولوده القادم.

هذا ما قاله (مصعب) في نفسه، وهو تحت الأشجار يراقب منزل صاحبه في تلك الليلة الليلاء... ثم واصل ذكرياته:

طارق في جوف الليل يطرق باب (مصعب)... إنها طرقات يعرفها تماماً،

لكن فيها ضعفاً لم يعهده! الخوف يصاحبه وهو يتقدم نحو الباب ليفتحه... [بصوت خافت]:

– من بالباب؟

– افتح. أنا (حسن)... [بصوت متعب مريض مخنوق]

فتح (مصعب) الباب، فارتمى (حسن) الجريح النازف على الأرض.

– (حسن).. (حسن).. يا إلهي!!

– لا عليك.. أدخلني بسرعة.

أدخل (مصعب) (حسن)، وبدأ يحاول إيقاف النزيف الحاد...

– قطعت حشاي صرخاتها... المجرمون.. كانوا عشرة وكانت وحدها...

– آه.

[قال (حسن)]

– لا بأس عليك يا أخي.. لا بأس عليك...

[رد (مصعب)].

– لم يكن أمامي بدّ من التدخل... لكني أنقذتها بحمد الله... آه... آه

– (حسن)...

- قتلت ثلاثة بسهامي عن بعد، فانشغلوا عنها بي، فنجت من أيديهم وقد صرخت عليها أن تهرب، فتبعوني فاشتبكت مع أسرعهم لحاقاً بي فصرعته.. لكن أحدهم رماني بسهم عن بعد فأصابني كما ترى... ثم إني تمالكت نفسي واختفيت بين الأشجار وكمنت حتى يئسوا من العثور عليّ.. نزعت السهم ثم أتيتك...

– هي إصابة بسيطة يا (حسن) لا عليك... اطمئن.

– لا يا (مصعب). أنت تعرف وأنا أعرف أنها إصابة قاتلة.. إنها النهاية.. الحمد لله... (زينب) يا (مصعب)، ومولودها... بقيت أيام قلائل ويرى الحياة... ألم أقل لك لن أراه؟!

– بالله عليك يا (حسن) كفّ عن هذا الحديث...

– اسمع... لا فائدة... لا والله لست حزيناً، وإن أندم فعلى كل ساعة لم أغبّر فيها قدمي بغبار المعركة، وعلى كل يوم مضى دون أن أروي سيفي بدمائهم... الحمد لله... لكن ستشهد لي عند الله يا (مصعب)... أليس كذلك؟!

كان (مصعب) يبكي ويضم (حسن) إلى صدره...

– اسمع.. أوصلني إلى بيتي... أريد أن أودّع (زينب)، وأعتذر إليها عن رحيلي وحدي دونها.

– سأحضر لك طبيباً.

– لا فائدة يا (مصعب).. ثم إنها ممرضة وهي أمهر من أي طبيب.. خذني إليها بالله عليك.

اتكأ (حسن) على كتف (مصعب) وهو يبكي حتى أوصله لبيته.. طرق (حسن) الباب، وذهب (مصعب) لإحضار طبيب... كان يحدوه الأمل بنجاة صاحبه.. كذّب خبرته التي تؤكد له أنها إصابة قاتلة.. كان يتشبث بأي خيط يمكن أن ينقذ صاحبه وشِقَّ روحه (حسن). أحضر (مصعب) جاره الطبيب وما إن وصل باب المنزل حتى سمع صوت بكاء (زينب) متقطعاً مجهشا يحمل معه الخبر الذي لم يرد أن يصدّقه! أوقف الطبيب على

باب المنزل، ودخل، إذ كان بابه مفتوحاً، ورأى (حسن) على صدر زوجته تبكيه وقد فاضت روحه.

بكى (مصعب) كما لم يبك ولن يبكي من قبل ومن بعد... وكانت وحدها العيون تشرح هول الموقف!!

- هنا دفنته أنا والطبيب في حديقة المنزل ليظل بجوار زوجته ومولودها القادم إلى الحياة. لقد رحل بهدوء، كما جاءنا بهدوء. لم يكن يعرف عن بطولته أحد. والله إنه لحريّ بمثله أن يتسنم صدر التاريخ في أمجد صفحاته... رحل دون جنازة... ودون الوداع الذي يليق ببطل مثله... لم يعرفه أحد في حياته، و لم يعرفه أحد بعد استشهاده... لكن الله يعرفه.. وحسبه أن الله يعرفه...

كذلك قال (مصعب) لنفسه وهو في حديقة المنزل يسترجع تلك الذكريات، وفجأة سمع (مصعب) حركة حول المنزل:

- ما هذا.. من يجرؤ على الاقتراب من منزل شهيد لا يوجد فيه إلا زوجته وابنتها الرضيعة؟! أية خسة تلك؟! ويح المجرمين!

هكذا قال (مصعب) في نفسه وقام بسرعة.

انتبهت (أم خولة) للصوت في الخارج، وأدركت بحسّها أن ثمّة خطراً محدقاً، فانتفضت من سريرها، وأخرجت سيف زوجها من غمده حيث كان معلقاً فوق رأسها، وأسندت ظهرها إلى الحائط محدّقة باتجاه باب الغرفة.

فتح الباب الخارجي ثلاثة رجال ملثمين... لا... لقد كانوا أشباه

رجال، فليس الرجل هو من يقابل الأنثى في جنسه، إنما الرجولة لباس من الخلق والفضيلة نزعته يد الخسة والدونية والغدْر عن كثير من الذكور، وشفّت ثياب الرياء عن سوءات، وعورات فانكشف المستور.

وقف أحد الثلاثة خارج الغرفة في ساحة المنزل ودخل اثنان... رأت (أم خولة) باب الغرفة يفتح رويداً رويداً، فالتصقت بالحائط وأحكمت قبضتها على السيف ونظرت لابنتها (خولة) بنت الستين يوماً نظرة خاطفة، وكأنها تريد أن تستمد من براءة طفولتها ويُتْم نشأتها كلَّ معاني القوة... إنها بعض حبيبها (حسن).. بعض لحمه ودمه..

هل كثير عليها أن تبقى (لخولة)، وتبقى (خولة) لها وقد فقدت برحيل (حسن) كل شيء؟ ياه ما أقسى الحياة حين تُلَبّد سماءَها غيومُ الاحتلال؟! حين يحاصرون الهواء فتشتم مع دخوله الصدر وخروجه كل لحظة رائحة الموت بطعم الاحتلال!

تفاجأ الملثمان عندما وجدا (أم خولة) مستيقظة تشهر سيفها مستعدة للقتال... تقدّم الأول نحوها وهو يشهر سيفه ببطء فيما كان الآخر وراءه يقول لها بكل وقاحة:

– لا ترتكبي أية حماقة... لا نريد منك روحك... يكفينا جسدك تسلميه لنا بعض الوقت، فصرخت بأعلى صوتها:

– الله أكبر، خسئت أيها الوغد.

واستعدت للمواجهة...

في تلك اللحظة كان (مصعب) قد وصل المنزل وأجهز على الرجل

في الخارج ودخل الغرفة... التفت إليه الملثم الثاني وحاول الفرار، فمنعه (مصعب) فحمل سيفه يريد قتاله لكنه لم يستغرق أكثر من لحظات حتى أنزل (مصعب) سيف المهاجم أرضاً، فركع على ركبتيه يطلب الرحمة... في تلك الأثناء كانت (أم خولة) قد أجهزت بسرعة على المهاجم الأول، وأردته صريعاً يتخبّط في دمه.

لم يرد (مصعب) أن يقتل هذا المجرم حتى يعرف منه الحقيقة... ما الذي جرأهم على اقتحام بيت الشهيد؟

– (مصعب) –ولم يكن ملثماً–: قل لي يا وغد ماذا تريد؟ ومن أرسلك؟! كيف تجرؤ أيها النذل على اقتحام بيت شهيد كان يدافع عن كرامتك وحريتك...؟! أجب يا وغد قبل أن أقتلك... أجب.

– (المهاجم): أرجوك... لا ذنب لي.. لقد أرسلني الضابط (آلبرت) كي أنتقم من الشهيد بانتهاك عرض زوجته حتى يصبح عبرة لكل من يحاول تقليده.

– أيها اللعين!! ولكن كيف عرف عنه؟

– لقد دلّه أحد الأطباء الذين شهدوا يوم استشهاده.

– اللعنة... أوغاد.. أنذال... وأنت أيها الحقير ماذا سيفيدك (آلبرت) الآن؟! بأي وجه ستلقى الله الآن؟

– لا تقتلني أرجوك...

– ماذا؟ وترجو أيضاً؟!

وهجم نحوه ليقتله...

– لا... لا تقتلني، لا يمكنك ذلك... أنا أخوك (كريم).

ونزع لثامه عنه!

تسمّر (مصعب) مكانه من فجأة الصدمة وهول الموقف، ونظر إلى (أم خولة)، ثم إلى (خولة)... ثم تمالك نفسه وقال:

– لا... والله لست أخي... هي أختي دونك... وزوجها أخي دونك... لست ابن أمي.. ما عدت كذلك منذ اللحظة التي قبلت فيها أن تبيع شعبك للغزاة ونفسك للشيطان. إنها أعظم قربى أبرّ بها أمي وأبي اليوم حين أخلصهم من عارك...

وتقدّم إليه بكل ثقة واطمئنان وقتله!

ثم التفت إلى (أم خولة) وقال:

– سأحاول إبعاد جثثهم العفنة أكبر مسافة ممكنة عن البيت، وأدفنهم حيث لا يشعر أحد... عليك أن تنظفي المنزل من دمائهم ريثما أعود لآخذك تبيتين عند زوجتي الليلة، ريثما أتدبر لكما منزلاً قريباً منا تقطنان فيه، فلقد أضحى هذا المكان خطراً.

– جزاك الله كل خير.. كنت على ثقة أن الله لن يضيعنا، وأن إخوان (حسن) وأحبابه لن يتركونا وحدنا، ولكني لن أغادر منزلي. هنا استشهد في حجري (حسن)، وهنا يسكن جثمانه الطاهر.

– إنها فترة مؤقتة يا أختاه، فلا أظن أن الحقير (آلبرت) يتركك وحدك، وسيعاود الكرّة، فإذا يئس من إمكان وجودك، واطمأننا أن المنزل قد عاد آمناً عدت إليه.

– ولكني أستطيع الدفاع عن نفسي.. لقد دربني (حسن) فأحسن تدريبي.

– لقد شاهدت براعتك في القتال... ولكن هذا لا يكفي... وأنت وحدك وهم أشرار... إن لم يكن من أجلك فمن أجل (خولة)... ثقي بي إنها فترة مؤقتة وتعودين... هذا وعد.

نفذ (مصعب) مهمته، ووارى الجثث التراب وأخذ (أم خولة) تبيت ليلتها عند زوجته وولده. أوصلها البيت وقد اقترب الفجر على البزوغ وقال لها:

– أدخلي يا أختاه... أما أنا فأمامي مهمة عليّ أداؤها.

ذهب (مصعب) متخفياً لبيت جاره الطبيب ودقّ عليه الباب. قام الطبيب متثاقلاً وهو يشتم الساعة التي درس فيها علوم الطب، ويشتم وقاحة الناس التي تزعجه في كل وقت. فتح الباب وهو يصرخ:

– أما تدري أنّا على أبواب الفجر الآن...

فوجئ الطبيب بالسيف على رقبته، وكانت مفاجأته الأكبر أن حامل السيف هو جاره (مصعب)...

– تلعثم الطبيب:... م...م...ما... ماذا تريد ؟!..(مصعب) ؟! هل جننت؟!

– لا يا جاري ما جننت... ما علاقتك بـ (آلبرت) ؟ قل قبل أن أقطع عنقك.

قال ذلك وهو يدخل المنزل ويغلق الباب، فيما جلس الطبيب على ركبتيه يرتجف.

– من (ألبرت) هذا ؟ لا أعرفه... آه أتقصد ذلك الضابط؟! أقسم أنه لا علاقة لي به... مالك يا (مصعب)؟ ماذا جرى لك؟! ألا تعرف جارك؟

– من دلّه على بيت الشهيد في طرف المدينة النائي؟

– أنا يا (مصعب)... أنا... ماذا أفعل؟! جاءني قبل أسبوع للمرة الثالثة وكانت أقسى المرات يقول لي: أنت طبيب ولك يتوجه المرضى وهم يثقون بك.. منْ مِنَ المحاربين عالجت جراحه؟! هددني بقتل أولادي حيث أحضرهم أمامي.. اضطررت لإخباره عن ذلك البيت النائي... لكني لم أذكر اسمك.. أقسم لك... أنت جاري وأخي... أما هو فلا أعرفه فاستسهلت الوشاية به...

وأخذ الطبيب يبكي:

– لست عميلاً يا (مصعب)، ولكني ضعيف وأبو عيال.. وهم مجرمون قتلة. اقتلني إن كان هذا يريحك... فأي شيء في حياتنا ليس يعني الموت؟! نحن مع الاحتلال نموت كل يوم... تولّ أمر عيالي واقتلني، هيا يا (مصعب).

– لقد أرسل (آلبرت) إلى بيت ذلك الشهيد من يحاول اغتصاب زوجته لولا أن نجّاها الله، أرأيت ما فعلت وشايتك؟!

– قلت لك.. اقتلني.. أقسم لك أني صادق في كل كلمة قلتها. كنت مضطراً لإعطائه تلك المعلومة وقد أخفيت عنه الكثير سواها..

– إني أصدقك... المشكلة أني أصدّقك، وأصدّق كثيراً من الناس الذين يقبلون – رغماً عنهم– بمساعدة الاحتلال بأي شيء، لكنك لا تدرك ولا

يدركون: أن الناس سيظلون من خوف الموت في موت، ومن خوف الذل في ذل.. ولو أُقفلت في وجه المحتل كلّ الأبواب لضاقت به الأرض وأدرك أنه لن يطول به المقام. ليتكم تدركون ما يفعله ويقدّمه المجاهدون والمقاومون من أجل كرامتكم يا جار.. ليتكم تدركون...

– أعدك يا (مصعب) ألا أعود لمثل ما فعلت.. أعدك.

– (مصعب) [وقد أغمد سيفه]: أصدقك... إن أردت الله أن يحفظ أسرتك وأولادك فاحفظ ظهر المجاهدين، وفكّر بالتاريخ الذي ستورثه عيالك أيها الطبيب الجار، والجار الطبيب.

***

– (سلام): يا لله يا عماه كم كان عدونا الذي واجهه أجدادي مجرماً؟! لو لم يكن من جرمه إلا أن جعل الأخ يقتل أخاه، والمرء يخون وطنه، ويشي بأقرب الأحباب لديه خوفاً أو طمعاً... لكفاه!! أية نوعية من البشر كان أولئك الغزاة يا عمّاه؟!

– (أبو البشائر): شذاذ آفاق كانوا.. من أصقاع الأرض احتشدوا. ملّتهم أقاصي البلاد التي سكنوها حين أفسدوا في كل أرض وتحت كل سماء، فرمت بهم إلينا، إلى أرضنا الطيبة المباركة ليبدلوا أمنها خوفاً، وحياتها موتاً، وفرحها بؤساً ومأتماً.

– لكنهم أخطأوا العنوان يا (عمّاه).. حسبونا لقمة سائغة وما دروا أن تحت رمادنا ناراً شديدة تحرق المعتدين.

– أجل. لم يدركوا إلا بعد فوات الوقت، أنّ هذه الأرض لا تقبل الغرباء، ولا تنصاع لأقدام الغزاة، وليس فيها للمعتدي مأوى، ولا للمحتل منام ولا أمان، ما دروا أنها الأرض الطاهرة المطهّرة.. هي طاهرة في نفسها، ومطهِّرةٌ لغيرها. وحين يستحكم الشرّ يا بنيّ ينشر سمومَ فسادِه على الأرض، تسوقه القدرة الإلهية إليها لتطهّرَ منه الأرض، وتريحَ من لوثته الدنيا.

– لكن أجدادي دفعوا ثمناً باهظاً حتى طردوهم.

– كان أهون ألف مرة من الثمن الذي دفعه المهزومون عندما ارتضوهم وقبلوهم.

– وهل قبلهم وارتضاهم أحد..؟!

– وكيف هُزمنا إذاً؟

– لم أفهم قصدك؟

– اسمع يا بني.. كما تدعو رائحة الفريسة الميّتة كلّ وحوش الغاب لافتراسها، فلا يكون ذلك الافتراس إلا التهاما لجسدٍ كان قد مات منذ زمن، كذلك الأمم الضعيفة الذليلة تكون ميتةً متعفنة تدعو رائحة ذلّها وضعفها كل الغزاة لافْتراسها، فلا تكون هزيمتهم لها إلا إعلان الوفاة لجسدٍ كان قدْ مات منذ زمن.

– وهل كانت أمتنا ضعيفةً إلى هذا الحد؟!

– كان العرب مفرّقين، متخلفين عن ركب الأمم. كانوا على كثرتهم، كغثاء السيل، زبداً تلقيه سيول الطامعين الجارفة حيث شاءت إرادتهم الظالمة الطاغية.

– في تلك الغفلة من عين الأمة إذاً انسلّ الطغاة، ليبنوا من جماجم هوائنا مملكتهم الحالمة.

– نعم يا بني.. لقد حملوا لنا الدمار والموت، وأودعوه في كل شارع، وفي كل بيت...

***

كما يهجم الليل المعبأ بالخوف والرعب، والبرد والعواصف.. على نهار المتدثرين بدفء الشمس تمنحهم مع أشعة ضيائها شيئاً من الأمان.. هجموا...

رأتهم عيون ذعر الناس عدد الحصى والرمل والتراب، رغم أن سكان (الواحة) كانوا أكثر منهم، بله المدن العربية المجاورة التي لو طوقتهم لذابوا فيها..

وسمعت وقعَ أقدام زحفهم آذانُ الخوَر والخواء، فحسبتهم كالسيل الجارف، رغم أن صوت تكبير الناس لو اجتمعوا وصدحوا به جميعاً كالرعد في آنٍ واحد لكان كفيلا أن يصمّ آذان الغزاة..!!

ولكنها عينُ الجبن والهلع حين تُستبدل بعين الحقيقة.. وقلبُ الهزيمة والضعف حين يُستبدل بقلب الصبر والثبات، عندئذ لا يصبح واحد العدو واحداً بل أضعافاً مضاعفة! فلا عجب إذاً فيما كان.

هجموا من البر والبحر. أما البحر فمنه اقتحم عددهم الأكبر بأسطول كبير دعمته (الإمبراطورية العظمى) بكلّ ما يحتاج. لم يلق مقاومة تذكر.

ومن البرّ زحفت فيلهم الضخمة وخيولهم ومدافع منجنيقاتهم، ومرّوا قريباً من بعض المدن العربية القريبة التي حذّروها من التدخل فآثرت الصمت والتفرج، إذ أُعطيت الأمان، وتركت (الواحة) وحدها تواجه مصيرها المحتوم! صبّ الغزاة جام غضبهم على شطر المدينة الشمالي حيث البحر، وحدّدوا غايتهم: تفريغ هذا الشطر من كل وجود عربي حتى يستوطنوا مكانه، أما الشطر الجنوبي فإن أعدادهم أقلّ من أن تملأه، فتكفيهم السيادة والسيطرة عليه مع بعض القلاع المحصنة داخله. والوسيلة لتحقيق ذلك كله في مكنة اليد، المجازر والقتل والترويع والإرهاب والتدمير وكان ذلك أهون شئ لديهم، كانوا يتلذذون بقتل الأبرياء ويتعمّدون المبالغة في الإجرام، كي يقذفوا الرعب في قلوب الناس فيرحلون، وقد كان لهم ما أرادوا، وبأسهل –ربّما– مما كانوا يظنون!

***

في ليلة الفرار من الموت:

هيا يا امرأة تصبّري. قد بتنا قاب قوسين أو أدنى من مدينة (الأمل)..

قال (أمين) لزوجته الحامل في شهرها الأخير، وكانت مريضة متعبة...

[وقد جلست على الأرض]: لم أعد أستطيع المواصلة، أشعر أني ميتة الليلة!

[وقد ضمّها إلى صدره]: تجلّدي بالله عليك. لم يبق إلا القليل. ها

نحن بين عشرات الناس يؤنسون غربتنا، وقد سبقنا عشرات وسيلحق بنا عشرات، فلا تخافي ولا تقلقي.

[وهي تتأوه]: أظنني واضعة حملي الليلة، وأظنني لن أعيش.

كفّي يا حبيبة قلبي... إنما هو الإعياء والتعب. سنعيش معاً ونواصل حياتنا معاً.. وهل تركنا أوطاننا إلا بحثاً عن العيش الكريم؟!

[وقد زاد تأوهها]: الآن يا (أمين).. ابحث لي عن (أم أيمن) جارتنا لتساعدني في الولادة، لقد رأيتها هنا قبل قليل

حسناً.. حسناً.. لا عليك.. استعيني بالله

وسريعاً وجد (أمين) جارتهم الحاجة (أم أيمن) فحضرت بسرعة، ورغم أن الوقت كان ليلاً بارداً إلا أن براعة (أم أيمن) بتوفيق الله أنقذت المرأة وجنينها.

مبارك يا (أمين).. غلام.. غلام كالبدر.. حمدا لله على السلامة. [قالت أم أيمن].

[طائراً من الفرحة]: الحمد لله.. كيف حالها؟! هل هي بخير؟! هل تعبت؟! وكيف حال الغلام؟.. هل أذهب لأراهما ؟

نعم يمكنك ذلك، ولكن لا تتعبها بالحديث فإنها مرّت بلحظات عصيبة.

شكراً لك يا (أم أيمن)، ولن أنسى معروفك ما حييت.

ذهب أمين لزوجته التي كانت تحتضن غلامها:

حمداً لله على سلامتك يا قرة العين... الحمد لله..

قبّل رأسها، ثم ضمّ غلامه إلى صدره، وقال:

(خالد).. نسمّيه (خالد).. يا أم (خالد).. ها قد أكرمنا الله به بعد أقل من عام على زواجنا يا حبيبتي. قد كدت أتشاءم منه حين رأيتك متعبة.. لكن الحمد لله.

[وهي تبتسم]: الحمد لله.. حسناً.. هاته كي أرضعه فأسكت صياحه.

[وهو يناوله لها]: نعم.. قد أوشك الفجر على البزوغ، وأمامنا سفر يومٍ كاملٍ غداً. نامي واستريحي.. أما أنا فسأحرسك و(خالد)، لا أريد أن تغمض جفوني عنه.. أريد أن أمتّع بجماله ناظريّ، وبي قدرة وصحة لا عليك.

نامت (أم خالد) ونام (خالد) إلى جانبها، وإلى جانبه مد نفسه (أبو خالد–أمين) يمعن النظر بولده الأول الذي ولد في هذا الظرف العصيب:

ترى أيَّ مستقبل ستصنعه لك بلاد الغربة يا بني؟.. من أجلك ومن أجل أمك.. كي تعيشا.. رحلت عن الدار. والله ولو كنت وحدي لما فعلت.. ولكننا سنعود.. سنعود يا (خالد).. أو ستعود أنت.. هذا هو مفتاح دارنا.. ها هو [ويخرج المفتاح] انظر إليه. إياك أن تضيّعه. سنعود لدارنا، وسنفتحها به إن شاء الله.

هكذا كان (أبو خالد) يحدث (خالد).. لكن أحداً لم يكن يعلم أنها وصيته الأخيرة..!

أفاق الناس في الصباح الباكر على بكاء (أم خالد) وصراخها ونحيبها وهي مستلقية على صدر زوجها الذي فارق الحياة!

لقد رأى (أبو خالد) في الليل عقرباً فوق صدر (خالد) فلم يتمالك نفسه حتى مدّ يده وأزاحه عن صدره بسرعة مجنونة، لكن العقرب كان قد لسعه. خاف أن يوقظ زوجته المتعبة فذهب يبحث عمن يعالجه، لكن السمّ عاجله فلم يكد يتحرّك حتى شعر بالموت يجري في دمه فآثر أن يموت إلى جوار ولده وزوجه، فمات بصمت دون أن يجروَ على إيقاظهما!!

عجيبة هي هذه الحياة!! بينما تراها مولية مدبرة، تريك من نفسها أنها راغبة مقبلة، فتمدّ لك من أملها خيط الحياة للمستقبل، حتى إذا بدا لك أنك حزته وأمسكته دون إفلات، قطعته بك لتفقده كأقسى ما يكون الفقد! هذه هي الحياة تريد العناية الكبرى أن ترينا أنها ليست إلا ظل الحياة! أما الحياة فإنها هنالك حيث الجوار العلوي الكريم..فليهوّن على نفسه الانسانُ شيئا من تشبّثه بهذا الظل الخادع الزائل.

أكملت (أم خالد) سيرها مع (خالد) بعد أن دفنت زوجها في الصحراء، ودفنت معه أحلامها ومستقبلها! ترى كيف تنظر لولدها الذي استقبل حياته يوم ودّعها أبوه؟! ثم يا ترى ما الذي تخبئه له ولها الأيام؟!

***

في قصرهم الضخم المحصّن الذي بنوه في شطر (الواحة) الشمالي على البحر، جلس الملك (تيودور) يتبادل مع أركان حكمه الرأي، ويقلّبون الأمور:

نائبه ووزيره الحربي(آلفونسو)، وكان يجلس على يمينه.

مستشاره الفيلسوف الشاب (إيفلاتوا)، ويطلقون عليه (أفلاطون) وكان يجلس على شماله.

وزير مخابراته (ريمون)، وكان أدهى الجميع وأخبثهم ويجلس إلى جانب وزير الحرب (آلفونسو).

ولـ (ريمون) نائبان: الأول هو (آلبرت)، والثاني هو (فرودو).. وكلاهما بمثل خبث (ريمون) ودهائه. كانوا عماد كيانهم وعمدته. كان (آلبرت) و(فرودو) يجلسان إلى جوار (ريمون).

والحاخام (سام) مستشار الملك الديني ومسؤول المعابد والكنس عندهم، وكان بجوار (أفلاطون).

وقائد الحرس: (بيرس) وكان أشجع الشجعان وكان يجلس إلى جوار (سام)، وكانت جلسة سرور واحتفال بالنصر:

الملك (تيودور)[وهو يبتسم ابتسامة النصر]: هيه يا (آلفونسو) كيف وجدت العرب؟ هل زالت خشيتهم من حساباتك وقد وجدتهم لقمة سائغة سهلة الهضم؟!

(آلفونسو): كنت أحسب حساب الأسوأ يا مولاي، وقد عرفت العرب من خلال تاريخهم القديم وظننتهم لا زالوا ينتمون له، وعلى أية حال لقد أصابتهم قوتنا الزائدة بالصدمة والرعب، وهذا أفادنا كثيراً.

(ريمون): لا وحق الآلهة لا ينبغي الأسف على أية قوة في مكانها أو غيره، استخدمناها ضدّ هؤلاء الرعاع، وأحسب أن مولاي الملك لا يبكي على العرب بقدر ما يريد تعزيز ثقتنا بأنفسنا وطاقاتنا وإمكانياتنا الكبيرة.

(الملك تيودور): أصبْتَ يا (ريمون)، إنما أردت أن أذكّركم أيها السادة، ونحن نصنع نصرنا ونحقق حلمنا الذي طالما عاش لأجله أجدادنا الأوائل. أردت أن أذكركم أن أيام التشرد والضعف قد ولّت إلى غير رجعة، وأن مجد العرب قد بات شيئاً من التاريخ اللامأسوف عليه.

(إيفلاتو – أفلاطون): إذا أذن لي مولاي.. أظن أننا متفقون على ضرورة عدم الاستهانة بقدرات الخصم مهما كانت، غير أنه لم يكن يخالطني شك يوماً ما أن هؤلاء المتخلفين الأمّيين الجهلة يمكن أن يتفوقوا علينا. لا، ما كانوا ليستحقوا هذه الأرض الساحرة. إنها لنا. خلقت من أجلنا وخلقنا من أجلها. قد أعدنا ناصية التاريخ لمكانها الصحيح.

(الحاخام سام): هي منحة الرب يا مولاي، وهبته العادلة لشعبنا عن استحقاق، وقد أكرمك الرب يا مولاي بأن ألبسك تاج ملكها بعد طول غياب.

(آلفونسو): هلّا تكرم مولاي بالسماح لي بطرح أمرٍ ذي بال في هذه الساعة الجميلة.

(الملك تيودور): قل يا (آلفونسو) فكل أوقاتنا أوقات عمل.

(آلفونسو): تعلم يا مولاي حفيظة العرب تجاه نسائهم، وليس من الحكمة استثارة حميتهم، خاصة ونحن في أيامنا الأولى ونحتاج إلى ما يهدئ من روع الناس، ونسعى إلى استتباب النظام، ثم إن في نسائنا ما يكفي حاجة الجند، فأرجو من جلالتكم إصدار قانون يعاقب من يعتدي على نساء العرب من جنودنا.

(ريمون): بعد إذن مولاي. إنه لا يجب السماح لحماقة بعض الجند بالتخريب على مخططاتنا. اتركوا التعامل مع العرب لنا. نحن نعرف كيف نجعلهم يدينون لنا بالولاء ويقدمون لمملكتنا فروض الطاعة، والقضية أكبر من مجرّد إشباع نزوات.

(الملك): وما يقول سعادة مستشارنا الحكيم؟

(المستشار أفلاطون) [وقد أومأ رأسه للأسفل]: مولاي.. (إن الخصم الغبي يستفز كل طاقة خصمه الكامنة وينفخ فيه روح المقاومة والاستبسال من خلال حماقته، فهو يجدد في عروقه دماء الشباب بتصرفه الأرعن من حيث أراد هزيمته، أما العدو الذكي فإنه يصطاد خصمه بشِباك من حرير ويجعله يخدمه ويشعر له بالامتنان). وإذا أذن لي مولاي فأرى بأن نطلق يد (ريمون) في التعامل مع العرب. لقد انتهت الحرب العسكرية، وأدى جنودنا دورهم ببسالة، وقد آن للجيش أن يتراجع دوره لصالح جهاز مخابراتنا الرائع.

وبدا السرور واضحاً والارتياح والإعجاب على أعين رجال المخابرات (ريمون) و(فرودو) و(آلبرت).

(الملك تيودور): حسناً. لقائدي (ألفونسو) ما طلب، وها قد سمعت يا (بيرس) فليحترس جنودنا من استثارة حفيظة العرب، وسيعاقب كلُّ من يخالف الأمر. أما أنت يا (ريمون) فأنت ورجالك مطلقو اليد في تحديد الطريقة المثلى للتعامل مع هؤلاء، فهل هذا يسرّ مستشارنا المخلص؟

[هزّ المستشار رأسه للأسفل]: مولاي...

(ريمون): أرجو أن نكون عند حسن ظن مولاي، وقريباً سيكون بين يدي مولاي مخططنا للتعامل مع العرب في المرحلة الراهنة.

***

في بيت (مصعب).. جلست زوجته وضيفتهم تتحدثان:

– (أم خولة– زينب) [وفي حضنها (خولة)]: هل تمانعين سؤالك بعض الأسئلة؟

(زوجة مصعب أم شهيد) [وفي حضنها رضيعها (شهيد)]: على العكس يا أختاه، فوالله إني لأحبك وأحب حديثك العذب. تفضلي

لماذا أسميتموه (شهيد)؟

تعلمين مقدار حب زوجي لزوجك (حسن) رحمه الله، ولقد كان ينوي تسميته (حسن) لكن عندما استشهد (حسن).. آلمه رحيل بطل مثله دون أن يسمع عن بطولته أحد، فآثر أن يسمّيه (شهيد) يختصر بهذا الاسم النموذج الفريد الذي جسّده زوجك البطل الشهيد رحمه الله.. وقد رزقنا ب (شهيد) بعد استشهاد (حسن) بيوم واحد.

كانت عينا (أم خولة) تدمعان وهي تستمع إلى حديث صاحبتها وتحاول جاهدة أن تمنع نفسها عن البكاء فقالت:

آه.. إذن (شهيد) يكبر (خولة) بأربعة أيام فقط.. (خولة) ولدت في خامس أيام استشهاد (حسن)..

ثم أجهشت بالبكاء، وبكت معها (أم شهيد) وأخذت بيدها.. ثم

تمالكت (أم شهيد) نفسها وأخذت تقرب (شهيد) من (خولة) وهي تلاعبها وتقول له:

انظر.. انظر يا (شهيد).. ها هي عروسك القادمة... انظر ما أجملها؟!

هل تقبلين(شهيد) عريساً ل(خولة) يا أمها؟!

[قالت ذلك وهي تبتسم].

(أم خولة) [وقد ردّت بابتسام لكنّها غيّرت الموضوع]: بقي لديّ سؤال يتعلق بزوجك إن أذنت لي.

أظنك ستسألين عن أخيه (كريم)؟! وكيف لمثل هذا أن يكون شقيقاً لزوجي؟! أو كيف استطاع (مصعب) أن يقتل أخاه في ذلك اليوم؟!

هزت (أم خولة) رأسها بالإيجاب.

كان (كريم) أصغر أخوته، (مصعب) وأخواته الثلاثة، وكان (كريم) هذا شديد الدلال، سيء السمعة، لطالما سبّب لأبويه الإساءة، وكان عاقاً لهما، ولمّا حصل الغزو اختفى فترة من الوقت، ثم ظهر وقد زادت أخلاقه سوءاً، وعبثاً حاول (مصعب) إصلاحه، لقد طرده أبواه من المنزل وتبرّءا منه ومن أفعاله، لقد أراحهم الله منه ومن شروره.

في هذه الأثناء طرق (مصعب) الباب ثم دخل بعد أن فتحت له زوجته.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

كيف حالك يا أختاه وكيف حال (خولة)؟!

ثم تناولها من يدها وهو يلاعبها.. ثم حمل (شهيد) وقام يلاعبهما معاً:

هيا.. هيا.. اكبرا سريعاً.. على أيديكما ستحرّر (الواحة)... مدينتنا الجميلة بانتظاركما.. لا تتأخرا في النمو...

(أم خولة): أخي (أبا شهيد).. ماذا بشأن المنزل؟!

(أم شهيد): هل سئمت العيش معنا يا (أم خولة)؟! والله إني ما عدت أطيق فراقك.

(أم خولة): ولا أنا والله.. ولكنه الوعد الذي بيني وبين (أبي شهيد).. أليس كذلك؟

(مصعب أبو شهيد): بلى.. بلى.. المنزل جاهز منذ ثلاثة أيام وهو قريب جداً من هنا، وهو مناسب إن شاء الله. ستذهب معنا (أم شهيد) لنريك إياه في أي وقت تريدين.

(أم شهيد): بعد الغداء إن شاء الله.

***

في غرفة مخابرات القصر جلس (ريمون) ونائباه (آلبرت) و(فرودو) يرسمون مخططاتهم:

(ريمون): المقاومة الشعبية التي واجهناها في أشهرنا الأولى بدأت تخبو وتضعف، والخسائر في جنودنا بدأت تقل.

(فرودو): أظن أنه لن يمضي كثير حتى يعاودوا تنظيم صفوفهم من جديد، ولربما شهدنا موجات أخرى من المقاومة في قادم الأيام.

(آلبرت): دعونا نصنف الناس أصنافاً ثلاثة: المقاومون وهم قلة من

المتحمسين وهؤلاء علينا أن لا نتعامل معهم بهوادة أو رحمة، والمتعاطفون معهم، وعلينا أن نحول هذه العاطفة إلى عداء، والمحايدون وهؤلاء علينا أن نكسبهم إلى صفنا.

(ريمون): جميل.. تصنيف جميل.. وكيف نحقق ذلك؟

(فرودو): على أسلوبنا مع المقاومين أن يختلف عن السابق.. سابقاً كنا لا نعرف معهم سوى القتل حين نظفر بهم أو نعرف عنهم.. وهذا الأسلوب وإن كان قد أدّى دوره بنجاح فيما مضى فإن استمراره وحده الآن فيه ضرر.. أرى أن نلجأ إلى العمل الاستخباري القائم على جمع المعلومات، ونلجأ إلى السجن والحبس الطويل.

(ريمون): أما جمع المعلومات والمراقبة فلكي نمسك كل الخيوط، إذْ نصبر بعض الوقت على من نتعرّف على هويته حتى نتمكن من معرفة بقية أعوانه.. ولكن ما الذي يجبرنا على اللجوء للحبس والاعتقال؟!

(فرودو): هذا يخفف دوافع الثأر لديهم، ويقلل نماذج الأبطال وينزع فتيل الثورات، ثم إن درجات عقابنا لهم يجب أن تتفاوت، فلو قتلنا كل من كَرِهنا أو حرّض علينا بلسانه لدفعنا الناس إلى عدم التفكير إلا بالسيف وحده وهذا ما لا نريده.

(آلبرت): أما المتعاطفون: فعندما يدفعون ثمن أعمال المقاومين في رزقهم وأمنهم وحياتهم، فعندها سيكرهونهم، والمحايدون إن أردناهم معنا فليس إلا الجنس والمال. إن إغراءنا لهم مع شدتنا وبأسنا ضد المقاومين ستجعل منهم جنوداً أوفياء لمملكتنا.

(ريمون): تدرون.. لو لم نستفد من العربي حين يخدمنا بأية معلومة، لو لم نكسب إلا إفراغه من انتمائه لهويته وأرضه، لو لم نحصل إلا على جعله لا يفكر إلا في بطنه وجيبه وما بينهما... لكفانا.. فلنرسم إذاً ملامح خطتنا ونسلّمها للملك للمصادقة عليها.

***

وصلت (أم خالد) مدينة (الأمل) مع عشرات الناس، كان (خالد) الرضيع اليتيم في حضنها تلصقه بصدرها المنهك.. خرج المئات من سكان مدينة (الأمل) الطيبين لاستقبال الضيوف المهجرين:

هل صحيح أن الغزاة كانوا يبقرون بطون الحوامل ويخرجون أطفالهن أحياء ثم يقتلونهم؟!

هل صحيح أنهم كانوا يشربون الخمر بجماجم القتلى؟!

هل كانوا يحرقون البيوت وأصحابها فيها؟!

سمعنا أن فيلهم الضخمة كانت تسحق الناس؟!...

وأسئلة كثيرة من هذا النوع...واجه بها سكان (الأمل) ضيوفهم المهجرين.

***

– وهل كانوا يريدون معرفة الأخبار وحسب يا عماه؟!

قال (سلام) (لأبي البشائر) الذي ردّ عليه:

أو لعلهم كانوا يبحثون عن إجابات تقنعهم أمام أنفسهم حين يخلون بها، وتبرر لهم قعودهم عن نجدة إخوانهم!

يا للنفس حين تحاول أن تخدع ذاتها!! هل تراها تفلح أم هل تراها تستريح؟!

– أحسب يا بني أن لكل واحد منا لحظة صفاء من عمره أو لحظات ينظر فيها إلى صورته في مرآة نفسه فيراها على حقيقتها ودون بهارج، تتكشف له تماماً دون قناع... قد يحاول أن يشيح بوجهه أو يغمض عينيه.. ولكن هذا لن يجديه.. فقد رأى المستور والمخبوء.. وهيهات هيهات لو غطّاه..

– دعنا نعود إلى الأحداث يا عماه

***

كان المهاجرون من (الواحة) متعبين ومرهقين.. لم يجيبوا أحداً على سؤاله.. كانت عيونهم وحدها تحمل الجواب. أخذ أبناء (الأمل) على عاتقهم مهمة تأمين ضيافة مؤقتة ومن ثمّ مساكن لضيوفهم المشرّدين.

وكان نصيب (أم خالد) أن تذهب مع (أم حسن) شقيقة الشهيد (حسن)، حيث جاءت إلى المهجرين لعلها تجد خبراً عن (حسن) وزوجته وهو ما لم تحصل عليه.

– أسميته (حسن) على اسم خاله الوحيد.. لقد رحل إليكم.. الناس يتركون (الواحة) وهو سافر إليها، وبعد أن تستريحوا هنا ستعيشون في داره، وهي دار أبويّ المتوفيين، ولن أتركك تذهبين حتى تملّي منّا!!!

قالت (هند أم حسن) ل (أم خالد) وهي تستقبلها في بيتها الذي لا يوجد فيه إلا زوجها صاحب أخيها (حسن) وابنها (حسن) الذي أنجبته بعد رحيل خاله بأيام معدودات، فردت (أم خالد):

– جزاكم الله عنا كل خير، لا أدري كيف أشكركم، لقد رحل بنا (أبو خالد) هروباً من الموت وكان يخشى علينا لا على نفسه، لقد أوصلنا إلى مأمننا ثم رحل.. رحل بعد أن فدى ولده الوحيد بنفسه، ولده الذي عاش يحدّثه طوال الليل... [ودمعت عيناها] رحل يرحمه الله ليمنحنا الحياة وكأن للحياة معنى بدونه ؟! لا إله إلا الله...

– [وهي تحاول أن تغيّر الحديث وقد تناولت ولدها منها]: (خالد) ما شاء الله... إنه شديد الشبه بك، عمره يومان إذاً أو ثلاثة.. (حسن) يزيد عنه ثلاثة أشهر، سيصبحان أجمل صاحبين.

– إن شاء الله.

***

مع حلول المساء في (الواحة)، وفي مكان منعزل وتحت مجموعة من الأشجار، جلست مجموعة من شباب (الواحة) تتدارس الموقف:

– (ثائر): سنة على الغزو... الناس في خوف شديد... والمقاومة خبت تقريباً، وإمكانياتنا ضعيفة.. لا سلاح لدينا إلا إرادتنا ورغبتنا الثائرة... ماذا ترون... كيف نبدأ ؟!

– (خبيب): علينا أن نبحث عن مصدر للمال... لا بدّ أن نجد من يتبرع لنا لتأمين النفقات، ومن ثم فإنه يمكننا شراء السلاح من العدو نفسه

إن عجزنا عن انتزاعه منهم عنوة.

– (نبيل): أرى أن علينا أن نبدأ بأمرين اثنين أولاً قبل التفكير بمهاجمة الجنود الغزاة... أما الأول فهو مراقبة الخونة وتحركاتهم كي لا نؤتى من مأمن، والثاني مهاجمة محلات العدو التجارية، وحرق مزروعاتهم... وفي هذا تدريب لنا وكسب للوقت مع إزعاج الغزاة وإيذائهم.

– (عامر): نحتاج للتدرب على السلاح. لا أحد منا يتقن استخدامه. علينا أن نبحث عن أصحاب الخبرات.

– (هاشم): دعونا نتفق على تجنب الفعل الفردي. ننفذ ما نتفق عليه فقط، ونواصل التفكير والبحث عن حلول.

– (ثائر): حسناً، نلتقي الأسبوع القادم في نفس المكان والزمان. يحاول (نبيل) أن يضع لنا تصوّره عن الطريقة التي يقترحها لجمع المعلومات عن الخونة الذين يتعاملون مع الغزاة، ويجتهد (عامر) و(هاشم) في البحث عن مصادر للتمويل، وترشيح أسماء تصلح للعمل معنا، أما أنا (وخبيب) فستكون مهمتنا البحث عن السلاح والتدرب عليه. هيا بنا.

***

في قصر الملك (تيودور)، وفي مخدعه، جلس مع زوجته (مادلين) يحدثها وتحدثه:

– (تيودور): ها قد تحول حلم الأجداد إلى حقيقة. على يديّ أنا حوّله

الرب إلى حقيقة، وها هو ملكنا بدأ يستقر ويثبت، وسنعمل على توسيعه وامتداده. كل أحلامنا سنجسدها إلى حقائق.

– (مادلين): نعم يا مولاي. وعلى الرغم من أن المُلك وأعباءه الجسام يأخذاك مني طيلة الوقت، إلا أنني في غاية السعادة لما آلت إليه مملكتنا. انظر إلى (ليئات) [وتشير إلى ابنتهم الصغيرة في سريرها]. لقد ولدت هنا في أرض الأجداد مع أيام التحرير الأولى. انظر إلى سحر عينيها الزرقاوين.

– سامحيني يا (مادلين) فإني أعمل من أجلكم أنتم ومن أجل شعبنا المكافح. [ثم توجّه نحو ابنته النائمة]: حبيبتي (ليئات) يا لجمالك الساحر. كلّك لأمّك، لست مني في شيء. [ثم التفت إلى زوجته]: أرأيت كم أحبك؟! حتى أني أنجبت ابنتنا ومنحتها كل صفاتك لتعلّقي بك.

– [وقد احمرّ وجهها]: هذا لطف منك مولاي وتواضع. إنها ابنتنا يا مولاي ولئن أخذت صورتها مني فإن روحها وذكاءها وأخلاقها من مولاي الحبيب.

غير الملك الحديث وقال لها:

– تدرين يا عزيزتي. (ريمون)

– وهنا ارتبكت (مادلين) قليلاً... ثم واصل قوله:

– (ريمون) رجل متوقّد الذكاء إلى حد الخبث، وبمقدار ما أشعر بالفخر لأن مملكتنا أنجبت أمثاله من النوابغ، بمقدار ما أخافه!! أشعر أن ذكاءه لا يقف عند حد، حتى حد الملك.

– كلا يا مولاي. كل جنودك وإمكانياتهم مسخرة لخدمة الملك

والمملكة، ولن يكونوا إلا منك ولك يا مولاي...

– نعم... نعم... أرجو ذلك يا (مادلين)... أرجو ذلك.

***

في غرفته في القصر، والتابعة لقسم المخابرات جلس (آلبرت) يستجوب (مصعب):

– (آلبرت): (مصعب).. السيد (مصعب) معلّم الأولاد العربية والقرآن في المسجد.. أهلاً وسهلاً.

– (مصعب): وهل التعليم ممنوع أيضاً...؟!

– (آلبرت): لا... لا.. على العكس نحن نحب أن تعود الحياة إلى هدوئها وطبيعتها، التعليم والتجارة والزواج وكل شؤون العيش، ولكن اسمح لي ألا أصدق يا عزيزي أن دورك يقتصر على تعليم الأولاد الصغار. ألا تكرهنا ؟ ألا يكرهنا أبناء شعبك..؟! وللعلم فهذه مشاعر طبيعية نستوعبها ونتفهمها.

– (مصعب): هل أنا هنا لنتبادل المشاعر؟! ماذا أشعر نحوك وماذا تشعر نحوي؟!

– ألا تلاحظ أنك تسأل بدل أن تجيب؟! ترى من هو السائل ومن هو المسؤول هنا؟!

– وألا تلاحظ أنت أن من الأفضل لي ولك أن تسألني مباشرة عما تريد، حتى أجيبك، فتكون السائل وأكون المجيب؟!

– (آلبرت): أنت ذكي يا (مصعب)، وأذكى مما قيل لي عنك! أين أخوك (كريم)؟!

– (مصعب): عفواً حضرة الضابط، أنا من عليّ أن أسأل هذا السؤال: أين أخي؟ هل قتلتموه أم اختطفتموه وأخفيتموه؟! ماذا فعل لكم؟! أخي مسالم ولا يؤذي أحداً..

كان جواباً مفاجئاً واثقاً، هذا الذي أجابه (مصعب) لـ (آلبرت) مما جعله يزيل أي شك لديه بأن (مصعب) يمكن أن يكون على علم بمكان أخيه... فقال له:

– هذا كلام فارغ، لو كنا نريد قتل أحد سنقتله في وضح النهار، فنحن لا نخاف، وكل من يفكر بمعارضتنا سنسحقه.. لكن أخاك كما قلت ليس من هؤلاء الأوغاد...

[قاطعه (مصعب)]: مادام لم يتعرض لكم، فلماذا تسأل عنه وما علاقتك به؟! هل تريدني أن أصدّق ما تقول؟! ربما قتلتموه بالخطأ وتخشى من الاعتراف؟!

وهكذا تحول (مصعب) من مدافع إلى مهاجم بكل لباقة... فرد (آلبرت) بعصبية:

– قلت لك نحن لا نخشى أحداً، ونحن نسأل عمن نشاء، وذلك لتعلم أنت وكل فرد من شعبكم أنكم تحت أعيننا، ونعرف كل شي عنكم، فإياك أن تحاول التفكير أنت وسواك بالوقوف في وجهنا... اغرب عن وجهي وحاذر أن أراك في موطن لا أحبه.. أفهمت؟! اغرب عن وجهي.

خرج (مصعب) وهو يقول في نفسه: لكن معركتنا لم تنته يا (آلبرت). فاتورة حسابك تزداد يوماً بعد يوم.. وسيأتي يومك أيها الوغد.

***

بعد شهر من اللقاءات المتواصلة، تمكن (ثائر) و(خبيب) من إنجاز مهمتهما فتعرفا على أحد كبار السن الذي كان أخفى بعض السيوف، وكذلك (نبيل) الذي وجد في حانة الخمر والقمار التي افتتحها أحد سيئي السمعة مكاناً مشبوهاً لو رصده لأمكن الإمساك ببعض الخيوط التي يمكن أن تقودهم لمعرفة الذين يتعاونون مع الاحتلال، فيما نجح (هاشم) و(عامر) في ترشيح أسماء جديدة للعمل لكنهما اخفقا في الحصول على مصدر للتمويل.

– (ثائر): مضطرون إذاً للاعتماد على أنفسنا حتى نجد مصدر تمويل، وأقترح أن نتكلف كلنا بالبحث عن مصادر للمال.

– (نبيل): نعم كل طريقة للحصول على المال هي مبررة مهما كانت، فنحن لا نعمل لأنفسنا بل من أجل الناس ولنا الحق في مالهم شاؤوا أم أبوا.

– (خبيب): على رسلك يا (نبيل) هذه لهجة لا أحبها، هل نسرق الناس مثلاً إن أبوا إعطاءنا مالهم؟

– (نبيل): ليس شرطاً أن نسرقهم، ثم هذه لا تسمى سرقة، إنما هو حقنا.

– (خبيب): الغزاة سرقوا أرض الناس ومالهم، ونحن نسرقهم كذلك؟! ما الفرق بيننا وبين الغزاة إذن؟! هذا كلام سخيف.

– (نبيل): إن لنا في أموال التجار والأغنياء ضريبة مفروضة، عليهم دفعها شاؤوا أم أبوا.

– (خبيب): نحن عصابة إذن لا مقاومة.

– (ثائر): كُفًّا عن ذلك. كلّنا مكلّف بالبحث عن مصادر تمويل إلا (نبيل)، ولا يمكن أن نبدأ مشوارنا بوسائل تؤلب علينا الناس. هذا يضر بمصالحنا. وسنتفق الآن على مواعيد التدريب وعلى كل منا أن يواصل مهمّته، فالطريق أمامنا صعبة وشاقّة.

– (خبيب): أفلو كانت تخدم مصالحنا نمارسها ؟ أين المباديء ؟ وأية ثورة هذه ؟ لا أقبل هذا المنطق أبدا.

***

في بيتها الجديد وقد زارتها جارتها:

– (أم خولة): قلت لك يا (أم شهيد)، القراءة والكتابة لكل النساء، لكل من ترغب في التعليم ولا يضيق صدري بذلك فهو واجبي أولاً، وهو ثانياً يوفر لنا مصدر دخل يؤمن حياتنا الزاهدة، أما التمريض فلأنه تمريض (حربي أو قتالي) إذا جاز التعبير وأخشى أن يلفت نظر الغزاة فأرجو أن يظل في أضيق دائرة وعلى من ترشحين فضلاً عن أن الحاجة إليه الآن غير ملحّة.

– (أم شهيد): نعم إن شاء الله، أما أنا فسأعلمك الحياكة والتطريز فلا أظن أن إقبال النساء على التعليم سيتواصل ولربّما تشجُّعُهُنَّ هذا بسبب أن الأمر جديد عليهن، ولعلهن يسأمن بعد قليل، فلا بد من وجود مصدر دخل آخر لك.

– (أم خولة): أما تعلم الحياكة فنعم، وهذا بدل أجرتك [قالتها وهي تمزح وتضحك]، ولكني لا أرى في إقبال النساء هنا على تعلّم القراءة والكتابة مجرد حماسة آنية. إني أرى أنهن وجدن أنفسهن بالتعليم، ولقد طلبت بعضهن أن أعلّمَ بناتهن الصغار معهن.

– (أم شهيد): وهل ستفعلين؟

– (أم خولة): إن شاء الله، ولكن بعد أن أرتب وقتي، فكما تعلمين: (خولة) لا زالت رضيعة وهي تحتاجني على الدوام.

– (أم شهيد): أما عروس (شهيد)، حبيبتنا (خولة) فلست وحدك من يهتم بها. إنها عروسنا ولنا في رعايتها نصيب.

ضحكت (أم خولة) و(أم شهيد) التي عادت إلى بيتها تحدث (شهيد) الرضيع عن عروسه (الرضيعة) وتحلم بهما وقد كبرا وأصبحا أجمل عروسين.

***

– (خبيب): ما كان عليك أن تصفح عن (نبيل) يا (ثائر)، لقد خالف أمرك وما اتفقنا عليه. لقد أساء إلى سمعتنا. لم أرتح له البتة حين أخبرنا أنه عثر على مصدر للتمويل وبدأ يزودنا به، ولولا شكّي به وبحثي وتحرياتي

لظل يخدعنا. لقد وصل به الأمر إلى تهديد الناس والتجار وأخذ أموالهم تحت التهديد ابتزازاً وسرقة، كيف سنكسب ولاء الناس؟! وما الفرق بيننا وبين الغزاة إذن. إنه سارق وكاذب، ولا يصلح للثورة.

– (ثائر): يا (خبيب)، إنها سقطة دفعه إليها حرصه على العمل وإنجاحه، ولا تنس ذكاءه وخدماته المتواصلة، وقد رأيت كيف ازداد ولاؤه للعمل وانضباطه بعد أن صفحنا عنه وأعطيناه الفرصة.. أليس كذلك؟ ثم لو اقتصرنا في تنظيمنا على الأنقياء البررة – كما تقول – لانتهت الثورة قبل أن تبدأ. علينا الاستفادة من كل جهد. دعك من هذه المبدئية في غير موضعها !!

– (خبيب): هذه مبدئية حقة وفي محلها. أما ولاء (نبيل) فقد زاد لك لا للثورة. والله لا أحبّه، ولا أرتاح للعمل معه، وأرجو ألا تكلفني بأية مهمة مشتركة معه.

ضحك (ثائر) وطوى صفحة النقاش واعتبره أمراً اعتيادياً، لكن المشكلة لم تحل، وظل (خبيب) لا يرتاح لـ (نبيل) الذي عرف لاحقاً هذا الأمر، وشعر أن (خبيب) يحرض (ثائر) عليه فعاداه هو الآخر، وازدادت الهوة بينهما، وقلّما خلا مجلس مشترك يضمهما من مشادات كلامية كان يفصل فيها (ثائر) ويسوّيها بترضية كليهما، دون أن يعالج الأمر من جذوره، وظل على الدوام يراه أمراً اعتيادياً.

***

– (سلام): وهل يسرق الثائر شعبه يا عمّاه ؟ أقصد هل يمكن للغاية النبيلة أن تبرر عمل السوء ؟

– (أبو البشائر): أبداً يا عماه. الخير لا يوصل له إلا بالخير، والشر لا يصنع خيراً على الإطلاق، ولكن الإنسان حين ينسى الله، يفقد الميزان الذي يميز به الزبد مما ينفع الناس، وتضطرب رؤاه، ويخسر البوصلة التي ترشده للصواب وتهديه للتي هي أقوم.

– ولكن لماذا صفح (ثائر) عن (نبيل)؟! كان عليه أن يستمع إلى نصح (خبيب).

– أما (ثائر) فسأترك تحليل شخصيته والحكم عليه لك أنت، وأعلم أنها ستكون مهمة شاقة.

– ألهذا الحد كانت شخصيته غامضة ومعقدة؟!

– ربما. وربما كانت الموازنات التي بين يديه والخيارات التي أمامه في غاية الغموض والتعقيد!! إنها الأحداث التي تجعل الحكيم حيراناً يا بني؟!

– دعني أستثني فأقول: إلا الذي كان يمشي في الأرض بسلطان الله في قلبه، ونور الله في كيانه، ويذهب ويجيء وعليه شارة مولاه.

– أحسنت يا (سلام). إلا الذي كان يضع خطاه حيث يقودها مولاه.

***

في مدينة (الأمل)، وفي منزل (أبو حسن):

– (أم حسن): لقد ضقت ذرعاً باهتمامك الزائد بها، هذه ليست شفقة ولا رعاية...

ضحك (أبو حسن) وقاطعها:

– أجمل ما فيك غيرتك! يا لسعد (أبي حسن) بحب (أم حسن) له، غير أني لم أكن أتصوّر أن الأمر يصل حد (أم خالد)؟!

– اسمع. أنا لا أمزح. لا والله ما ألومها بأي شيء، وإني أثق بها وبإخلاصها وحبها لي كما هو حبي لها، ولكني لا أثق بعينيك الزائغتين. أنت من يبالغ بالاهتمام بها فوق ما ينبغي.

– يا امرأة، كفي عن هذه الحماقة. هي تعمل –بناءً على طلبك– في محل العطارة والطيب، وهي إحدى محلاتي، والتي أمرّ عليها جميعاً لتفقدها. لاتهلكنّك غيرتك يا (أم حسن).

– لا تحاول خداعي بكلماتك، فأنا أعرف نظراتك أكثر منك.

– الغيرة يا (أم حسن) أجمل ما تكون عندما تظل في إطارها المعقول، فإذا مازادت عن الحد صارت مرضاً، كأي جميل يزيد عن حده فينقلب ضده. ستدمرين حياتنا إن ظللت بهذا العقل الصغير.

– أنا أحبك يا (أبا حسن) ولا أستطيع تخيّل ابتعادك عني... أرجو أن تقدّر ذلك..

– وأنا أحبك وأحب حبك المجنون.... ولن أكون إلا لك.. لك وحدك يا مجنونة حبي.

سكتت (أم حسن) لكن نار غيرتها لم تنطفئ، واستمرت في الغليان، الأمر الذي ظل يسبب لهما المتاعب بين الفينة والأخرى.

***

في قصر الملك، وفي غرفة الحرب:

– (آلفونسو): (بيرس)، أنت قائد الجند، وأنت من أبرع وأخلص المقاتلين الذين عملوا بتفانٍ لأجل مملكتنا، وثقتي بك لا حدود لها.

– (بيرس): هذا من لطفك يا سيدي، وأنا جنديك الأمين الذي تعلّم ويظلّ يتعلّم من قائده الكثير، وما أنا إلا سحابة كوّنها ماء بحرك الكبير، فإن أمطرت فمن بحرك، أو تحرّكت فعلى إيقاع أمواجك.

– بل أنت تستحق كل التحية والتقدير يا (بيرس)، ودعني أصارحك. لثقتي بك أود مصارحتك بما يختلج في صدري.

– تفضل يا سيدي، وهذا شرف عظيم يمن به عليّ قائدي العظيم.

– (ريمون)... (ريمون).. يا (بيرس).. لقد أطلق الملك يده في شؤون العرب، وأخذ كثيراً من صلاحياتنا، وبالمقابل فإن تودده الدائم لي ونصحه المتواصل الذي أفادني كثيراً، لا يجعلني إلا أن أشعر تجاهه بكل ود وحب. لا أدري يا (بيرس) هل أحبه أم أخشاه.. أفدني يا بيرس ماذا أفعل؟

– سيدي أعلم بالرجال مني، وأقدر على الحكم على الأحداث والأشخاص والأمور.

– (بيرس)، إنما أستشيرك وأريد رأيك، لا تخش شيئاً. انصحني فأنا في حيرة من أمري أيها الجندي المخلص الأمين.

– ما يمكنني أن أقوله لسيدي هو أنني سأظل جنديّه المطيع الوفي الأمين على الدوام. سأظل أحرسه وأرعاه ما حييت. وكلُّ أمرٍ يطلبه مني سيدي سيكون تنفيذه أحبّ إليّ من زوجتي وبيتي.

– (بيرس).. أريد عقلك الآن.. لا ساعدك وقلبك.

ثم إن (آلفونسو) يئس من (بيرس) وتوقف عن طلب نصحه.

كان (بيرس) من أصول شرقية على عكس بقية أركان المملكة ذوي الأصول الغربية، وكان يشعر بالنقص الدائم بسبب هذا الأصل، فنذر نفسه للتفاني في خدمة المملكة، ولم يكن يسمح لنفسه بالتدخل في خلافات الكبار، فهو دونهم كما كان يرى، وهم فوقه كما كانوا يرون.

***

بدأ (ثائر) ورفاقه بالعمل المتأني واثق الخطى، وكانت أعمالهم الأولى تستهدف المحاصيل الزراعية التابعة للغزاة، فما يكاد يقترب موعد حصاد الزرع حتى يتم إحراقه، الأمر الذي أزعج الغزاة وجعلهم يتخذون إجراءات عقابية بحق السكان الآمنين، والقيام بحملات تفتيش ومداهمة واعتقال للفتيان والشباب، وكانوا يخضعونهم لتحقيقاتٍ قاسية، ويستخدمون معهم أبشع وسائل التعذيب، لكن المقاومة وحرق الأراضي كانت تزداد وتتسع.. ثم خطى (ثائر) ورفاقه خطوة متقدمة أخرى للأمام حيث اكتملت لديهم معلومات كافية تؤكد تعاون صاحب الحانة مع الغزاة، حيث رصدوا لقاءاته المتكررة معهم في منتصف الليالي، فاتخذوا قراراً بقتله، وأوكلت مهمة التنفيذ إلى (نبيل) و(هاشم) اللذين قاما بالمهمة على أكمل وجه، فاغتاظ (آلبرت) على هذه الحادثة.

وفي غرفة الحرب في القصر قال (ريمون) لـ (آلفونسو):

(ريمون): عزيزي (آلفونسو) لقد حرصنا فيما مضى على تخفيف ظهور جنودنا أمام الناس حتى نجعلهم يعودون إلى سابق حياتهم الطبيعية، وقد أدّى هذا دوره، والمطلوب أن نغيّر تكتيكنا الآن.

– (آلفونسو): عزيزي (ريمون). لقد كنت على ثقة أن دور جنودنا يجب أن يظل محفوظاً، لا بد أن يحس الناس بسطوتنا وبأسنا حتى يخافونا، ولربما غيابنا عن أعينهم هو الذي شجع أعمال التخريب عندهم.

– (ريمون): عظيم، مادمنا متفقين على ذلك، فلنحدث الملك بذلك.

– (آلفونسو): وما الذي يمنعك من عرض الأمر عليه وقد أطلق يدك في شؤون العرب؟!

– أحب أن يأتي الاقتراح منك فإذا ما سألني أيّدته، فأنت نائب الملك وأنت أولى من يشير عليه بالآراء السديدة، وأظن الملك سيسّر باقتراحك. أظهر له قلقك من تصاعد أعمال التخريب، وضرورة إظهار الشدة والبأس للناس.

أعجب (آلفونسو) بالفكرة، وعرضها على الملك في وجود (ريمون) فأيّدها بشدة وأثنى على (آلفونسو)، لكن (إيفلاتو) نصحهم بعدم المبالغة في إظهار الجنود بكثافة بين الناس وأن يتجنبوا استفزاز العامة. ووافق الملك على هذا الاقتراح، وتمت المباشرة بتنفيذه، فيما واصل (آلبرت) و(فرودو) متابعة التحقيقات والاعتقالات في محاولة لمعرفة من يقف خلف الأعمال الأخيرة، دون أن يفوتهم أن ميدان الاعتقال والتحقيق ساحة مهمة للتعرف على الناس والعامة بشكل أفضل ودراستهم عن قرب، لزيادة عدد

المتعاونين عبر عروض الإغراء بالجنس والمال فضلاً عن الترويع والتهديد، رغم ذلك فقد ظل (ثائر) ورفاقه بمنأى عن الأعين وبمنأى عن أي شك، ولم يتم الإمساك بأي خيط يوصل إليهم، مما أغاظ الغزاة وجعلهم يكثفون تحرياتهم.

استمر (ثائر) ورفاقه الذين كانت أعدادهم وتدريباتهم وامكاناتهم وخبراتهم تزداد باطراد.. استمروا لأكثر من سنة في عملهم البطيء والمنظم مما أعطاهم الثقة بالنفس:

– (خبيب): ألم يئن الأوان أن ننتقل إلى مهاجمة الجنود؟ لقد قتلنا ثلاثة من الخونة الكبار حتى الآن، وأحرقنا وأتلفنا عشرات المزروعات والمحاصيل، وقد بات الجنود بيننا يروحون ويجيئون. كم يستفزني منظرهم في الأسواق.

– (نبيل): لازال الوقت مبكراً على ذلك، وهذا سيعجّل في انكشافنا، والشجاعة لا تعني التهوّر.

– (خبيب): إذا كان قولي تهوراً فهل قولك خور وجبن؟

– (نبيل): لقد تجاوزت حدك. أنا لا أسمح لك..!

– (خبيب): ومن أنت حتى تسمح أو لا تسمح..

وكادا يشتبكان بالأيدي، فهدأهما (ثائر) وقال:

– (ثائر): الحقيقة أنني ومنذ أيام أفكر بما قاله (خبيب)، وقد انشرح صدري لأني وجدت من يفكر مثلي، (خبيب) و(نبيل) كلاكما محق، علينا أن نوازن بين الجبن والتهوّر، لذلك سنختار أهدافاً سهلة. لنراقب

حركات الجنود في الليل والنهار، ولتكن هذه مهمة (هاشم) و(عامر)، ثم نهاجم بعدها أقل الأهداف تحصيناً، ولكن حذار من أن ينكشف أمركما يا (هاشم) و(عامر). نحن حريصون على المعلومات غير أن حرصنا على سلامتكما أكبر.

– (نبيل): أريد استئذانك في أن أواصل مهمتي بمراقبة تحركات الخونة ورصدها.

– (ثائر): شريطة ألا تقوم بأي عمل إلا بإذني مفهوم؟!

– (نبيل): مفهوم.

***

في غرفته في القصر، حيث الكتب تملأ رفوف المكتبة التي تغطي واجهات الغرفة، وفي منتصف الليل جلس مؤرقاً يفكّر ويقلّب رأيه يمنةً ويسرة (إيفلاتو). لقد اعتاد أن يحاور الحاخام (سام) في حوارات عنوانها الدين والفلسفة التي كان مغرماً بها. كان يجلّ (سام) بمقدار ما يجلّ بني جنسه وشعبه ويراهم صفوة الخلق، وكان يجلّ الفلسفة والعلوم، ويرى متعته في المناظرة والتحاور وتلاقح الأفكار. إن سؤالاً ما يحيّره ويقض مضجعه ويفلت النوم من عينيه. صاحبه (سام) نائم الآن. لم يعتد أن يحاوره في هذا الوقت، وأي مجنون يحاور أحداً في هذا الوقت، لكن كان عشق (أفلاطون) لفك طلاسم الأفكار يصل حدّ الجنون.

إنه المجنون الذي لن ينتظر الصباح ليجادل في آرائه صاحبه الحاخام

القديس. سيذهب إليه الآن ليوقظه ويحاوره. نعم سيذهب. ذهب (أفلاطون) لغرفة (سام) فأخبره حراسها أنه ذهب إلى الكنيس كي يتعبّد وأنه لا يريد أن يزعجه أحد هناك.

– يا لك من قديس يا (سام)! أوراد وتعبّد في منتصف الليل؟! بمثلك من القديسين ينصرنا الرب ويؤيد مملكتنا.

هكذا قال (أفلاطون) في نفسه وهو يعود أدراجه إلى غرفته، لكنه لم يستطع النوم، فقام وقرر الذهاب إلى المعبد، وصل (أفلاطون) (الكنيس) وكان الصمت مطبقاً.

– أي تعبّد في منتصف الليل هذا؟ سأشوش عليك أورادك يا عزيزي (سام) بفلسفاتي فسامحني... هكذا قال في نفسه، ثم دخل (الكنيس)، ولكنه لم يجد أحداً هناك. ساحة (الكنيس) كبيرة لكنها خالية، لا توجد عبادة ولا أوراد!! دار في المكان و لم يجد أثراً لأحد، وعندما همّ بالخروج سمع صوتاً..

– ما هذا الصوت؟! إنه صوت ضحكات؟! ضحكات إمرأة بميوعة!!! ما هذا؟! لا.. لا.. يبدو أن النعاس أثّر عليّ.. ولكنْ أنا متأكد.. من أين يأتي هذا الصوت؟ أكيد أن الصدى بسبب السكون والهدوء يرسله من الخارج حيث الباب مفتوح فلأحاول تتبع مصدر الصوت.

كان الصوت يشير إلى داخل المعبد!! بدأ (أفلاطون) يتتبع مصدر الصوت بخوف وترقب وتوجّس، فأخذ يقترب بحذر، وكان كلما اقترب لمصدر الصوت اتضح أكثر:

– إنهما اثنان.. رجل وامرأة.. يتضاحكان.. يا إلهي! صوت الرجل ليس غريباً عليه، هل يُعقل؟! إنه يشبه صوت الحاخام (سام) إلى حد بعيد.. جن جنون (أفلاطون)..

– ما الذي يحدث يا ترى؟!

اقترب (أفلاطون) بحذر وبطء من غرفة مغلقة داخل الكنيس حيث مصدر الصوت، فلم يستطع إلا أن ينظر من فتحة الباب ما الذي يجري في الداخل، وكانت الكارثة!! كاد يقع على الأرض من هول ما رأى!! إنهما الحاخام والحاخامة بهيئة الزوجين المتضاجعين!! أزاح نظره، ثم عاوده مرة ومرة.. حتى لم يبق لديه مجال للشك!! صعقته المفاجأة!! هل يفتح عليهما الباب؟! هل يصرخ في وجهيهما؟! هل يحضر الملك ليراهما؟! يا إلهي.. ماذا يفعل؟!!

اختار (أفلاطون) أن يعود أدراجه إلى غرفته حيث بات طوال الليل مصدوماً يحدث نفسه:

– اللعنة عليك يا (سام).. اللعنة عليك أيتها الحاخامة. لقد حطمتما لديّ كل مقدّس.

– ربما.. لم تشاهد جيداً.. ربما أثّر الأرق عليك.. فصرت تتوهم.

– لا.. لا.. أنا لست مجنوناً!.. لقد شاهدت ورأيت وتأكدت تماماً.. إنهما هما.. اللعينان..

– هوّن عليك.. إنها سقطة وزلّة.. لا تكبّر الأمر.. ولا تعطه أكبر من حجمه...

– ماذا؟! إذا كان هذا الأمر صغيراً وهيّناً فما هو الكبير إذاً؟! هِ.. عبادة؟! أوراد؟! قداسة؟! اللعنة عليكما لقد أفسدتما عليّ نفسي!! ولكن ماذا أفعل؟! هل أخبر الملك ليقتلهما أو ينفيهما؟!

– ولكن قد يفتضح الأمر وينكشف سرّهما؟! وعندئذ ستتحطم قداسة المملكة؟! وسيصل الخبر للعرب الغوغاء.. سنخسر تفوقنا عليهم.

– لا.. لا.. إلا العرب.. إلا هؤلاء الرعاع.. لن نجعلهم يشمتون بنا.

– إذن أصارحه ليكفّ وينتهي حتى لا ينكشف أمره ويفضحنا.

– لا..لا.. سينكر.. وسيعمل بعدها على التخلص مني، وحينها لن يصدقني أحد.. فهو القديس العابد!! اللعنة على هذه القداسة!

– إذن تصبر على الخنجر الذي غُرس في قلبك الليلة.. ويُمنع عليك التأوّه. فسمعة المملكة تستحق أن توطن نفسك على التعايش مع ألم هذا الجرح النازف!!

لم ينم (أفلاطون) طوال تلك الليلة، وأصبح الصباح واجتمع أركان الحكم عند الملك:

– (الملك تيودور): أسعدتم صباحاً يا قوم.

رد عليه الجميع، ثم قال:

– (تيودور): أرى الإعياء ينهكك يا (أفلاطون). كأنك لم تنم منذ أيام؟!

ثم التفت إلى الكاهن (سام) وقال عنه:

– (سام) يمضي الليل طوله في العبادة والأوراد فلا بأس إن أتى مجلسنا

نائماً، أما أنت يا (أفلاطون) فكتب الفلسفة ليست أولى من مجلسنا.

– (أفلاطون): أعتذر يا مولاي.. فقد كنت الليلة متعباً جداً.

– (الحاخام سام): من يحمي المملكة ويحفّها بعناية الرب إن نام الكهنة والعبّاد عن أورادهم وعباداتهم طوال الليل؟

كان (أفلاطون) ينظر ويستمع باحتقار لكلام (سام)، ويعجب كيف يستطيع أن يمثل دور القديس وهو في حقيقته شيطان مارق !!

– (الملك): يبدو عليك الإعياء فعلاً يا (أفلاطون). أعفيك من مجلسنا اليوم. يمكنك الخروج لأخذ قسط من الراحة، على أننا لن نسمح في المرات القادمة (للفلسفة) أن تأخذك منا هكذا..

***

كانت أول مهمة قتالية يقوم بها (ثائر) ورفاقه ضد جنود الغزاة مباشرة، مهمة قتل حارسين لإحدى المزارع الكبيرة للعدو، حيث توجه (ثائر) و(خبيب) وقاما بالمهمة على أكمل وجه. كانت فرحتهم كبيرة بهذا الإنجاز، ثم توالت الإنجازات، فلا يكاد يمر شهر إلا وهناك جندي على الأقل قد تم قتله، واستمروا على ذلك أكثر من سنة أخرى دون أن يتم اكتشاف أمرهم. اعتقل (هاشم) وتم التحقيق معه بقسوة لعدة أيام، ثم أفرج عنه بعد أن لم يعترف ولم يثبت بحقه شيء، وكانت فرحة رفاقه بعودته كبيرة بعد أن أخذوا احتياطاتهم اللازمة عقب اعتقاله، وتكرر الأمر نفسه مع (عامر) فصمد كصاحبه وخرج مرفوع الرأس، ثم استُدعي

(نبيل) للاستجواب حيث ذكر أحد التجار الذين كان يأخذ مالهم عنوة.. ذكر اسمه أمام ضابط المخابرات فتم استدعاؤه:

– (فرودو): ما اسمك؟

– نبيل بن علقمة بن عمران.

– م.. اسم جميل! كم عمرك؟!

– خمسة وعشرون عاماً.

– يا للشباب الواعد...! محزن أن يمضي هذا الشاب حياته وراء القضبان!

بلع (نبيل) ريقه وقال:

– لماذا؟! ماذا فعلت؟! أنا رجل مسالم.

– ولص أيضاً ومخادع.. أليس كذلك؟

– لا.. لست لصاً.

– يا رجل! توهم التجار أنك تعمل مع الثوار، فتجبرهم على دفع الأموال لك فتقوم بسرقتها! يا لشرف الثورة!!

– لا علاقة لي بالثورة...

– أعرف.. أعرف.. ولو كنت أشك بذلك لما كنا نتحدث هكذا بمثل هذا الود، ولكن قل لي من أين لك هذه الفكرة الخبيثة لتبرير سرقة الناس؟!

ثم انفجر من الضحك بسخرية.. وقال له:

– لا أريد اعترافك، لقد أخذت الجواب من عينيك، ولكني أريد خبثك ومكرك، ما رأيك أن نصبح صديقين؟!

لم يجب (نبيل).. فواصل (فرودو) القول:

– صداقتنا ستدر عليك المال والمتعة، وهو عرض يستحق التفكير، خاصة أنه بدون مقابل تقريباً... فكر في الأمر وسيكون لنا لقاء آخر.

خرج (نبيل) من عند (فرودو) وهو يفكر بما قاله له، لكن (فرودو) أضمر في نفسه أن يراقب (نبيل) لبعض الوقت، فلعلّه يقودهم إلى ما يحبّون. طلب (فرودو) من أعوانه من العرب معرفة علاقات وتحركات (نبيل)، وعزم على مواصلة طلبه للتحقيق بين الفينة والفينة. سرّ الجميع لأخبار (نبيل) الذي طمأنهم بأن اللقاء كان مجرد تعارف. لكن (نبيل) أسرّ إلى (ثائر) بالحقيقة، وعرض عليه فكرة أن يتجاوب مع عرض الضابط ثم يعمل على استدراجه وقتله، ورفض (ثائر) الفكرة تماماً وطلب من (نبيل) ألا يعاود التفكير بها، وأن يقفل الباب أمام أي عرض قادم فيما إذا تكرر، ثم طلب منه أن يقطع صلته بالمجموعة مؤقتاً خشية أن يكون مراقباً.

لم تجْدِ مراقبة (نبيل) نفعاً حيث قللّ من حركته ومن علاقاته، لكن شعور (فرودو) كان يقوده أن وراء (نبيل) أمراً ما فواصل الالتقاء به، وكان يسأله عن رأيه في كل شيء: الغزاة، الصراع، المقاومة، السلام، أحوال الناس... الخ، وكان (نبيل) يحاول أن يكون ليّناً خشية أن يكشف أمره، واستمرت اللقاءات لأشهر عدة، حتى بدأ (نبيل) يخشى على نفسه:

– (نبيل): لديّ شعور أنهم يعرفون عني كل شيء.

– (ثائر): لماذا لم يحققوا معك إذن؟ دعك من هذا الوهم. هذه اللقاءات اعتيادية كما يحصل مع كثير من الناس.

– (نبيل): لماذا لا يطلبونكم أنتم إذن؟!

– (ثائر): ربما لأن اسمك ورد على لسان ذلك التاجر.

– (نبيل): لا... لا.. الأمر خطير وأنا قلق جداً.

– (ثائر): ما تقول يا (خبيب)؟

– (خبيب): هذه المرة أنا مع (نبيل). لا يصح أن نستهين بخصمنا. أنا قلق للغاية من هذه الطلبات المتكررة.

– (ثائر): ما العمل؟

– (نبيل): أختفي... أجل أختفي فترة عن الأعين فيظنون أني رحلت عن المدينة، فتخف ملاحقتهم لي.

– (ثائر): هذا سيزيد الشكوك حولك، ثم أين سنخفيك ؟

– (نبيل): لا أدري يجب أن نفكّر، وعلينا أن نجد مكاناً آمناً.

– (خبيب): دار عمي. عميّ، عنده ابنة واحدة في السادسة عشر من العمر، وهو متعاطف معنا، ومنزلهم ناءٍ عن الأنظار، ولا يشك به أحد. يمكن أن يختفي (نبيل) هناك عدة أشهر حتى تخف ملاحقته.

***

– (أم شهيد): لقد زاد إلحاح (أم خولة) عليّ لمطالبتك بتنفيذ وعدك بمساعدتها على العودة إلى بيتهم القديم.

– (أبو شهيد– مصعب): وما رأيك أنت؟!

أنت تعرف رأيي، لقد أحببتها كما لم أحب أحداً قط، ولا أطيق فكرة

ابتعادها عني، هنا أراها كل يوم، فإن ابتعدت سيكون من الصعب علينا التواصل.

– ما العمل إذن؟

– لا أدري، أنا أقدّر مشاعرها وارتباطها بذلك المكان.. لكن.. ثم انظر إلى (شهيد) و(خولة)، ثلاثة أعوام مضت من عمرهما وهما معاً، لقد اعتادا على بعضيهما، وسيكون الفراق عليهما صعباً أيضاً.

– حسناً.. اجتهدي في تأخيرها أكبر وقت ممكن، فإن أصرّت لم يكن لنا بد من تنفيذ ما وعدنا به، وفي جميع الأحوال سنظل على صلة معهم مهما كان بعد المسافة.

***

تواصلت ضربات (ثائر) ورفاقه وصارت تزداد قوة وتنظيماً، واختلف الناس حولها بين مؤيد ومعارض، خاصة مع تزايد العقوبات التي يفرضها الغزاة، لكن نسبة المتعاطفين مع الثوار بدأت تزداد، وصار شيئاً فشيئاً يزول شعور الخوف من الغزاة، وبدأت تدريجياً تُمحى تلك الصورة التي صاحبت أيام الغزو الأولى عن قدرة الغزاة وبأسهم، وبعد عدة أشهر من اختفاء (نبيل) في دار عم (خبيب)، حدث ما لم يكن في الحسبان..

تحرّش (نبيل) بابنة عم (خبيب)، فطرده أبوها من المنزل بعد أن كاد يقتله لولا حبّه لابن أخيه (خبيب):

– (ثائر): ماذا تقول يا (خبيب)؟! [وقد أمسك بقميصه يجذبه]

– (خبيب): أقسم يا (ثائر): هذا ما حدّثني إياه عمي. تعال معي لتسمع منه مباشرة.

– ولكن ألا يمكن أن يكون عمك قد ضاق به ذرعاً فاختلق هذه الرواية لتبرير طرده؟!

– يا رجل ما هذا الكلام؟ عمي من خيرة الناس وقد آواه طوال هذه الفترة، وعامله كواحد من أولاده دون أي شكوى، ثم لماذا يلجأ لهذا الأسلوب الذي لا يختلقه إلا رجل خسيس،وحاشا عمّي أن يكون كذلك.. كان بإمكانه بكل بساطه أن يعتذر لنا وكنا سنتفهّم موقفه، ونشكر عونه طوال الفترة السابقة... لا يا (ثائر). (نبيل) هو الذي أساء لنفسه ولنا. ولطالما نصحتك !

سامحني يا (خبيب)، ولكن ما حدث أغاظني، تعلم خطورة وقوع (نبيل) بأيدي الغزاة الآن. سيكون موقفه ضعيفاً أمامهم، وأخشى أن يضعف فيعترف وهو يعرف عنا كل شيء، علينا أن نبحث عنه الآن، ونصل إليه قبل أن يصل إليه الغزاة.

أما (نبيل) فقد حاول الفرار وترك بلدة (الواحة)، لكن الجنود ألقوا القبض عليه على حدود المدينة، وساقوه إلى (فرودو) حيث انهار هناك واعترف بكل شيء وعلى كل شيء، لكن (ألبرت) و(فرودو) قررا إخفاء خبر اعتقال (نبيل) حتى يطمئن رفاقه، ثم إنهم واصلوا التمويه فقاموا بعدة مداهمات لمنزل نبيل واعتقلوا والده وبالغوا في السؤال عنه، وأعلنوا جائزة لمن يدلّهم عليه.

***

في قصر الملك أقنع (ريمون) كل أركان المُلْك، والذين عملوا جميعاً على إقناع الملك بضرورة سفره على رأس وفد كبير للإمبراطورية العظمى لتحريضها على إمداد المملكة بالمزيد من الجنود والعتاد كي يتمكنوا من مهاجمة المدن المحيطة بمدينة (الواحة)، فتتم سيطرتهم على كل البلاد العربية المجاورة.

سافر الملك، وجلس (آلفونسو) مكانه على كرسيّ الملك:

– (ريمون): أتدري يا مولاي، ليس أجدر بهذا العرش منك إلا جلالة الملك (تيودور)، أو دعني أقلْ: كلاكما أجدر من صاحبه. ومن نعمة الرب على مملكتنا ألا نشعر بفراغ حين يغيب الملك، فهو حاضر في شخصكم الكريم.

– (آلفونسو): حقاً يا ريمون؟! أعني أحقاً هكذا تراني؟!

– وهل يشك قائدي ومولاي بإخلاصي له؟

– لا، وهذا ما يحيّرني. فأنت تحب نفسك إلى القدر الذي يجعلني أتصوّر أنك يمكن أن تدوس كل شيء يقف في طريقها؟! وأنت في الوقت ذاته مخلص لي وللملك وللملكة إلى الحد الذي نرى أنك تفني نفسك من أجلنا، ولست أدري من يتقدم على من؟ نفسك أم المملكة؟!

– [مبتسماً بخبث]: مولاي، حين نخلص للمملكة ونعمل من أجلها ونتفانى في سبيلها فإنما نحن على وجه الحقيقة نعمل لأنفسنا، وهل نحن إلا أبناء المملكة مجدها مجدنا وعزها عزنا؟!

– ما أجمل هذا القول، وما أطيبه على قلبي، عجيب أنت يا (ريمون)!!

كلما حدثتني نفسي نحوك بالريبة رأيت وسمعت منك ما يرفع مكانتك عندي، ويزيدك حظوة ورفعة. يا لوساوس نفوسنا لو تركناها تقودنا لساقتنا لحتوفنا!!

– العقل. العقل يا مولاي هو ما يلجم نزوات العواطف ويضبطها، ويقوّم رشد الإنسان، فلا يعوّج، وعقل مولاي يقوده إلى الحكمة والصواب، وإن خانه أحياناً بعض الحدس!!

انتهى الحديث وخرج ريمون إلى عمله

حل المساء وتسلّل (ريمون) إلى غرفة عشيقته التي كانت قد صرفت حراسها، وهيأت الأجواء كالعادة، دخل ريمون مخدع الملكة (مادلين)، وكانت في أهبة الاستعداد حيث نوّمت ابنتها (ليئات)، وأعدت ما يلزم عشيقين في ساعة غرام بعيداً عن عين الرقيب.

كانت (مادلين) تعوّض غياب زوجها (الملك تيودور) المتكرر عنها، وانشغاله الدائم بشؤون الحكم، كانت تعوّض ذلك بالأيام والساعات التي يمنحها إياها (ريمون) كلما سنحت الظروف!! حتى أن (ليئات) هي ابنة (ريمون) لا (تيودور) وهو الأمر الذي أخفته عن كليهما!! أما (ريمون) فلم يكن يحب إلا نفسه، ولكنه الرجل الذي يعرف من أين تؤكل الكتف، ويعرف ما يريد، ويعرف كيف يصل إلى ما يريد. لقد كان بعيد النظر. يسير نحو هدفه المرسوم بخطىً بطيئة ثابتة واثقة، مهما خيّل للرائين أن ذلك الهدف بعيد المنال.

***

بعد عدة أسابيع من اختفاء /اعتقال (نبيل)، أخذت وسائل الحيطة والحذر التي اتخذها (ثائر) ورفاقه تقل تدريجياً خاصة بعد الخطوات التمويهية التي قام بها الغزاة، بل إن الغزاة جعلوهم يطمئنون أكثر حينما سمحوا لهم بمواصلة العمل فتمكنوا من قتل مجموعة من الجنود على مدار أسابيع لاحقة، اطمأن (ثائر) ورفاقه تماماً ونسوا أمر (نبيل)، واطمأن (آلبرت) و(فرودو) إلى أنهما قد وضعا أيديهما على كامل المجموعات العاملة.

وحين جاءت ساعة الصفر، وفي منتصف الليل اقتحمت مجموعات كبيرة جداً من الغزاة الشطر الجنوبي من (الواحة)، وملأ الجنود الساحات والشوارع، وأخذوا ينادون بأعلى أصواتهم على الناس بضرورة التزام منازلهم وأنه سيتم قتل كل من يخرج من منزله. تفاجأ الناس مما رأوا!! إنها مشاهد ذكّرتهم بأيام الغزو الأولى قبل خمسة أعوام.

- (يا للهول!!)

التزم الناس بيوتهم كما طُلب منهم. كان هدف الغزاة (٢٠) منزلاً هي كل المجموعات العاملة التي كانت تعمل مع (ثائر) حسب رصدهم. اعتقل الجميع.. اعتقل (هاشم) و(عامر) وكل العاملين باستثناء اثنين: (خبيب) و(ثائر). أما (خبيب) فحين اقتربوا من منزله رماهم بالنبال فقتل منهم ثلاثة فتراجعوا وصاروا يرمونه بالنبال، فأوهمهم أن سهامه قد نفذت حتى إذا اطمأنوا لذلك اقتربوا من منزله ببطء ثم اقتحموه، فرمى باتجاه أولهم سهمه الأخير فقتله ثم هاجمهم بسيفه فقتلوه ثم قتلوا أمه وأباه العجوزين!!

وأما (ثائر) فقد فرّ من منزله قبل أن يحاصروه فاعتقلوا أمه وأباه.

انتهت العملية باعتقال (١٨) مجاهداً هم كل المقاومين طوال الفترة السابقة، واستشهد (خبيب) وأبواه فشيعهم الناس في اليوم التالي في جنازة مهيبة، وصار (ثائر) مطلوباً للغزاة الذين رصدوا جائزة قيّمة مقدارها عشرة آلاف دينار لمن يدلّهم على مكانه.

اختلف الناس في صباح اليوم التالي في تقييم ما حدث بين مؤيد ومعارض وصامت، لكن (ثائر) أصبح رمزاً عند الناس يحبونه وتتعلق قلوبهم به، حتى أولئك الخائفون كانت تدين قلوبهم له بالولاء حين ترتجف الجوارح، وتدعو له الأعين حين تحجم الشفاه والألسن.

في صباح اليوم التالي لهذا الحادث المشهود كان (مصعب) –كعادته– يجمع صغار المدينة من حوله في المسجد على اختلاف أعمارهم بين الرابعة وحتى العاشرة.

كان (شهيد)، و(بشر)، و(إبراهيم)، و(محمد)، و(ليث)، و(سالم)، أصغر الحضور. كانوا جيلاً واحداً قد بلغ من العمر حينئذ أربعة أعوام، وكانوا يقرأون مع الكبار:

– بسم الله الرحمن الرحيم: (والسّماء ذات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود، قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود...)

وكان (مصعب) يشرح لهم الآيات فيقول:

– لقد اختار المؤمنون الذين تحدثنا عنهم الآيات، اختاروا الشهادة

حرقاً في أخاديد النار التي حفرها لهم أصحاب الأخدود الكفرة، اختار المؤمنون الشهادة على أن يفرّطوا بمبادئهم واستشهدوا جميعاً. وكان أن ترددت امرأة مؤمنة منهم كانت تحمل رضيعها على صدرها فخافت عليه فقال لها: اصبري يا أماه فإننا على الحق. فثبتت واستشهدا معاً. ولم يكن يعلم هؤلاء المؤمنون أن تضحيتهم العظيمة هذه والتي سجلها القرآن الكريم ستكون عاملاً من عوامل نصر إخوانهم المؤمنين من الصحابة بعد مئات السنين..إذ تليت عليهم هذه الآيات فثبتتهم وعزتهم، وأرتهم أن الحق لابد له من تضحية حتى ينتصر.. يا أبنائي أنتم جيل النصر القادم، وستكون دماء (خبيب) و(حسن) وكل الشهداء وقود معركتكم القادمة.

رجع (مصعب) إلى بيته فوجد (أم خولة) عندهم تحدّث (أم شهيد) عن ضرورة عودتها لمنزلها القديم، فلم يكن أمام (أبي شهيد وأم شهيد) إلا الموافقة، فحددوا الأسبوع اللاحق موعداً لذلك حيث سيذهب (مصعب) إليه لترتيبه وتنظيفه وتهيئته للسكن من جديد. وبعد أسبوع أوصل دار (أبي شهيد)ومعهم (شهيد) و(خولة) وأمها إلى منزلها القديم ثم تركوها مع ذكرياتها.

سريعاً نوّمت (أم خولة) ابنتها المتعبة، ثم خرجت إلى قبر زوجها (حسن) تمسح بيدها عليه وترمي نفسها فوقه وتغسله بدموعها.. ومضت بها الذكريات:

– لماذا أرى في عينيك هذه المرة بريقاً غريباً؟! لماذا تنظر إليّ هكذا يا (حسن)؟

– توقفي عن الكلام قليلاً يا (زينب)، ولا تخفضي عينيك عني، وأخذ [ينظر إلى عينيها ويتأمل] بكت زينب وارتمت في حضنه:

– (حسن) لا تقل لي أنها نظرات الوداع. لن أدعك تخرج. (حسن) لا تتركني وحدي. قلت لي أنكم تراجعتم عن مبادرات مهاجمة العدو فما الحاجة لخروجك في جوف الليل؟!

– أهكذا تقول الحبيبة لفارسها بعد هذا السفر الطويل؟ أهكذا تخالف ما عليه تعاهدا؟!

– ولكن سفيننا يسبح عكس التيار ! ويضطرب من هول الأمواج !! وقد طال المسير يا حبيبي، ولمّا نصل بعدُ الشاطئ.

– لئن كانت المسافة إليه بعيدة وقصرت عنها أنفاسنا، فهل تزعجك أن تضمنا أحضان البحر الحانية لتُودِعنا صدر الأرض الحنون؟!

– لا والله ما ذلك أخشى، ولكني أخشى أن يخالف عهده الربان فيسْتأثِر وحده بالرحيل ويترك حبيبته وحدها تصارع الأمواج... عدني ألا تفعل... عدني أنك ستعود.

نظر إليها ثم دمعت عيناه وقال:

– وليدنا القادم يا (زينب).. إن لم يقدّر لي أن أراه فسأظل أراه بعينيك الجميلتين... لن أوصيك به وبنفسك.

ثم سكت وقال: لا إله إلا الله [قالها دامع العينين]

– فردت عليه دامعة كذلك: محمد رسول الله

توجه نحو الباب ليخرج، ثم استدار نحوها، فنادت عليه:

– (حسن)...

فرجع إليها يضمها إلى صدره وهما يبكيان.. ثم قبّل رأسها وخرج. كانت تشعر أنه لن يعود. كان اللقاء الأخير هذا. ما قالته عيناه، ونبض به فؤادها المكلوم!!

***

اختفى (ثائر) عن العيون في مكان قد أعدّه سابقاً له و(لخبيب)، رفيق دربه الذي استشهد. كان المكان مغارةً في أطراف المدينة وبقربها نبع ماء، ومجموعة أشجار مثمرة وأخذ يحدّث نفسه:

– هل انتهت ثورتنا؟!

– كلا... كلا.. يمكننا المواصلة

– كيف؟! ومع من؟! كل الأعين ترصدني؟!

– وستجد عيوناً كثيرة تحرسك، لقد صرت رمزاً عند الناس.

– الناس؟! أي ناس؟! إن الخوف يقتلهم.. وماذا تنفعني قلوبهم حين تخذلني سيوفهم؟!

– لا.. يا (ثائر).. أين الوفاء لدماء (خبيب).. أين؟!

– ولكن كيف وصلوا لنا؟! كيف اكتشفونا جميعاً، وحاصرونا في نفس الساعة؟!

– لا بدّ أن أحدنا يعمل معهم؟؟! ولكن من؟! من يكون؟!

– آه... (نبيل)؟! هل هذا معقول؟! هل خدعونا؟!

– لعلهم اعتقلوه فاعترف بكل شيء!!

– الويل له!

– ما العمل الآن؟!!

–آه.... الصلح والتفاوض..لابد من التوصل إلى حل..قليل من المقاومة، ثم ندعوهم للتفاوض، نسترد عبره بعض الحق. نعم لا حل سوى ذلك.

قرر (ثائر) الاختفاء عن الأنظار عدة أسابيع ثم بدأ يدخل المدينة متخفياً في ساعات الليل يجمع المعلومات من أحاديث الناس، وبعد أن خفت ملاحقته بدأ يتصل ببعض الأسماء التي كان يتوسم فيها الخير، وتفاجأ من تجاوبهم معه فكأنما كانوا بانتظاره. بدأ بتدريبهم بعد أن قسمهم إلى ثلاث مجموعات لا تعرف عن بعضها شيئاً. استمر ذلك عدة أشهر. اطمأن (ثائر) أن العيون التي تطارده خفّت فعاد إلى مهاجمة الجنود الأمر الذي جعل المطاردة عليه تزداد من جديد. اتفق (ثائر) مع المجموعات الجديدة أن يبدأ هو وحده بالعمل لئلا يلفت نظر الغزاة إلى سواه، فإن أصابه مكروه واصلوا من بعده. وفي آخر عملية له أبقى على الجندي جريحا وحمّله رسالة مكتوبة وموقعة باسم الثوار تعرض الصلح والتفاوض على الغزاة، لكن هذا العرض لم يلق لديهم آذانا صاغية، بل اعتبروه موقف ضعف، فزاد حرصهم على اعتقاله!

في إحدى الليالي لمحه أحد الجيران الذين كانوا يعرفونه فتبعه حتى عرف مكان اختبائه، فذهب إلى (آلبرت) ووشى به مقابل عشرة آلاف دينار قبضها بعد نجاح المهمة!!

توجّه عشرات الجنود إلى المكان الذي يختفي فيه (ثائر) فحاصروه، ثم تركوه يسهر طوال الليل كعادته حتى إذا ما نام بعد الفجر انقضوا عليه وهو

نائم فاعتقلوه. ثم إنهم رأوا أن يجعلوه عبرة لغيره فحاكموه محاكمة علنية حشدوا لها الناس، وحكموا عليه بالسجن مدى الحياة. مما زاد من شعبيته وتعاطف الناس معه حتى أصبح رمز المدينة وبطلها المحبوب.

***

عاد الملك (تيودور) من رحلته وقد فشل في إقناع الإمبراطورية العظمى بإمدادهم بما يحتاجونه لغزو المدن العربية المجاورة، وغضب (ريمون) لهذا الفشل غضباً شديداً.

وأخذ يحرض (آلفونسو) بطريقة ذكية ضد (تيودور):

– لقد أخطأنا في إرسال ملكنا (تيودور) للإمبراطورية، كان يجب أن يذهب سيدي (آلفونسو).

هكذا قال (ريمون).

نظر إليه (آلفونسو) باستغراب... ثم أكمل (ريمون) قوله:

– نعم.. نعم.. يا سيدي.. ملكنا (تيودور) طيب القلب، وعاطفته تغلب على عقله أحياناً، ويفتقد الحزم في مثل هذه الأمور، ولو ذهب سيدي (آلفونسو) فلا وحق الرب ما كان ليعود صفر اليدين.

وبدأ (آلفونسو) للمرة الأولى يرى في نفسه أنه أجدر بالملك وأحق به من (تيودور)، وظل هذا الشعور يتنامى لديه باضطراد، وكان (ريمون) يغذّيه باستمرار.

***

اجتمع (ثائر) برفاقه في السجن، وكان من بينهم (نبيل)، وبعد تلاوم وتشاجر صفح (ثائر) عن (نبيل) مرةً أخرى حيث تأكد أن (نبيل) ضعف لكنه لم يخن، في حين أقسم له (نبيل) -كاذباً- أن قصة طرده من دار عمّ (خبيب) مختلقة، وأنه لولا استشهاد (خبيب)، وأنه لا يحب الإساءة له لقال أن القصة من تلفيقه وتدبيره..!!

ولأن المحنة والقيد يجمعان القلوب تناسى الجميع كل هفوات الماضي وأخطائه، لعلّ غدهم يكون خيراً من أمسهم... وبعد عدة أشهر:

– انتهينا يا (ثائر) خبت الثورة، سنموت جميعاً وراء القضبان.

قال (نبيل) (لثائر) في إحدى الليالي فردّ عليه:

– لا عليك يا (نبيل)، لا عليك، لن تظل الأمور هكذا.

– كيف؟! لقد اعتقل كل الثوار، واعتقالنا أرعب الناس، وها نحن محكومون مدى الحياة. كيف سنخرج؟! لقد خسرنا كل شيء!!

نظر (ثائر) (لنبيل) بحدّة وقال له:

– أنا أقدّر ضيقك من هذه القيود، وهذا السجن، لكني لا أحب لغتك اليائسة هذه أبداً. الثورة لم تنته ولن تنتهي.

– ماذا تقصد؟

– ستعرف في الوقت المناسب.

***

بدأت إحدى المجموعات التي كانت على علاقة (بثائر) بالعمل فقتلت أحد الجنود. اجتمع (آلبرت) و(فرودو) يتشاوران:

– هل تظن أن للثوار الجدد علاقة (بثائر)؟!

– أنت تعلم أنه لم يعترف لنا بشيء ذي بال، وكان تقييمنا أنه يراوغ لذلك لا يمكن الاعتماد على قوله أنه لم يبق أحد يعرفه إلا واعتقل.

– ماذا لو أتحنا له إمكانية الاتصال الآمن من داخل السجن؟!

– ماذا تقصد؟

– كنت أفكّر بما سأعرضه عليك الآن منذ أيام. إذا كان (لثائر) علاقة مع آخرين فربّما كان سيحرص على أية فرصة تمكّنه من الاتصال بهم من داخل السجن.

– وكيف يمكن أن يتصل بهم من داخل السجن؟!

– هذا ما سنوفّره له!!.. ننقل الأسرى إلى سجن القلعة في شطر المدينة الجنوبي، وهكذا يشعر أنه بين أهله، ثم نسمح لأهلهم بزيارتهم كل شهر، وبالتأكيد سيضطر لجعل أهله رسلاً بينه وبين رفاقه المفترضين، فإذا أخضعناهم للرقابة حصل المطلوب.

– رائع.. اسمع.. وأنت تتحدث خطرت ببالي فكرة موازية.. سنسمح لهم بإرسال واستقبال الرسائل، ونوفّر لهم الأوراق والأقلام، ونوهمهم أننا لا نقرأ الرسائل، فقد يحتاج إلى شيء مكتوب يوصله إلى رفاقه يصعب أن يوصله لهم مشافهة.

– رائع.. ولكن هل هناك طريقة نقرأ من خلالها الرسائل بحيث نوهمهم أنا لا نقرؤها، كي يطمئنوا؟!

– دعنا نفكّر؟!

***

في العام السادس للغزو (سلمى) و(سالم) توأمان يتيمان ولدا بعد عام من الغزو. قتل أبوهما على يد الغزاة حين اخترق حظر التجوّل الليلي، يوم اضطر للخروج من بيته لإحضار (الداية) لتساعد زوجته في ولادتها، وماتت أمهما أثناء الولادة فعاشا في رعاية خالتهما التي ربتهما وأحبتهما واحتضنتهما مع أولادها في بيت زوج فقير كان يكرههما ويكره أولاده ونفسه، وكل أحد... بسبب الفقر.

في هذا الجو من الحرمان نشأ (سالم) و(سلمى). حِرمان أخذ منهما كل شيء، لكنه منحهما ما يفقده كثير من الأشقاء، منحهما الالتصاق ببعضهما والالتحام والترابط والاندماج. فكأنما أحسّا أن الأقدار ما أخذت منهما إلا لكي تعطي، وبمقدار ما حرمتهما فقد منحت. لقد كانت ترى فيه أباها المحتاجة إلى رعايته وحمايته، وكان يرى فيها أمّه التي يحتاج حنوّها وحنانها... ترى ما الذي تخبئه أيام الاحتلال لهاتين الوردتين؟!

***

(بشر)، (ليث)، (سالم)، (إبراهيم)، (محمد) و(شهيد)... صاروا الآن في السادسة من العمر، أخذهم مصعب من المسجد في رحلة في الهواء الطلق، وصل بهم النهر الذي يفصل شطري (الواحة) جنوبها وشمالها، وبعد أن أتمّوا لعبهم بالماء، وسباحتهم في النهر، وعقب تناولهم طعام الإفطار تحت الأشجار قال لهم (مصعب):

– انظروا يا أولادي، انظروا وراء النهر، هناك أرضنا الحبيبة التي اغتصبها الغزاة. طردوا منها آباءكم وأجدادكم. قتلوهم وشرّدوهم وسرقوا أرضهم ومنازلهم، وهنا في شطرنا هذا الجنوبي أنشأوا قلاعاً محصنة وسرقوا معظم أراضي الناس، وأبقوهم في بيوتهم كالعبيد، لا كرامة ولا حرية ولا استقلال..

– (شهيد): وكيف هزموا آباءنا يا أستاذ؟! لماذا فرّ الناس وتركوا ديارهم؟!

– (إبراهيم): نعم.. لو كنا مكانهم لما فررنا.

– (ليث): نحن سننتصر عليهم يا أستاذ.

– رد الجميع: نعم يا أستاذ. نعم سننتصر عليهم.

ابتسم (مصعب) وقال: أجل أيها الصغار الكبار. أنتم جيل النصر القادم. لذلك اليوم أرجوكم وأعدّكم. تخيلوا أنكم الآن كبار تحملون سيوفكم، وأسلحتكم وتنطلقون لتحرير الأرض. عيشوا على هذا الأمل. أنتم يوسف هذه الأحلام. إني أرى هذا اليوم قريباً.. قريباً جداً على أيديكم. قولوا معي بصوت واحد:

– الله أكبر... والنصر قادم.

– ردّد الصغار: الله أكبر... والنصر قادم.

– الله أكبر... نحن جيل التحرير.

– الله أكبر... نحن جيل التحرير.

– بالروح بالدم نفديك يا أوطان.

– بالروح بالدم نفديك يا أوطان.

***

انطلت حيلة (آلبرت) و(فرودو) على (ثائر)، وظن أن الرسائل الخارجة والداخلة لا تخضع للمراقبة. كانت الحيلة عبارة عن وضع نوع من "البودرة" على ورقة فوق الطاولة ثم يفتح الجنود الرسالة دون قراءتها ويضعونها من جهة الكتابة على تلك البودرة ثم يعيدونها لحاملها، وفيما تكون الكلمات قد طبعت على تلك البودرة، كان الجنود يتظاهرون بأنهم لا يقومون بأكثر من البحث عن أدوات حادة داخل الرسالة.

وهكذا اطمأن (ثائر) بعد وصف والدته له بدقة ما يحدث معها من إجراءات التفتيش... اطمأن فبدأ بمعاودة الاتصال مع رفاقه في الخارج، حيث كان الغزاة يتركون تلك المجموعات تعمل قليلاً ثم يقومون بقتلهم أو اعتقالهم، واستمر (ثائر) على هذا الحال أكثر من عام، وكانت النتيجة خسارة كل المجموعات، وتخوّف أي عنصر جديد من الاقتراب من(ثائر) وأهله، حيث النتائج سلبية في النهاية!

وأخذ (ثائر) يشك في كثير ممن حوله داخل السجن وخارجه، ثم انتهى به الحال إلى اليأس والإحباط. ولقد حاول مع إحدى المجموعات في الخارج تأمين عملية فرار له، وكان ينوي ترك (الواحة) ليعيد تنظيم العمل من خارجها، لكن ذلك قد فشل أيضاً، الأمر الذي قضى على آماله وجعله يفقد الأمل بكل شيء، ثم إن أمّه وأباه توفيا و لم يعد يزوره أحد.

***

(شهيد) و(إبراهيم) و(محمد) و(ليث) و(بشر) و(سالم)... صاروا الآن في التاسعة من العمر...

درّبهم (مصعب) على تمثيل هذه المسرحية الشعرية، وقد جفظ كل منهم فيها دوره:

أسير مقيد (مثّل دوره ليث)، محاط بأربعة جنود يحملون العصي على شكل سيوف (مثّل دورهم:إبراهيم ومحمد وبشر وسالم)، ومثّل (شهيد) دور المقدِّم الذي يتحدث من وراء ستار:

– (شهيد): وقف الأسير مقيدا بين الأسنة والعدا

فإذا تلفّت حوله وجد السلاح مسددا

قالوا له:

– (إبراهيم وهو يضرب ليث): ماذا وراءك من معدّات الردى

– (محمد وهو يضربه أيضا): ماذا أعدّ أميركم للحادثات وجنّدا ؟؟

– (بشر): إن بحت بالأسرار عشت مدى حياتك سيّدا

– (سالم): لك ما تحب من المكان وما تريد من الندى

– (إبراهيم ومحمد): وإذا كتمت السّرّ فاحذر ما تلاقيه غدا

– (بشر وسالم): سترى الهلاك محققاً وتراه يوما أسودا!

– (شهيد): فتبسم المأسور من هذا الكلام وردّدا:

– (ليث وهو يبتسم رافعا يده عاليا بشارة التوحيد):

عاشت بلادي حرة ولها دمي مني الفدى

أفنى ويبقى في علاً وطني الحبيب مخلدا

– (مصعب): أحسنتم... أحسنتم يا أبطال.

***

نحن الآن في العام العاشر للغزو. انتهت المقاومة تماماً، فمنذ أكثر من ثلاثة أعوام تقريباً لم يحدث أي حادث يذكر. تعايش الناس مع الغزو والغزاة، واهتموا بأعمالهم وتجارتهم. أما (آلبرت) فقد واصل أساليبه القذرة في تجنيد الناس عن طريق الجنس والمال كي يعملوا على خدمة الغزاة وأهدافهم. وقامت فلسفة الغزاة على أساس: (إسقاط من يمكن إسقاطه)، في حين واجهها (مصعب) بفلسفة: (إنقاذ من يمكن إنقاذه) عبر التربية والإعداد والاحتضان والتحصين.

***

(ليث) و(بستان) طفلان في التاسعة من العمر. خطبهما أهلهما

لبعضهما وهما في سن الرضاعة. (زهرة) شقيقة (بستان) الصغرى، تصغرها بأربعة أعوام. كانت تصرّ على ملاحقة (بستان) و(ليث) وتحاول مشاركتهما لهوهما المشترك، وهو ما كانت ترفضه (بستان) التي كانت في الأغلب تقوم بضربها ثم طردها من المكان.. وهؤلاء الصغار الثلاثة سيكون لهم في بناء قصة (الواحة) لبنة وأية لبنة!! فما هي تلك اللبنة يا ترى؟! وما قصة (بستان)، و(زهرة)، و(ليث)!!

***

تلاميذ (مصعب) الصغار صاروا الآن أبناء عشرة أعوام... خرج بهم (مصعب) إلى الخلاء... أجلسهم قريباً من هضبة مرتفعة يقع خلفها بيت من النمل، ثم طلب منهم أن يراقبوا المشهد:

نملة صغيرة تحمل بصعوبة حبة قمح تكبرها، وتمشي بها مسافة طويلة ثم تصعد الهضبة حتى إذا أوشكت الوصول لقمّتها سقطت منها الحبة، فتنزل من جديد لالتقاطها، ثم إنها تسقط في منتصف المسافة... وهكذا، مرة ومرة... وظلت النملة تحاول وتعيد الكرّة بكل عزم حتى نجحت في النهاية ووصلت هدفها وأوصلت حبة القمح إلى بيتها، ثم قال لهم (مصعب):

– ما الذي تعلمتموه من هذه النملة يا أبنائي الكبار؟!

– (سالم): إذا فشل الإنسان فعليه ألا ييأس لأنه سينجح في النهاية.

– (بشر): بالعزيمة والإرادة يصل الإنسان هدفه مهما كانت الصعاب.

– (ليث): عندما نجحت النملة في وصول هدفها فرحت وزال عنها

كل تعبها، فعلينا أن نتحمل التعب حتى نرتاح في النهاية.

– (محمد): إذا هزم الإنسان مرة ومرة، فيجب أن يتعلم من هزيمته، ويصمم على الاستمرار، لأنه في النهاية لا بد أن ينتصر.

– (إبراهيم): لو استسلمت النملة لفشلها أول مرة، لجاعت وجاع معها بقية النمل، ثم تكون نهايتهم الموت، فالاستسلام يا أستاذي يعني الموت.

– (شهيد): كما انتصرت النملة ووصلت هدفها... بعد تعب وجهد ومحاولات عديدة... سننتصر نحن كذلك يا أستاذ. لن نرضى بالهزيمة. لن نستسلم. لن يفرح الغزاة طويلاً... سننتصر عليهم مهما طال الزمن بإذن الله.

– (مصعب): وكأني أراكم والله يا أبنائي فوق خيول الفتح تصهل مع تكبيراتكم تدكّون حصون الغزاة، وتعيدون البسمة إلى شفاه الوطن الحزين، وإنه ليوم قريب قادم بإذن الله رب العالمين.

***

في تلك الأثناء كانت الخلافات بين (أبي حسن) و(أم حسن) قد بلغت أوجها بسبب غيرتها التي تجاوزت كل حد، وحدث أن سمعت (أم خالد) في الدكان مرّة صراخها، وعلمت أن (أم حسن) تتهم زوجها بالتعلق فيها وحبها ونيته الزواج منها، فعزمت على الرحيل حتى تحفظ الأسرة التي قدّمت لها يد العون.

حزن (خالد) كثيراً لهذا القرار الذي سيحرمه من صاحبه (حسن) فأخبره بالأمر، فعلمت (أم خالد) فأوجعته ضرباً، وقررت الرحيل في الليل، فأخذت (خالد) وبعض الحاجات مع ما جمعته من مال ثم غادرت مدينة (الأمل) في منتصف الليل. ونسيت (أم خالد) من عجلتها المفتاح.. لكن (خالد) تذكّره وأحضره... مفتاح منزلهم في (الواحة) الذي مات والده وهو يودعه إياه.

خرج (أبو حسن) و(أم حسن) في الصباح الباكر إليها لمنعها من السفر، وكان الوقت قد فات، وعبثاً حاولا البحث عنها. لقد رحلت وإلى غير رجعة.

كان (خالد) يبكي أثناء الرحلة وهي كذلك:

– أغلق فمك يا وجه الشؤم، كان علينا أن نسميك (رحيلاً) أو (نكبة) أو (هجرة) أو (بؤساً).. آه...آه.. أين سنذهب؟! وحتى متى سنظل نرحل ونرحل؟! أما آن لسفينتنا أن ترسو؟! يارب.. يارب خذ بيد أمتك الضعيفة وابنها المسكين...

ثم أخذت (خالد) إلى صدرها ومضت تقبّله وهي تبكي ومضت لا تدري أين تقوده قدماها البائستان!!

***

– لا يزال يحيّرني (ثائر) في تعامله مع (نبيل)، كيف ظل يصفح عنه دون أن يلحظ الخلل المتراكم والمتصاعد في شخصيته؟!

قال (سلام) لعمه (أبي البشائر) فردّ عليه:

– ها أنت قلتها يا (سلام)، الخلل المتراكم والمتنامي شيئاً فشيئاً وببطء شديد ! (الخطر الأعظم الذي يهدّد الأفراد كما يهدد الأمم والثقافات والحضارات جميعها بالانحراف والفناء، هو ذلك التغيير والانحراف البطيء الذي يخترقها من أضيق المسام، وبمنتهى التؤدة على نحو ما يحدثه توالي قطرات الماء في صخرة؟!) تعال معي أريك هذه التجربة.

أخذ (أبو البشائر) (سلام) إلى حيث أمسكوا ضفدعاً قرب بحيرة. وضع (أبو البشائر) الضفدع في إناء به ماء ثم وضع تحته ناراً هادئة بدأ يزيد حرارتها ويسخنها رويداً رويداً، وكانت النتيجة مذهلة:

– يا إلهي.. لقد سُلق الضفدع دون أن يبدي حراكاً...!! لم يقفز، لم يهرب، لم يفعل شيئاً يا إلهي!!

[قال سلام].

– هكذا يموت الأفراد وتفنى الأمم والثقافات والحضارات ببطء ودون أن يشعروا!!

– لهذا يا عمّاه كان على الروّاد في أقوامهم أن يلحظوا ويرصدوا هذه التغيرات البطيئة، فيحذّروا منها قبل أن تفتك بالجسد ولات حين مناص، ولات حين مندم.

– نعم يا بني.. إن التّستّر على الأخطاء لا يلغيها بل يزيدها، وكالسرطان يفتك بالجسد إن لم يعالج منذ البداية، تعمل الأخطاء إن لم تعالج في البداية.

– حسناً يا عمّاه، هذه واحدة. أمر آخر شدّ انتباهي هو طريقة تدريس جدّي (مصعب) لتلاميذه الصغار، ومن بينهم والدي رحمهم الله. أليست كبيرة على أعماركم تلك المعاني التي كان يغرسها فيكم جدّي؟!

– أبداً يا بني، فإنما ينشأ الناشئ منا وفي حبّته الأولى في الصبا تكمن كل خصائصه في الكبر. والنواة الصغيرة في مطويّها الشجرة الكبيرة. ولو رأيت والدك (شهيد) وهو يحدثني –ونحن أطفال– عن أحلامه في المنام لأدركت يومها أن لأبيك شأناً عظيماً. لقد استطاع جدّك أن يغرس فيه فكرة النصر والتحرير، فصارت حلمه وأمنيته، ثم هدفه فيما بعد.

– وبم كان يحلم والدي.!

– لقد ظل يراوده هذا الحلم: كان يرى نفسه يشهر سيفه المصقول، ويمتطي صهوة جواده الأبيض، يخوض به نهر المدينة، ونظره متجه صوب شطرها الشمالي المحتّل بالكامل. و لم يغب عنه هذا الحلم حتى كبر واختط طريقه الصعب الدامي..

والآن يا (سلام) نقف هنا ثم نكمل في الغد إن شاء الله.

الفصل الثاني

جهاد وارتداد

جهاد وارتداد

وصل (سلام) باكراً لموعده مع (أبي البشائر) مصطحباً حمامته البيضاء (هديل)، وبانتظار وصول (أبي البشائر) جلس يصغي لهديلها العذب الجميل يتردد صداه مع غناء العصافير والبلابل في البستان، فيطرب الشجر وترقص الأرض. قال لها بصوت مسموع:

– رمز السلام أنت يا صديقتي الحلوة، كما أني (سلام). ترى لو لم يخلّص آباؤنا هذه الأرض الطيبة من ذلك الشر الذي غرس مخالبه في أحشائها... ترى لو بقي ذلك الكابوس جاثماً على صدرها فأي معنىً لوجودك رمزاً للسلام حينها؟! وأي معنىً أن يكون اسمي (سلاماً)؟! أحسب يا صاحبتي أني وإياك مدينون لآبائنا الكبار؛ آهاتهم، عذاباتهم، آلامهم، جراحاتهم، تضحياتهم، دماؤهم.. هي التي جعلت لرمزك قيمة، ولاسمي معنى.. أليس كذلك أيتها الجميلة؟!

ثم أخذها (سلام) ومشى خطوات وقال لها:

– ماذا يا حلوتي لو أن شريراً جاء وأقفل عليك قفص الموت ومنع عن ناظر الدنيا تحليقك المبشّر بالسلام في سماء الأمل؟! ماذا لو سوّلت له نفسه المبغضة لقيم الجمال... الممسوخة النفور، أن يريق دمك بسكّين الغدر

والجبن... ياه ما أقسى الحياة حينئذ...

ويقطع خلوته في هذه اللحظة (أبو البشائر) ويقول له:

– عندئذ يكون شريراً أحمقاً يا بني...!

التفت (سلام) إلى (أبي البشائر) ورحّب به ثم قال:

– لم أفهم قصدك يا عمّاه؟!

– ماذا يا بنيّ لو جاء هذا الشرير إلى حمامة سلامك الجميلة هذه ثم جعلها تحلّق فوق جثث الأبرياء من النساء والأطفال، وفوق آثار البيوت المقفرة من سكانها بفعل التقتيل والإحراق، وفوق الحقول المتيبسة الميتة بنار حقده وإجرامه؟!... ماذا لو قام متبسماً يحملها ويداعبها ويمسح على ريشها الجميل فوق جماجم وعظام وأشلاء الضحايا. يوحي للناس الذين ركبّ لهم عيونَ الخوف أنه رجل السلام العادل الشامل؟! كذلك كان أعداؤنا الذين حاربهم آباؤك الأبطال يا بني... يتعوّذ منهم الشيطان، ويتعلم منهم الشر، ويخلي لهم الخبث واللؤم والحقد الطريق مؤدياً لهم تحية التلميذ للأستاذ...!!

– يا ليتني كنت مع آبائي لأنال شرف قتالهم...

– كأنك قد كنت يا (سلام)، ودورك لا يقل عن دورهم بإذن الله.

– فإلى بقية قصتنا يا عمّاه..

– إليها يا بني.

***

مدّ الغزاة المزيد من الجسور فوق النهر بين شطري (الواحة)، وفتحوا لأهل (الواحة) أبواب التجارة والعمل والكسب في شطر (الواحة) الشمالي وأجزلوا لهم الأجور، ثم إنهم تغلغلوا بين السكان حتى بات الجندي الغازي منهم يمشي وحده في أسواق المدينة بين العرب (في الشطر الجنوبي) ودون سلاح أحياناً!!! وتعايش الناس مع الغزاة وظنّوهم قدر (الواحة) الذي لا فكاك عنه!! وتواصلت مخططات (آلبرت) في تجنيد أهل (الواحة) للعمل مع الغزاة، وبدا للجميع أن الرياح تسير وفق مشيئة الغزاة.

وبعدما يزيد على عشرين عاماً من الغزو بقليل، كان للجيل الذي ربّاه (مصعب) رأي آخر..

– (أم شهيد)[وهي تعجن لابنها شهيد ابن العشرين ربيعاً على مسمع أبيه (مصعب)]:

– (أم شهيد): أما آن الأوان يا بني كي تفرّح أبويك المكلومين؟

– (شهيد): بلى يا أماه قد آن..

– [منتفضة مسرورة]: أحقاً بني.. حقاً.. هل اقتنعت أخيراً بفكرة الزواج؟! (خولة).. أليس كذلك؟ كنت متأكدة من أنك حين تراها ستغيّر رأيك... الحمد لله..

ثم أطلقت زغرودتها، فركض إليها (شهيد) مبتسماً، وهو يحاول منعها من إكمال الزغرودة واضعاً يده على فمها!

– على رسلك يا أماه... لقد فهمت خطأ..

– ماذا تقصد.. ألم تقل أنك ستفرّح أبويك..؟!

– نعم... أنا عند قولي.

– وأية فرحة لنا إلا زواجك؟!

– (مبتسماً): اسمعي يا حبيبة القلب: إن كان لا بد من فرحة في هذا البيت عنوانها الزواج... فما رأيك أن نزوّج أبي؟!...

[ثم ضحك وقال]:

– الحقيقة أنه اقتراح فعّال... ما رأيك بجارتنا الأرملة؟!

– [وهي مغتاظة صارخة]:... أغرب عن وجهي أيها السمج.. لا أريد أن أراك... هيا..

كان (مصعب أبو شهيد) يستمع إلى حوارهما مبتسماً.. فقالت له:

– وتبتسم أنت أيضاً.. ويسرّك حديثه..؟! بل لعلّك من دفعه لهذا القول؟!.. ماذا أفعل يا رب؟ حسبي الله ونعم الوكيل..

انفجر (شهيد) من الضحك ثم أخذ بيد والده المبتسم وقال:

– سأخرج والدي معي من البيت، فما عدت آمن عليه الساعة إن بقي وحده معك يا أمّاه!!!

خرج (شهيد) ووالده (مصعب) إلى حديقة المنزل فقال (شهيد):

– (شهيد): منذ أيام يا أبي وأنا أفكر بأمر لم أجد له جواباً.. لعلك تساعدني.

– قل يا بني..

أخرج (شهيد) من تحت الشجرة قوساً وسهماً ثم قال:

– انظر يا أبي [ووضع السهم موضع الرمي في القوس]... الرمية الواحدة تصيب هدفاً واحداً [ثم رمى السهم تجاه شجرة أخرى فأصابها]. كيف لنا برمية واحدة أن نصيب أكثر من هدف؟!

تأمّل (مصعب) قليلاً بقول ولده الذي فاجأه ثم قال:

– الحقيقة أن هذا لم يخطر ببالي من قبل؟! ولكن ما الداعي لذلك؟! أعني ما الحاجة الماسة التي وجّهت تفكيرك هذه الوجهة؟!

– لقد درسنا يا والدي تجارب من سبقنا من الثوار، وقرأنا إمكانات عدونا جيداً، والحقيقة أن اقتصارنا على السيف والسهم لن يحسم في النهاية المعركة... فإلى جانب أمور عدة علينا أن نفكّر بتطوير أسلحتنا ومقاومتنا حتى تصبح أكثر فاعلية.

سكت (مصعب) قليلاً ثم قال:

– كنا في الماضي نغمس السهم ببعض السمّ ليكون فتكه محققاً، وذلك كان غاية تطورنا... أما الآن فلا أدري... الأمر يحتاج إلى تفكير.. ولكن وفي جميع الأحوال لا يمكنك برمية واحدة أن ترمي أكثر من سهم كبير بمثل هذا الحجم، لعلّ التفكير بتصغير السهم يكون مدخلاً جيداً للبداية..

هزّ (شهيد) رأسه وأخذ يفكّر مليّاً بقول أبيه. ومضى كل منهما إلى حال سبيله.

***

في بيتهم المتواضع النائي قالت (خولة) لأمها:

– هلّا حدثتني يا والدتي الحبيبة عن لحظاتك الأخيرة مع والدي... صفي لي كيف استشهد بين يديك؟!

– و لم يا ابنتي تقلّبين المواجع؟!

– اعذريني يا أمّاه! أقدّر مشاعرك ولكني أريد أن أستمد من تلك اللحظات وقودي لأيامي القادمات.. لا أريد أن تخبو نار الثأر في صدري للحظة واحدة يا أماه.. لا أريد.

نظرت (أم خولة) إلى البعيد، وسكتت هنيهة، وأخذت تستعيد ذكريات اللحظات الأخيرة:

في تلك الليلة الليلاء، لم تنم (زينب) بانتظار (حسن) الذي كانت نظراته تقول لها أنه لن يعود.. بدأ قلبها يخفق بشدة، لا تدري ما السبب، لكنها كانت تريد أن تطرد كل الأفكار التي كانت تلح عليها وتوحي لها بما تكره، إزداد قلبها خفقاناً مع مضيّ الوقت،... ثم فجأة طرق الباب.. سقط قلبها على الأرض. تعثّرت به وهي تتقدم نحو الباب:

– إنها طرقات يده، لكنها ضعيفة واهنة.. يا إلهي ما الخطب؟!

هي تمشي باتجاه الباب غير أنها مكانها لا تتقدم.. ثم طرق الباب بشدة، فاستجمعت كل عزمها وركضت نحو الباب وفتحته، وارتمى في حضنها متأوهاً (حسن). حبست أنفاسها وحملته إلى الداخل واحتضنته على صدرها مجهشة بالبكاء:

– (حسن).. حبيبي (حسن).. روحي فداك يا (حسن)..

– [مبتسماً بتأوه يغالب نفسه].. آه... الحمد لله الذي أكرمني برؤيتك قبل الرحيل... سامحيني يا (زينب)، سامحيني يا حبّة الفؤاد... آه...

– هوّن عليك يا حبيبي.. لا تجهد نفسك.. الجرح بسيط ستنجو إن شاء الله.

– كم أنا مدين لك يا (زينب)، شاركتني السباحة عكس التيار، وحملت معي رسالتي في الزمن الصعب، وخضت معي شائك الدرب.. ثم ها أنت... وحدك ستكملين المشوار... إني أستودعك ربنا الحافظ الرحمن الرحيم.. لن يضيعك الله... آه..

– بالله عليك يا (حسن).. كف عن حديث المودّعين.. [فقاطعها]

– ولدنا يا (زينب).. حمّليه رسالتنا.. لن يذوق طعم العزة إن لم يسلك دربنا.. قولي له أن يرفع رأسه بأبيه... من أجله، لكي يحيا بكرامة.. بذلت روحي يا (زينب).. سأظل أرمقكم من السّماء... سأنتظركم.. حافظوا على العهد.. اثبتوا واصبروا... والموعد الجنة..أشهد أن لا إله إلا الله... وأشهد أن محمداً رسول الله.

– (حسن... حسن... حسن)

وبكت (أم خولة)... بكت من دمع الفؤاد [مرسلة عينيها تمطر مطراً وكانت حين تنكف دمعها– أي تأخذه عن خدّها بأصابعها– وتنحيّه عن خدها، يتساقط من فروج أصابعها كأنه عدد أيام شقائها].

قالت (خولة):

– أقسم يا أماه... أن أحصد من الغزاة المعتدين بعدد ما جادت به

عيناك الجميلتان من دموع غاليات.. نم قرير العين يا أبي.. سأحفظ عهدك وأحمل رسالتك.. ولن تقع عينك وأنت في سماء الخالدين إلا على ما يرضيك مني أيها البطل الشهيد...

***

في سوق (الواحة) الرئيسي رمى أحد الصغار حجراً على عدد من جنود الغزاة ثم لاذ بالفرار، فاعتقلوا كلّ من كان متواجداً هناك وساقوهم إلى إحدى السجون حيث كان يتواجد (آلبرت) و(فرودو) ومعهم (أفلاطون) في جولة تفقدية هناك. جمع الناس وكانوا حوالي ثلاثين رجلاً من بينهم (بشر).

– قال (آلبرت): أيتها النساء في ثوب رجال!! تحتمون بطفل صغير تدفعونه لرمينا بالحجارة ثم يفر فتتسترون عليه؟! أليس منكم رجل واحد يجرؤ على البوح باسمه؟! أجيبوا أيها الأوغاد..

– قال (فرودو): وماذا سيصنع حجركم الصغير؟! أما ترون مملكتنا وقوتها وبأسها؟! أما آن لكم أن تدركوا الحقيقة؟!

وكان (إيفلاتو) ينظر لهؤلاء العرب بازدراء واحتقار ويقول في نفسه:

– مجموعة رعاع...!

لكن واحداً من الحاضرين هزّه من الأعماق، وأصابه بصاعقة قاتلة!!

– قال (بشر): الحقيقة يعرفها كل ذي عينين، وهي واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، ولكن الذين حبسوا أنفسهم في كهف (أفلاطون)

وأصرّوا ألا ينظروا إلى الأشياء إلا من وراء الحاجز فإنهم لن يروا بالتأكيد إلا ظلّ الأشياء وصورة الحقيقة!! إلا أن يجرؤ أحد منهم للخروج من كهفه ليرى الحقيقة كما هي[1]...

ذهل (إيفلاتو) من هذا العربي الشاب أيما ذهول!!

– ما أدراه بأفلاطون ونظرياته وكلامه؟! ما هذا الكلام الفلسفي العميق؟ أيعقل أن أحد هؤلاء الرعاع (كما يراهم) يتكلم بمثل هذه الحكمة؟!.

همّ (فرودو) الذي لم يفهم كثيراً ما قاله (بشر) لكنه رأى فيه لهجة التحدّي وكذلك صاحبه (آلبرت)... همّ (فرودو) أن يضرب (بشراً) لكن (إيفلاتو) أوقفه وقال لـ (بشر):

– وما هي تلك الحقيقة التي رآها ذلك الرجل الجريء الذي أبى أن يظل حبيس الكهف؟!

– (بشر): إنها عبرة التاريخ، ودرس الأيام. هل قرأتم في التاريخ يا سادة أن أرضاً فتحت ذراعيها لغزاتها المعتدين؟! أو أن شعباً استكان لغاصبه؟! وهل فاز بالأمن ونعم بالأمان يوماً ما لص أو سارق؟! أفيكون شعبنا وأرضنا خارج سياق التاريخ؟! أم تراكم تكونون بدعاً من اللصوص المعتدين؟!

---

١. ملاحظة: يقول (أفلاطون) (على ما أذكر أو أحد الفلاسفة القدامى):
الناس يعيشون في كهف مظلم وينظرون عبر حاجز زجاجي فهم يرون صورة الأشياء وظلها ويظنونها الحقيقة... فخرج منهم رجل جريء ثم رأى الحقيقة (بدون حاجز) وعرف أن ما كانوا يرونه خيالاً ووهماً، وأن الحقيقة هي ما رآه وما عليهم إلا أن يخرجوا من الكهف لرؤيتها لكنهم أبوا ذلك.
هو تشبيه كيف أن معظم الناس لا يبصرون حقائق الأمور ويظلون أسرى كهوفهم المظلمة، وقلة قليلة أولئك الذين يتجاوزون الحواجز الخادعة ليكتشفوا الحقائق.

لم يحتمل أحد هذه المرة كلمات (بشر)،... هجم عليه (فرودو) وأمسك بقميصه بشدة ثم لطمه لطمة قوية جداً...

كان (إيفلاتو) يتمنى من داخله لو أتبع (فرودو) اللطمة بأخرى، أو لو أنه قتله وتخلص منه... للمرة الأولى يشعر بالهزيمة من الداخل أمام عربي!!! إنها الطامة الكبرى!! هو يعلم أنها قمة الضعف وأنه أسلوب المهزوم أن يلجأ إلى الذراع إذ يعجزه البيان.. ولكنه لم يطق شعور الهزيمة هذا أمام شاب من شعب لا يقيم لهم وزناً، ولا يراهم إلا سقط المتاع في عالم النكرات.

في تلك الأثناء دخل أحد الجنود صارخاً:

– (الجندي): سيدي لقد غرقت السفينة القادمة من الإمبراطورية العظمى برجالها وعتادها.

انتبه الجميع ووقع عليهم الخبر كالصاعقة!! ركض (آلبرت) إلى ذلك الجندي وأمسكه من كتفه مستفهماً:

– ماذا تقول؟! السفينة المحملة بعشرات الجنود من شعبنا المهاجر غرقت؟!

– (الجندي): [بحزن وأسى]: نعم يا سيدي وغرق ومات كلُّ من عليها!!

– (فرودو): المائة والثلاثون كلهم؟! كلهم ماتوا؟! لم ينج منهم أحد؟!

– (الجندي): نعم يا سيدي للأسف !!

ترك (آلبرت) و(فرودو) و(ايفلاتو) المكان بسرعة، لكن (إيفلاتو) قبل أن يخرج سأل (بشراً) عن اسمه فقال:

– (بشر بن عباد).

فخرج وهو يردد اسمه.

احتجز الجنود الناس عدة ساعات بعدها، ثم أطلقوا سراحهم تحت الوعيد والتهديد.

في تلك الأثناء كان الفرسان الأربعة مجتمعين:

– (شهيد): أحمد الله الذي وفقنا لدراسة تجارب غيرنا واستخلاص العبر اللازمة منها، وأظن أنه قد آن أوان الانطلاق.

– (إبراهيم): بقيت لدينا ثغرة واحدة لم نستطع إنجازها؛ ما هو السبيل للاتصال مع المدن العربية المجاورة؟! كيف ومن أين نبدأ؟!

– (ليث): وكذلك شطر المدينة الشمالي... ليس واضحاً بعد كيف سنستفيد من المعلومات الكثيرة التي جمعناها عنه، وكيف سنوظف ما بحوزتنا من معطيات؟!

– (محمد): أظن أن لدينا الجاهزية الكافية للبدء بما يمكننا إنجازه، مع استمرار العمل والتخطيط لإنجاز الباقي.

– (شهيد): أما المدن العربية المجاورة فأرى أن نستشير والدي إن كان بامكانه أن يدلنا على خطوط للتواصل عبر التجار أو المسافرين أو غيرهم، وعلينا المحاولة، فالأمر من الأهمية بمكان بحيث يستحق التضحية والمخاطرة، وأما شطر المدينة الشمالي فسنواصل الرصد وجمع المعلومات

عبر عيوننا، ونتركه لمرحلة أخرى سنحددها في حينه. والآن... هل أنتم جاهزون للبدء؟! الليلة أم غداً؟! ما رأيكم؟!

في تلك اللحظة وصلهم (بشر) مستبشراً ضاحكاً وقال لهم:

– (بشر): لكم البشرى يا إخواني. غرقت سفينة للغزاة تحمل على ظهرها مائة وثلاثين غازياً مع كامل عتادها وعدّتها..

هلّل الشباب وكبروا، وأخذ (بشر) يقصّ عليهم ما حدث وكيف عرف بالأمر، فقال له (شهيد):

–(شهيد): لا والله لست بشراً واحداً بل أنت (أبو البشائر) كلها!! ما أكثر بشرياتك الجميلة! من اليوم أنت (أبو البشائر).

– (إبراهيم): ما رأيكم إذاً أن يكون احتفالنا بهذه المناسبة السعيدة الليلة على طريقتنا؟!

لاحظ (شهيد) اللطمة في وجه (بشر) وقال:

– إني لأرجو أن تردها له يوماً من الأيام يا (بشر)...

وضحك الجميع وتفرّقوا على هذا العهد العازم.

***

– (سلام): إذاً والدي (شهيد) هو من كنّاك (أبا البشائر)؟

– (أبو البشائر): نعم. يا ولدي، وهذا مما يشرفني ويزيدني فخراً.

– وكيف احتفلتم بطريقتكم الخاصة؟

– لقد احتفلوا هم يا بني، أمّا عمّك فقد كانوا يعزّونه بوصفه فارس الحكمة والقلم، ويبدو أنهم حين رأوني دون فروسية السنان، منحوني فروسية البنان والبيان! وإن بينهما شتان شتان!!

في ساعات المساء... فارس ملثم يحمل سيفه، وقوسه ونباله... يكمن بين الأشجار راصداً حركة جنديين اثنين... أصبحا في مرمى ناره... أخذ سهمه وشدّ قوسه وصوّب نحو الهدف... إصابة قاتلة أسفل الرقبة كانت رميته.. أظهر صوتاً وحركة يلفت انتباه الثاني إلى مكانه... حتى إذا تبعه، بارزه بالسيف فصرعه بكل براعة... ثم عاد أدراجه إلى بيته كأن شيئاً لم يكن!

بعد ساعتين من الحادث... أربعة فرسان يكمنون لأربعة جنود في طرف المدينة.. حتى إذا اقتربوا منهم خرجوا لهم يحملون فجاءة الموت.. وفي مبارزة لم تستغرق نصف دقيقة صرع الفرسان الأربعة الجنود الأربعة... وعادوا إلى بيوتهم بأمان وقد غنموا سلاحهم وثيابهم!!

وجنّ جنون (آلفونسو) و(ريمون) ومعهما (بيرس) و(آلبرت) و(فرودو)؛ لقد ظنوا أن (الواحة) قد فتحت لهم ذراعيها بالأمان، وأحضانها بالأمن، وظنوا أن شعبها الذي أغرقوه بالمال وألهوا كثيراً من شبابه بالجنس قد استكان لهم، فلن تقوم له من بعد قائمه!! فما الذي حدث؟!:

– ستة جنود في ليلة واحدة!! في نفس اليوم الذي يغرق فيه مائة وثلاثون رجلاً بكامل عتادهم!!يا للكارثة!! هل بدأت السّماء تقلب لهم ظهر المِجَنّ؟!

هكذا كانت تحدّثهم أنفسهم....

عكفوا على تقليب الأوراق وتبادل الرؤى ودراسة الموقف من جديد...

***

في بيتهم النائي جلست (خولة) مع صاحبتها (سلمى) التي كانت تزورها بين الحين والحين:

– (سلمى): لقد عانينا كثيراً من الحرمان يا (خولة).. لكن الله عز وجل بفضله ورحمته قد عوّضنا وأعطانا الكثير... تعلمين أنا تركنا بيت خالتنا ونحن أبناء أربعة عشر عاماً بسبب ظلم وقسوة زوج خالتي، ربما كان معذوراً نوعاً ما، فقد كاد الفقر أن يكون كفراً... ترك أخي تعليمه في المسجد والتحق بعمل ناجح في شطر المدينة الشمالي عند أحد التجار الغزاة. أعجب به وبنشاطه وظلّ يحترمه في العمل ويجزل له العطاء، حيث كان يحب أمانته وإخلاصه وتفانيه... وهكذا صرنا من أغنى الناس والحمد لله.

– (خولة): يحبك أخوك كثيراً بحيث يستعد لفعل أي شيء من أجل إسعادك، أليس كذلك؟!

– بلى، وأنا أحبه. إن لم نكن لبعضنا فمن يكون لنا ؟ والله يا (خولة) ما يجعلني أحتاج أو أتمنى شيئاً على الإطلاق؛ الملابس والحلي والطعام والشراب.. وكلّ ما تحلم به فتاة مثلي...

– وهل هو مستعد لأن يجلب لك كل ما تحبين وبأي ثمن؟!

– لم أفهم قصدك؟

– تدرين يا (سلمى)؟! لا أرتاح للغزاة ابدأ ولا أظن أن شيئاً من الخير يمكن أن يخرج منهم. على أخيك الحذر الشديد منهم. لا تثقلي عليه بطلباتك، بل أشعريه بقناعتك الدائمة. أخشى أن يستغلوا حبه لك وحرصه على إرضائك فيبتزونه... ثم يكون ما نكرهه جميعاً.

نظرت (سلمى) باهتمام وخوف وقلق إلى (خولة)، وشكرت لها حرصها وحسن اهتمامها، وخرجت وهي تفكر بما قالته لها.

***

كانت مدينة (الأحلام)، وهي إحدى المدن العربية المجاورة (للواحة)... مدينة متقدمة في العلم والمعرفة. وفيرة المال والخيرات. تفتح حدودها لأبناء المدن العربية الأخرى. طلابهم يؤمونها لطلب أحدث العلوم، وتجارهم يزورونها بحثاً عن الغنى والمال.

في جامعة (الأحلام) العريقة، وهي أرقى الجامعات في أرجاء المعمورة، وتعلّم فنون الحرب والقتال جنباً إلى جنب مع سائر العلوم والمعارف الحديثة والمتطورة... في تلك الجامعة التقت مجموعة من الفتيان تتعارف على بعضها:

– (سعد): مرحباً بكم في مدينتنا الواعدة. سعد بن الحارث من مدينة (الأحلام).

– (مثنى): نتمنى لكم حسن الإقامة. مثنى بن زياد من مدينة (الأحلام).

– (عزام): عزام بن حمّاد من مدينة المرابطين. قدمت لطلب علوم الحرب والطب. أرجو أن أعود إلى أهلي بما ينفع ويفيد.

– (علي): علي بن الحسين من مدينة (السعادة). جئت لدراسة علوم الحرب والرياضيات.

– (خالد): خالد بن أمين. ابن مدينة (الواحة) المنكوبة. أسكن الآن وأمي الصابرة مدينة (السعادة) جئت وأخي (علياً) لدراسة علوم الحرب والفيزياء، وأعيش على أمل العودة إلى (الواحة) لأشارك في تحريرها من الغزاة، وهذا مفتاح بيتنا هناك [وأخرجه من جيبه] سأعود به يوماً ما. بإذن الله سأعود.

– (سعد): حدثنا عن (الواحة) يا (خالد).

– (مثنى): حدثنا عن جرائم الغزاة فيها.

– (عزام): كم كنت أتمنى لقاء أحد أبناء (الواحة) ليحدثني عنها، هيا يا (خالد)، نحن في شوق شديد.

أخذ (خالد) يحدّثهم بما حدثته إياه (أمه) عن (الواحة) ونكبتها، كان يحدّثهم حديث المحترق الملذوع، وكانوا يستمعون إليه استماع اللاهف المحزون.

يا للعروس الحسناء حين يستغلي خطابُها عليها المهر!! يتركون عرضها نهباً للمتوحشين، ولحمها فريسة للذئاب!! وسيدركون –بعد فوات الأوان بمرارة الندم– أن الثمن الذي يدفعونه حينئذ أضعاف أضعاف ذلك المهر الذي تعاظموه... وهو ثمن بطعم العلقم المر الذليل!!

– (سعد):لا كنّا يا (خالد) إن تركنا (الواحة) تصارع وحدها مصير الغزو المميت.

– (مثنى): لا نجونا والله إن تركنا شذاذ الآفاق هؤلاء ينجو منهم أحد.

– (عزام): بئس الرجال نحن إن لم نعمل منذ اللحظة على نصرتها، فلنلبس البراقع إذن ولنلتزم البيوت!

– (علي): قد والله التقى الماء على أمر قد قُدِر. كأن الله عز وجل قد جمعنا هنا لنكون صناع فجر قادم، ورواد مشروع كبير.

– (خالد): كم أنا مسرور بهذه الروح، وقد تنقلت في عدة مدن عربية حبيبة، وشاهدت ولمست روح الناس الوثابة، ولكنها تحتاج من يرفع الراية، لعلنا نكون نحن. لا والله لا يجمع الأمة شيء مثل التقائها على نصرة (الواحة) وأهلها. على هدف تحرير (الواحة) وإنقاذها يمكن للأمة أن تتوحد، وإنه لشرف عظيم لنا أن نكون دعاة وحدتها على هذا الهدف.

في تلك الأثناء قدم عليهم شاب جديد حيّاهم فردوا عليه التحية ثم قال:

– لمحت وجوهكم الوضاءة من بعيد فاستبشرت بها خيراً، فإذا سمحتم لي أن أتعرّف عليكم وأعرّفكم على نفسي، فأنا جديد على هذا البلد الطيب، وجئت لطلب العلم في جامعته العريقة. أخوكم حسن بن سليمان من مدينة (الأمل)...

و لم يكد يكمل اسمه حتى هبّ (خالد) من مكانه مغتبطاً.. منذ لحظة قدومه وهو يتأمله وينظر في ملامح وجهه.. شعر كأنه يعرفه، مشى (خالد) إلى (حسن) يفتح ذراعيه...

– (خالد): (حسن).. أخي... (حسن)... أنا (خالد)... خالد بن أمين ابن (الواحة)... هل نسيتني؟!

– (حسن): ماذا؟! (خالد)...؟

وركض إليه يعانقه... تعانق الصاحبان بحرارة بالغة، ودمعت عيونهما من شدة الفرح...:

– ما نسيتك أبداً.. قل لي ما أخبار والدتك؟! أين هي الآن؟! خذني إليها؟! ستسر والدتي كثيراً.

–(سعد): لا يا سادة هذا خارج الاتفاق. تجلسان هنا وتحدثاننا قصتكما من البداية.. أليس كذلك يا أصدقاء؟!

– قال الجميع: بلى!

– (حسن): فليحدثنا أولاً عن لحظة مغادرتهم (للأمل)، ثم بعد ذلك نحدثكم عن ذكريات (الأمل) وقصتنا فيها.

– (خالد): خرجنا من (الأمل) بقرار والدتي المفاجئ كما أخبرتك حينها... خرجنا في منتصف الليل لا تدري والدتي إلى أين سنذهب.. ولمّا وصلنا أطراف المدينة، شاهدنا قافلة مسافرة نحو مدينة (السعادة) حيث يسّر الله لنا سيّدة فاضلة في القافلة من مدينة (السعادة) صحبتنا طوال الطريق وأشفقت على حالنا واعتنت بنا هناك حيث سكنّا معها في بيتها الذي تعيش فيه وحدها، وأكرمنا الله هناك بعيش مستقر، ثم تعرّفت على أخي (علي)، [وأشار إليه]، ومن ثم سافرنا إلى مدينة (الأحلام) هنا لطلب العلم.. فجمع الله شملنا بك من جديد. سبحان الله!.. من كان يظن ذلك؟ الحمد لله.

– (حسن): الآن عرفوني عليكم يا أخوة ثم نحدّثكم عن طفولتنا في مدينة (الأمل) إن شاء الله.

***

– (زهرة): كم أغبطك يا أختاه على ارتباطك بشاب ثائر مثل (ليث).. وكم أتمنى أن يكون شريك حياتي فتىً يحب وطنه مثله.

– (بستان): يا حمقاء!! لو سألتني عن الخصلة الوحيدة التي لا أحبها فيه، لقلت لك هو هذا الذي يعجبك فيه، وأشدّ ما يقلقني شعوري بأن له نوايا تجاه ما يسميه (ثورة) وأسمّيه (جنوناً)، وكم أتمنى أن يترك صحبة رفاقه الذين أظنهم سبب أفكاره البائسة هذه!!

– (زهرة): بل أنت الحمقاء! من تعثر على فتى ثائر شجاع، ثم تتمنى بدلاً منه رجلاً جباناً رعديداً؟!

– (بستان): لا زلت صغيرة حالمة أيتها المسكينة!! غداً تكبرين وترين الحقائق بعقلك لا بقلبك.

وماذا ينفعني رجل يمضي عمره مطارداً في الجبال، أو وراء القضبان؟! أو رجل يعيش تحت الثرى وأعيش على ذكراه؟!! يا (زهرة): إني أريد زوجاً وشريك حياة يعيش بقربي وأسكن إليه، لا فارس أحلام أعيش أيامي مع طيف خياله!! هل فهمتني الآن يا (زهرة)؟! إني امرأة تبحث عن زوج. أمّا من تتحدثين عنه فيمكن أن يكون أي شيء إلا أن يكون زوجاً...؟!

هزّت (زهرة) رأسها يميناً وشمالاً غير موافقةٍ أختها فيما قالت، لكنّها آثرت الصمت وانتهى الحديث.

***

[في قصر الملك]:

– (الملك تيودور): لا أدري يا عزيزتي (مادلين) ما الذي يغضب مستشارنا المخلص (إيفلاتو) من كون ابنتنا (ليئات) تتجه نحو التدين وتتتلمذ على يد الحاخام والحاخامة؟! لقد أبدى لي معارضته أكثر من مرة.

– (الملكة مادلين): رغم كوني لا أحب فلسفته كثيراً لكني أشاركه الرأي. أنا أيضاً لا أحب لها ذلك. فتاة بمثل جمالها وأنوثتها ومستقبلها الواعد تطمس شبابها بترهات المتدينين؟! هذا أمر لا يجب السكوت عليه...

وهنا دخلت (ليئات)...:

– (ليئات): هذه ليست ترهات يا أمي. إني حين أمضي وقتي مع الحاخام الأكبر أو الحاخامة، فإني أشعر بالطهر والقداسة متجسدين فيهما، وأشعر بنعمة الرب علينا، إذ لولا هؤلاء الأطهار لما دام ملكنا أبداً.

– (مادلين): من زرع في عقلك هذه الأوهام؟! أنت أميرة القصر اليوم وملكته غداً... ولازلت شابة في ريعان العمر. كيف تقضين على عمرك الوردي وتدفنين شبابك الناضر بهذه ال... بهذا الذي تفعلين؟!

– (الملك تيودور): يا ابنتي الحبيبة... أنت ابنتنا الوحيدة... وأمّك مشفقة عليك وتحب لك الخير، وتتمنى رؤيتك أسعد الناس... إن كنت تحبين إمضاء بعض الوقت في العبادة فلا بأس، ولكن ليس على حساب متعتك وسعادتك... لا تعتزلي أماكن اللهو والسرور والمتع التي تؤمها

صاحباتك وبنات جيلك... وأمّك تريد أن تفرح بك كما تفرح الأمهات بناتهن الجميلات.

– (ليئات): سعادتي في عبادتي وأورادي. لا حاجة لي في شيء سوى ذلك..

ثم خرجت وتركت والديها ينظران إلى بعضهما.

وفي مكان آخر من قصر الملك كان (بيرس) قائد الحرس مع ابنه (بيني) الذي لم يكن يقل عنه فروسية وشجاعة:

– (بيرس): لماذا لا تريد أن تفهم ظروفنا ووضعنا ومكانتنا يا ولدي!

– (بيني): لكني أحبها... أحبها يا أبي ولا أتصور حياتي بدونها...

– (بيرس): هل تتصوّر يوماً أن يزوجك الملك ابنته الوحيدة؟!

– (بيني): لماذا تحسسني دوماً أننا أقل منهم يا أبي؟!.

– (بيرس): لأنها الحقيقة يا بني!

– (بيني): ألست قائد الحرس الشجاع الأمين؟! ألم تخدم المملكة كما لم يخدمها أحد سواك؟! ألست ابنك الذي رهن روحه لخدمة الملك والمملكة؟!

– ولكننا من أصول شرقية...!! نحن دونهم يا بني...

– ألسنا سواسية في الحقوق والواجبات؟! وهل يفرق الرب بين أبناء شعبه المختارين؟! أليست هذه مملكة العدالة والمساواة؟! هل فررنا من اضطهاد العالم ليضطهد بعضنا بعضاً هنا؟!

– اسمع يا بني... لا تتعب نفسك ولا تتعبني معك... (ليئات) لن

تكون لك... فكّر بفتاة من مستواك... أفهمت؟!

– لم أفهم... ولا أفهم... لن أفكّر بسواها.. ولن تكون إلا لي...

ثم خرج

– أحمق... سيهلك نفسه ويهلكني معه!!

***

–(سالم): لا تقلقي يا (سلمى).. لا يغلق الله بابا إلا ويفتح آخرَ. صاحب العمل الذي أعمل معه قبل أن يصفي تجارته عرفني على تاجر آخر يدعى (آلبرت)، وهو أكثر مالاً وأربح تجارة. سأعمل معه إن شاء الله.

–(سلمى): إني خائفة عليك يا (سالم) من هؤلاء الغزاة. اترك العمل معهم وابحث عن عمل هنا بين أهلنا. لا أريد منك شيئا، فلقد – والله – أعطيتني فوق ما كنت أحلم به. أريد أن تظل جانبي فقط. لا أريد أن أخسرك يا (سالم).

–(سالم)[بابتسام وسرور]: و لم الخوف والقلق يا أختاه ؟! دعك من حديث صاحبتك (خولة)، فهي معذورة بما تقول، فقد استشهد أبوها على أيديهم. إني أعرف بهم منها. إني أعمل عندهم منذ ست سنوات، و لم أر منهم إلا كل خير. ثم إنهم ليسوا محاربين كلهم. معظمهم يعمل في التجارة ولا يهمه سوى المال. لا مستقبل للعمل بين أهلنا. هناك الربح مضاعف يا (سلمى)... والله لو أضأت لك أصابعي شموعا لظللت أشعر نحوك بالتقصير. يكفي ما عشناه من حرمان.

–(سلمى):ونحن أيضا قتل أبانا الغزاة. أليس كذلك يا (سالم) ؟! وماتت أمنا بسببهم أيضا... أليس كذلك؟ ثم هذا المال الوفير الذي يغدقونه عليك بدأ يخيفني يا (سالم). أستحلفك بالله أن تترك العمل عندهم.

–(سالم): يا (سلمى) قلت لك ليسوا كلهم محاربين... وهذا المال الوفير يغدقونه على كل من يعمل عندهم. لا تخافي ولا تقلقي على أخيك (سالم). أنا أعرف كيف أحمي نفسي من أي سوء.

***

صار لا يمضي أسبوع على مدينة (الواحة) إلا ويصبح الناس وقد رأوا جثة أحد الغزاة ملقاة في طرقات المدينة وأزقتها. أحيانا يكون لباس الجنود وسلاحهم مسلوبا، وأحيانا أخرى لا يكون كذلك. وبدأ الناس في المدينة يتهامسون أن أعمالا من مقاومة الغزاة بدأت تعود من جديد:

– ترى من هم الثوار الجدد؟! وما هي أهدافهم؟! وهل سيكونون أحسن حالا من سابقيهم؟! وماذا عساهم يصنعون؟! هل يمكن للدم أن ينتصر على السيف، وللكف أن يناطح المخرز؟! وماذا سيحل بتجارتنا وأرزاقنا؟! أي عقاب سيوقعه الغزاة بنا؟! وهل تستحق هذه المحاولات اليائسة الثمن الذي سندفعه بسببها؟!

كل تلك الأسئلة وغيرها كان يدور في خلد الناس... وانقسموا كالعادة بين مؤيد ومعارض ومترقِّب. أما الغزاة فقد ظنوا للوهلة الأولى أن الأمر مجرد اندفاعة عاطفية، وفورة فردية، خاصة وقد باتوا يظنون أن (الواحة)

لن تقوم لها قائمة، وأن شبابها الذين أفسدوا وحيّدوا وأرعبوا كثيرا منه لم يعد يفكر إلا بنفسه ولقمة عيشه:

– فما الذي يحدث يا ترى؟! هل هي أعمال فردية حقا أم أن وراءها عقلا مخططا ومنظما يعرف ما يريد؟! وهل تراها بداية ثورة أم ماذا؟! وهل نواجه شخصا واحدا أو مجموعة واحدة أم أكثر من شخص وأكثر من مجموعة؟!... طريقة القتل واحدة، إصابة قاتلة أسفل العنق غالبا!! ولكن لماذا يسلبون الملابس والسلاح حينا ويتركونها حينا آخر؟! وإذا كان السلاح يفيدهم فما جدوى الملابس لهم؟! ما الذي يحدث في (الواحة) يا ترى؟!

حرص الغزاة في البداية على عدم استفزاز مشاعر الناس خشية زيادة مشاعر العداء والكراهية لديهم، واستعملوا سياسة ضبط النفس، لكن استمرار أعمال المقاومة وانتظامها وإن بوتيرة منخفضة جعلهم يلجؤون إلى السياسات التالية:

لجؤوا بداية إلى تكثيف العمل الاستخباري، وبث العيون لمعرفة أية معلومات عن الثوار الجدد، وما يتبع ذلك من تكثيف عمليات تجنيد متعاونين جداً خاصة في جيل الفتيان والشباب.

وعمدوا ثانياً إلى مداهمة المنازل ليلاً وجمع الناس وإخراجهم من بيوتهم وتحذيرهم من مغبة أعمال المقاومة وخطورتها عليهم، وتكثيف طلبات الاستجواب لكل من يتم الشك به.

وثالثاً قاموا بزيادة عدد الجنود الغزاة أثناء الدوريات الليلية، حيث أن

كل أعمال المقاومين كانت في الليل.

في بيت (آلبرت):

– (آلبرت): هذه أول مرة يدخل بيتي عربي، ولكني أحببتك يا (سالم) من كل قلبي كأنك مثل ولدي. ولدي الذي مات وهو في ريعان شبابه. عاجله مرض عضال لم يشفق عليه وعليّ، وإني أشعر نحوك بمشاعر دافئة جداً. أنت مخلص وأمين ونشيط في العمل جداً، وأنا سعيد بعملك معي.

– (سالم): العفو يا سيدي لقد غمرتني لطفاً ورعاية، وإنك لتعطيني من المال وتوليني من الرعاية فوق ما أستحق.

– (آلبرت): أبداً يا (سالم). أنت تستحق أكثر من ذلك، أتدري كم أتمنى أن يعمّ بين شعبينا السلام، والتعايش وتذهب من قلوبنا البغضاء القديمة... أعلم أنكم عانيتم كثيراً... ونحن كذلك.. لقد اضطهدنا في كل بقاع الدنيا.. نحن وأنتم عانينا من ويلات الحروب والظلم، وما أجمل أن نطوي صفحة الماضي ونعيش بسلام وأمان سوياً على هذه الأرض الجميلة.

– (سالم): نعم، فها أنا أعمل عندكم من سنوات وما رأيت منكم إلا كل ود.. وأظن أن كثيرين من أبناء شعبي يشاركونني هذا الشعور.

– (آلبرت): نعم كثيرون، لكن هناك قلة قليلة من المتطرفين عندنا وعندكم لا تحب هذا التعايش الجميل، وتسعى لإفساده، وإن علينا ألا نسمح لهم بذلك، أليس كذلك؟!

في تلك اللحظة دخلت فتاة شقراء بلباس جذاب، لفتت نظر (سالم) بأنوثتها.

– (آلبرت): أهلاً، (مارلين). ادخلي. إنه صديقنا (سالم) الذي حدثتك عنه.

دخلت (مادلين) ورحّبت (بسالم) وجلست تضاحك والدها وتمازحه، ثم خرجت بعد أن سلّمت مبتسمة على (سالم).

– (آلبرت): إنها ابنتي الوحيدة يا (سالم). هي كل ما بقي لي في هذه الحياة. كم أتمنى أن أطمئن عليها قبل أن أموت.

– (سالم): أطال الله عمرك، لازلت في ريعان الشباب.

– (آلبرت): شكراً لك يا (سالم). شكراً لك.

استأذن (سالم) بالخروج، وخرج وهو يفكّر بـ (مارلين).

مسكين (سالم)! لم يلحظ خيوط العنكبوت الملساء التي بدأت تلتف حول جسده! ويبدو أن جسده قد بدأ يتخدر شيئاً فشيئاً. لقد نسي أنهم غزاة –أو كاد– وما عاد يشعر نحوهم بأي عداء!!

***

في مدينة (الأحلام) وفي نهاية العام الدراسي التقى الأصدقاء الستة:

– (سعد): لن يكون عسيراً علينا وعليكم جمع الأنصار، وجمع المال خلال فترة الإجازة.

– (مثنى): سنشتاق إليكم كثيراً، وإن ثلاثة أشهر من الغياب لن تكون طويلة بإذن الله.

– (عزام): سيلتف الناس معنا حول قضية (الواحة)، وهي في

وجدانهم محفورة. لن نجد صعوبة في تذكير الناس بها، فإنهم ما نسوها يوماً من الأيام.

– (علي): من يدري... لعلنا نجد غيرنا قد بدأ بالعمل قبلنا... فنضم جهودنا إلى جهوده.. أنا متفائل جداً أيها الأصدقاء.

– (حسن): لا تخلو مدينة من مدننا من مهجرين أرغموا على ترك (الواحة) قسراً، أو أرغم آباؤهم. سنجدهم الأرض الخصبة لبداية تحركنا فلا يفوتنّ أحدنا فرصة اللقاء بهم والعمل في صفوفهم.

– (خالد): أما أنا فقد جهزت أموري –كما اتفقنا– وأعددت نفسي لدخول (الواحة) متنكراً بزي تاجر... في الحقيقة ليس واضحاً لديّ بالضبط ماذا سأفعل ومن أين سأبدأ. غير أن الصورة العامة واضحة لنا. سأصل هناك وأجزم أني سأنجح في إيجاد صلة بيننا وبين (الواحة)، ولا أخفيكم يا أصحاب أن مشاعري مفعمة ومختلطة. (الواحة) التي تسكنني وأستنشق نسائمها مع كل صباح وأشعر بمائها يجري في شراييني... ستطؤها قدماي... ولكني سأدخلها دخول الغرباء!! سأحرم من تقبيل ثراها الطاهر!!... ويح الغزاة!!

– (مثنى): ستدخلها محرراً بإذن الله يا (خالد).

– (عزام): سندخلها جميعاً فاتحين، هذا عهدنا يا (خالد).

– (حسن): وسيعود كل المهجرين إلى ديارهم مهما طال الزمن.

– (علي): وستفتح في يومٍ لن يطول قدومه دارك بمفتاحك الذي ورثته عن أبيك يا (خالد).

– (سعد): إذن نلتقي بعد ثلاثة أشهر بإذن الله ونرجو أن يكون كلٌّ منا قد حقق نتائج طيبة في مهمته التي كلف بها.

وتفرّق الأصدقاء على عهد الوفاء لمشروعهم الكبير، وكلهم عزم ومضاء وتصميم وإباء دونه ثبات الجبال الرواسي وهي تهزأ بعصف الرياح.

***

في أحد بساتين (الواحة) الخلابة جلس الخطيبان الشابان يبنيان بيت المستقبل:

–(بستان): هلّا قصرنا حديثنا اليوم على حبنا النامي بماء الأمل؟ دعنا لا نتحدث إلا عن أحلام مستقبلنا الوردي: أرجوك! لا أريد أن يفسد لحظات صفائنا هذه أي حديث جانبي... اتفقنا؟!

– (ليث): حسناً اتفقنا، كم ولداً تحبين أن يكون لنا؟! وبأي مستقبل تحلمين لهم؟!

(بستان)[وهي تمشي وترفع رأسها للسمّاء تتخيّل المشهد]: سحر وريم... وحسام وسعيد.. كلهم أطباء. نعم أطباء، كلٌّ منهم يتخصص بإحدى علوم الطب المتنوعة. يشير الناس إلينا: أم الأطباء وأبو الأطباء... كم أتمنى مجيء ذلك اليوم يا (ليث)... كم أتمناه!

– ما أجمل هذه الأحلام يا (بستان)... وما أحلاها لو كانت حرّة!!

– أية حرية؟! ومن يقف أمام حريتي في حلمي؟!.. ألسنا أحراراً في زواجنا وبيتنا وأبنائنا ومستقبلنا؟! ماذا تقصد؟

نظر (ليث) إلى عيونها بتأمل ثم قال:

– يا لسحر عيونك يا (بستان)!!.. إن له سحر بساتين أرضنا الساحرة ونسيمها الأخاذ.. انظري إلى سحر مائها العذب الرقراق [وأشار إلى النهر الجاري]... انظري إلى أرضنا الطيبة يا (بستان) كيف سرق صفاءها الغزاة، ولوث هواءها بالموت الغاصبون!

– (ليث)؟!... [فقاطعها وأكمل]:

– يقف الغزاة بالمرصاد دون أحلامك الوردية يا (بستان)... هل تريدين أن ننجب أبناء يعيشون عبيداً على أرضهم التي يتحكم الاحتلال بمصيرها؟! ومن قال أنهم سيتركوننا نتزوج، وننجب ونربي ونعلّم؟! وهبيهم فعلوا.. أية حياة تلك التي سنخرجهم إليها تحت حراب الغزاة المعتدين؟!

– (ليث).. هكذا أنت.. تفسد علينا كل لحظاتنا الجميلة بحديثك عن الوطن والاحتلال والحرية...

– الاحتلال لا أنا هو من يفسد علينا أحلامنا يا (بستان)؟!

– مالنا ولهم؟! ما دمنا لا نؤذيهم فلن يتعرضوا لنا... عشرات الناس تعيش حياتها بأمان، وتبني مستقبلها بسلام... (ليث)... أريدك لي كما أنا لك... لي وحدي.. بكليتك لي.. لا يشركني فيك أحد.. كما أنا لك بكليتي يا (ليث)... لا يشركك فيّ أحد.

– أنا لك... وأنتَ لي... وأنا وأنتِ للأوطان...

– (ليث)... [فقاطعها].

– الحب يا (بستان) كالبحر، كلما غاص فيه المرء شعر بصغره. كلما غصت في حبك تعرفت على بحر الحب الكبير فأحب وطني أكثر، وكلما غصت في حب الوطن رأيت لآلي عينيك الدرية هناك في صدف أعماقه فأحببتك أكثر... ولكي يظل ماء البحر عذباً صافياً... ولؤلؤة الفارس الغواص مصونة حرة... لا بد أن نحارب القرصان.. يا (بستان). لا بد أن نحارب القرصان.

هزت (بستان) رأسها يمنة ويسرة، رافضة هذا المنطق... ثم بكت وتركت (ليث) وحده في البستان.

***

تعمّد (آلبرت) أن يكرر دعواته لـ(سالم) إلى منزله، حيث تتواجد ابنته التي بدأت تنسج علاقتها الودية مع (سالم) الذي أخذ حبّها بلبّه. كثيراً ما كانت تلاطفه وتمازحه.. وكانت –أحيانا– تذهب إلى محلّ العمل حيث تقضي معه بعض الوقت.. صار (آلبرت) يرسله إلى منزله لإحضار بعض الحاجيات التي يتظاهر أنه نسيها.. فيخلو الجو لـ(سالم) و(مارلين) لقضاء بعض الوقت منفردين.. وقويت بينهما العلاقة حتى ما عاد يستطيع مقاومة إغراء وصالها... وعبثاً ذهبت محاولات شقيقته (سلمى) التي أكثرت من تحذيره من الاستمرار في العمل لدى الغزاة، وكثيراً ما كانت تحصل بينهما بعض المشادات التي يمتصّها (سالم) في العادة نظراً لحبه الشديد لأخته.. لاحظت (سلمى) تغيّراً على (سالم) الذي صار يطيل الغياب في العمل.

كما يطيل ساعات التفكير المنفرد كلما عاد إلى المنزل.. لم يدرك (سالم)، أو أن عين الهوى العمياء قد حجبت عنه الإدراك.. أن النفس البشرية كالطفل إن ترضعه شبّ على حبّ الرضاع، وإن تفطمه ينفطم! فسلّم قيادةُ لنفسه وأعطى عقله إجازته القاتلة في الوقت القاتل!! كان ما أسهل عليه أن يقاوم النظرة الأولى التي وقع سهمها في قلبه.. لو نزع ذلك السهم الوحيد وأخرجه لكان هيّناً عليه تحمّل جراحاته.. لكنه أتبع النظرة النظرة... حتى ملأت فؤاده النبال وأدمته الجراحات... وبعد النظرات ابتسامات ولقاءات.. وسلام وكلام وحب وغرام وهيام.

وفي لحظة ضعفه البشري انقياداً لسلطان النفس تحت تأثير الهوى، وفي غفلة من عين الضمير اللوّام والعقل الوازع... وبتخطيط ماكر حبك خيوط شراكه (آلبرت)... وقع العصفور في الفخ!!

عملٌ مهم في منزل (آلبرت) في يوم إجازة يطلب فيه معونة (سالم) منذ الصباح الباكر، ثم يستأذن بالمغادرة إلى عمل سيشغله حتى المساء راجياً ألا يغادر (سالم) المنزل قبل عودته... ويخلو النهارُ لـ (سالم) و(مارلين) التي كانت بكامل زينتها تستدرجه إلى حيث السقوط من علو الفضيلة والأخلاق والعفة والقيم إلى قعر وادي الرذيلة والفحشاء... تهيأت له كما تتهيأ الزوجة لزوجها فكان لها كما يكون الزوج لزوجته.. وقضي الأمر... كان صعباً عليه للمرة الأولى، وشعر بالضيق والحرج عند مقابلة (آلبرت) في المساء... لكن الأمر تكرر بعد ذلك مرة ومرة ومرات... حيث كانت تضيع في ساعات الخنا المروءات!!!

انتقل (آلبرت) إلى الجزء التالي من خطته.. هيأ لهما اللقاء المنفرد كالعادة ثم خرج، حتى إذا اطمأن لالتقائهما عاد يبحث عن شيء قد نسيه، فوجدهما على هيئة الزوجين عند الوصال، فأظهر غضبه الشديد وصراخه... حاول (سالم) الهرب وقد احمرّ واصفرّ، فمنعه مهدداً ومتوعداً... فهدأت ابنته من روعه شيئاً فشيئاً فتظاهر أنه يسكن بالتدريج.. ثم طلبت منه الخروج ليتركها مع (سالم) قليلاً:

– (مارلين): لا تقلق يا (سالم). أبي يحبك ويحبني.. لكنه لم يتوقع أن تصل العلاقة بيننا هذا الحد! هو لازال –رغم قوة علاقتك بنا– يعتبرك من العرب الذين يعادوننا... الشيء الوحيد الذي يشفع لي ولك عنده أن تقنعه أنك منا... تحبنا.. تتعايش معنا.. لست من العرب الذين يقتلوننا صباح مساء، ويكرهوننا كما تكره النار الماء!

كان (سالم) خائفاً قلقاً في موقف لا يحسد عليه:

– (سالم): ولكني أحبكم فعلاً.. وأشعر أني صرت واحداً منكم...

– (مارلين): أنا أصدقك تماماً... ولكن المشاعر وحدها لا تكفي، يجب أن تثبت ذلك لوالدي.

– (سالم): أنا مستعد لأي شيء كي يقتنع والدك أني صرت واحداً منكم..

– (مارلين): حسناً يا (سالم) أخرج الآن وعد إلينا غداً يكون والدي قد هدأ، وأكون قد مهدّت له الموضوع... واحذر ألا تعود لأن والدي حينها سينتقم منك أشد انتقام، فأنت لا تعرف غضبه.

– (سالم): وكيف سأواجهه؟!

– (مارلين): لا عليك يا حبيبي. دع الأمر عليّ وثق بي، ونحن بانتظارك غداً...

كان يوماً عصيباً شاقاً على (سالم)... كان ما أطول دقائقه وساعاته!!.. أحست (سلمى) بمشاعره غير أن رجاءاتها المتكررة لم تفلح في إنطاقه!!

جاء اليوم التالي وذهب (سالم) إلى منزل (آلبرت) يقدّم رِجلاً ويؤخّر أخرى... طرق الباب... فتحت له (مارلين) ورحّبت به وطمأنته.. دخل منكسر النفس ذليلها، وقف بين يدي (آلبرت) مهزوم الداخل:

– (سالم): لا أدري ما أقول... سامحني.. ولكني أحب ابنتك وأفديها بروحي..

– (آلبرت): أنت تعلم يا (سالم) كم أحترمك!! ولكنها العادات والتقاليد والأعراف... أنت من شعب آخر.. وشعبك يعادينا ويقتل أبرياءنا... أنتم تكرهوننا.. فكيف تريد ابنتي خليلة لك؟!

– اعتبرني واحداً منكم... ليس كل العرب يكرهونكم... لم أجد منكم إلا كل ودّ...

– هل يمكنك أن تثبت ذلك؟!

– وكيف؟!

– اسمع يا (سالم) نحن نعرف أن كثيراً من العرب طيبون مثلك... وأن قلّة من المتطرفين هي التي تكرهنا وترفض التعايش معنا... لا بدّ أن يتعاون محبو السلام والتعايش في شعبينا ضد هؤلاء المتطرفين.

– ولكن كيف؟! ماذا يمكننا أن نفعل؟!

– المطلوب منك يا (سالم) سهل وبسيط... نريد أن تقوّي علاقاتك بالناس وخاصة جيل الشباب، ثم تعرف رأيهم بأعمال العنف التي تمارس ضد جنودنا الأبرياء الذين يعملون لصالح (الواحة) وأمنها... ثم تخبرنا عن أسماء أولئك الذين يكرهوننا ولا يريدون التعايش معنا..

شعر (سالم) بالخوف والارتباك:

– إنها الخيانة إذن..

انتبه (آلبرت) فبسّط الأمر:

– لا تفهمني خطأ يا (سالم). نحن لن نؤذيهم.. ولو أردنا إيذاءهم لما احتجنا لمساعدتك، فلنا طرقنا الخاصة، ثم إنا إن آذيناهم فسنزيد من مشاعر الكراهية والبغض وهذا ما لا نريده.. ولكنا حين نعرفهم سوياً سنطلب منك تصحيح الأفكار الخاطئة عندهم، وسنطلب منك إحضارهم هنا ليتعرفوا علينا دون حواجز، فيروا ما رأيته أنت من ودٍّ وحرص على (الواحة) وتطويرها... نريد أن نقلّل من أعداد الكارهين ونزيد أعداد المحبين... هذا هو هدفنا يا (سالم).. أفهمت؟!

هزّ (سالم) رأسه بالإيجاب، واتفقوا على بدء العمل فوراً..

كان (سالم) يشعر من داخله أنه يسلك طريقاً خاطئة... نفسه تلومه وعقله يردعه.. لكن عين الهوى عمياء!! سرعان ماكان يصرف تلك الأفكار الرادعة ويمضي يبرر لنفسه كل تصرّف!! صار يحتك بالناس أكثر، وعاود تردداه على المسجد، وخفّف من غيابه الطويل في العمل.. سرّت

أخته (سلمى) في البداية لكن القلق عاد يساورها حيث رأت (سالم) غير (سالم)! إنها تعرفه أكثر من نفسه.. كان قلبها يحدّثها أن أمر سوء قد ألمّ به... صارحت (خولة) بأحاسيسها فشاركتها تخوّفها، ونصحتها بدوام الحديث معه... لكن (سالم) لم يكن يبوح بشيء!!

كانت (مارلين) تكافئ (سالم) على كل معلومات دسمة يقوم بجلبها... وكلما كانت المعلومة أدسم كانت المكافأة أفخم!!

ثم رأى (آلبرت)، أن الأمر مهيأ للانتقال إلى المرحلة التالية:

– (آلبرت): تعاونك لا يعجبنا.. لم يعد كافياً.. من الآن فصاعداً لن ترى (مارلين) أبداً ولن تقبض أي مال.

– (سالم):... ولكن..

– (آلبرت) [وهو يصرخ]: اسكت... لا تتكلم... هل تظن أننا نلعب؟! هل تريد أن تضحك علينا فتأخذ ولا تعطي؟!

– (سالم): ولكني أفعل كل ما أستطيع.

– (آلبرت): قلت لك.. أغلق فمك.. لا تتكلم إلا بإذني.. اسمع... أمرك بات بيدنا... يمكننا فضحك أمام الناس.. وسنفضح علاقتك بـ(مارلين) ونشيع في الناس أنك جاسوس لنا، ونخبرهم عن كل ما قدّمته لنا من معلومات... وساعتها سيقتلك شعبك.

– (سالم): وهل تفضح ابنتك؟!

– (آلبرت) [وهو يقهقه]: إنها ليست ابنتي يا أحمق.. هل تظن أيها الأبله أني أرضى أن تضاجع ابنتي؟! إنها فتاة داعرة من مستواك.. اسمع..

أنا ضابط مخابرات... وأنت جاسوس لنا ضد شعبك.. لا تتظاهر بالعفة والطهر، فأنت ساقط.. أنت عندنا مجرد ساقط يخون شعبه، والآن إما أن تنفذ ما نريد وإلا فالفضيحة ثم الموت على أيدي شعبك لك بالمرصاد... هل تحب أن يعلم جيرانك أن وشايتك بابنهم هي سبب اعتقاله؟! والتاجر فلان وفلان.. ماذا لو علموا بأمرك؟! ماذا لو عرف أصدقاؤك بالأمر؟! ماذا لو علمت أختك..؟!

– (سالم) [وهو يبكي]: أرجوك.. أنا لم أُقصِّر معكم في شيء.. وسأفعل كل ما تطلبه مني دون تردد..

– (آلبرت): حسناً.. سنرى ونجرّب..

وهكذا وضع (آلبرت) (سالم) أمام نفسه وجهاً لوجه:

إنه خائن........... يخون شعبه......

كان يشعر بذلك.. لكنه كان يفرّ من المواجهة. ها قد جاءت ساعة الصفر ولحظة الحقيقة، فماذا عساه أن يفعل؟!

في بيته وحيداً يفكر قال (سالم) لنفسه وقالت له:

– أنا خائن.... أنا خائن!!

– ولكنهم خدعوني!! لم أكن أقصد إيذاء أحد!

– أنت تخون شعبك.. فعن أي مبرر تتحدث؟! أنت جاسوس!

– ولكني ضحية مكرهم.. أنا ضحية مسكين!

– بل أنت مجرم.. كان يمكن أن ترفض.. من يخون شعبه مجرم... مجرم...

– هل يمكن أن يفضحوني؟! هل سيفضحوا أمري للناس؟! لأختي (سلمى)؟! يا إلهي...!! لا. لا.. يارب.. لا تفضحني.. يا رب استر عليّ..

– وهل تعرف الله أيها الوغد الخائن؟ هل مثلك يعرف الله؟!

– ويحي لقد قتلوني.. لقد دمّروني!!

– أنت ميّت.. أنت إنسان ميّت.. أنت ميت يا (سالم).. ميت!!

– يا رب لا تفضحني... يا رب سامحني... سأنفذ ما يطلبونه مني.. ولكن سأجتهد في ألا أوذي أحداً.

دخلت (سلمى) على (سالم) الذي كان يبكي.. نادته أكثر من مرة فلم يسمعها و لم يجب.. حتى انتبه أخيراً. رأت دموعه فخافت... فقال لها:

– (سلمى) هل لا زلت تحبينني؟!... أنا أحبك يا (سلمى)... عملت وأعمل من أجلك الكثير... أحب الناس.. ولا أحب أن أوذي أحداً.. (سلمى) هل أنا إنسان جيد؟!

– (سلمى): (سالم)؟! ماذا دهاك؟! ما بك؟! قل لي ما الذي يجري؟!

وأجابتها دموعه التي خرج بها لا يلوي على شيء! فارتمت على سريرها تبكي حال أخيها التي لا تعرف علاجها وقد أعياها التشخيص!!

***

في قصر الملك ظل (ريمون) يحرّض (آلفونسو) على الملك (تيودور) حتى اقتنع بضرورة عزل الملك لأنه أي (آلفونسو) هو الأصلح لحكم المملكة كما صوّر له (ريمون). وأخذ (آلفونسو) يفكّر بالآلية الأفضل والوقت الأنسب لعزل الملك واستلام العرش.

وفي شطر (الواحة) الجنوبي ظلّ حب (ليث) للوطن وحديثه المتكرر عنه أمام (بستان) يهيئها لضرورة توطين نفسها على القبول به حبيباً تشاركها في حبه (الواحة)... ظل هذا الأمر يسبّب لعلاقة (ليث) بـ(بستان) المتاعب، فيما كان يزيد من غبطة (زهرة) لـ(بستان) على هذا الحبيب، وخلافها الدائم معها حول فلسفة الحب، وظلت (زهرة) تتمنى فارس أحلامها فتىً مثل (ليث).

أما (أفلاطون) فقد أقام علاقة مميزة بـ (أبي البشائر)، وصار لا يمرّ عليه شهر إلا ويطلب (أبا البشائر) عنده ضيفاً يزروه في القصر. كان يتناول معه حديث الفلسفة والفكر، وكلما احتدم بينهما النقاش كان (أفلاطون) يشعر بعمق وغزارة فكر (أبي البشائر)... وبدأت نظرته من الداخل -دون أن يُظهر- تتغير عن العرب كما بدأت تتغير نحو بني جنسه... لم يعد العرب أولئك الرعاع الذين مكانهم زوايا النسيان وعالم النكرات وسقط المتاع وذيل القافلة.. و لم يعد بنو شعبه -بالمقابل- أبناء الله وأحباءه الذين اصطفاهم على سائر الناس، وأباح لهم دماءهم وأعراضهم لأنهم شعبه المختار!!

لقد هزم (أبو البشائر) (أفلاطون) من الداخل، وحين تحسم معركة

النفس مع عدوّك فاعلم أن الحرب قد انتهت حينئذ، إذ لن تصبح الهزيمة على الأرض ساعتها إلا مسألة وقت؟ فأنىّ لمهزوم من داخله أن يصنع نصراً على الأرض مهما بلغت قوته المادية، ولئن ملأ عدوك البر والبحر فاحذر أن يحتل روحك أو يملأ نفسك أنت. انتهت الحرب إذا احتلّ عدوّك روحك أو ملأ نفسك..

***

رأى (آلبرت) أنه لازالت بقية من خير وممانعة في نفس (سالم) تمنعه من تنفيذ كل مطالبه، فقرّر الانتقال إلى المرحلة الأخيرة لكسر نفسه، وتطويعها نهائياً وحسم ترددها:

– (آلبرت): اسمع يا (سالم).. هذه الحال لم تعد تعجبني أبداً... نغدق عليك المال الكثير دون أن تقدّم شيئاً يذكر.

– (سالم): ماذا؟! حرام عليك!! كلُّ ما قدّمته لك وتقول لي لم أقدّم شيئاً؟!!

– وماذا قدمت؟! ها؟! كل ما أحضرته لنا يعرفه ابن الشارع؟! ثم إنك تعمل لتخدم نفسك وتحمي نفسك من العرب الذين سيفتكون بك لو عرفوا بأمرك... فأنت تدافع عن نفسك لا عنا.. ثم هل تظن أن معلوماتك أفادتنا بشيء؟!.. اسمع إنك بحاجة إلى من يساعدك.. النساء أنشط من الرجال، ومجتمع النساء كثير الثرثرة، والثرثرة تجلب لنا كثيراً من الخيوط.. كيف حال أختك؟!

انتبه (سالم) وجن جنونه:

– م...م... ماذا... م...م... ماذا تقول.!

– أختك (سلمى) كيف حالها؟! ماذا تعمل؟!

– وما علاقة (سلمى) بحديثنا... مالك و(لسلمى)؟!

– نريد (سلمى) أن تعمل معنا... هل فهمت؟!

– [بصراخ]: ماذا؟! (سلمى)؟! لا... إلا (سلمى)... (سلمى) لا... إياك. لن أسمح لك... (سلمى) لا.

فنظر إليه (آلبرت) بقوة، وتقدم نحوه... ثم لطمه على وجهه لطمة شديدة أطاحته أرضاً وقال له صارخاً:

– هل جننت؟! ومن أنت حتى تسمح أو لا تسمح أيها الجبان!! ستعمل معنا رغماً عنك. أفهمت؟!

كان (سالم) على الأرض يسمع ويبكي:

– يا إلهي.. هل وصل الأمر حدّ (سلمى)؟! ألا يكفي ما فعلتموه بي أيها الأوغاد؟! إنكم تقتلونني في اليوم ألف مرة.. ولكن (سلمى) لا. لا..

أخذ (سالم) ينظر حوله فانتبه إلى (سكين) قريبة على الطاولة، وبدأ ينظر إليها ويفكّر:

– ها هي فرصتك يا (سالم) للتخلص من هذا العار الذي لحق بك... هيا... احمل السكين واقتله... هيا...

لاحظ (آلبرت) (سالم) وهو ينظر إلى السكين فقرأ ما يدور في نفسه،

فهجم عليه ولطمه بشدة عدة لطمات وأوجعه ضرباً:

– أيها الوغد الجبان... تفكّر بقتلي؟! ومنذ متى لك إرادة أيها الجاسوس الخائن؟! تفكّر بقتلي.. يا كلب؟!

ثم ذهب إلى السكين وفتح صدره (فك قميصه) وناوله السكين:

– هيا اقتلني... إن كنت رجلاً... هيا أرني رجولتك... هيا...

أخذ (سالم) السكين وهو يرتجف ويبكي... ثم رماها وانكب على الأرض يقبّل يد وقدم (آلبرت):

– (سالم): أستحلفك.. أتوسل إليك!! افعل بي ما شئت.. سأفعل كل شيء... إلا أختي (سلمى).. أي شيء إلا (سلمى)... أرجوك بكل مقدّس لديك.. أختي لا علاقة لها بشيء.. حرام عليك... أرجوك

– (آلبرت)[وقد هدّأ لهجته]: (سالم).. افهمني يا (سالم).. أعرف أن الأمر صعب عليك.. لكنها البداية.. وصدقني ستكون أختك سعيدة بالعمل معنا... ولا عليك.. نحن سنتولى إقناعها... المطلوب منك أن تحضرها إلينا والباقي علينا.. سيكون الأمر سهلاً عليك وسترى.. لا تخف ولا تقلق... نحن بانتظارك وانتظارها...

***

ظلت أعمال المقاومة تسير بوتيرة منتظمة نوعاً ما... كان الناس يتناقلون بهمس خافت أخبار الثوار الجدد.. تنتعشُ آمالهم رجاء النصر والحرية... تخفِق قلوبهم خوف العاقبة أو خشية الفشل والإجهاض..

وبين الخوف والرجاء يعيشون أيامهم بترقب:

– (شهيد): ترى هل يبالغ الناس –بسبب الحب والرجاء– في وصف أعمالنا، فينسبون لنا ما لم نفعله؟! أم أن هناك ثواراً آخرين يعملون ولا نعرفهم نحن؟!

– (إبراهيم): يصف الناس رؤيتهم لجثث بلباسها وسلاحها، وهذا ما لا نبقيه لقتلانا، فإما أن الناس يخترعون هذه الروايات، أو أن أحداً سوانا يعمل؟!

– (ليث): ألا يمكن أن يكون أحدنا من يفعل ذلك دون مشورة أصحابه وعلمهم؟! [وكان ينظر إلى شهيد].

– (محمد): في الحقيقة أني للوهلة الأولى ظننت أن (شهيد) هو من يعمل منفرداً عنا بشكل إضافي.. وكنت عاتباً عليه، وألومه، إذ ما الداعي لأن يعرّض نفسه للخطر؟! وما الداعي لأن يخفي علينا؟! لكن استغرابه اليوم أزال شكي!!

– (شهيد)[مبتسماً]: أنا؟! ولماذا؟! لقد كنت أشك في واحد منكم؟! والحقيقة أن هذا أمر محيّر.. من هؤلاء الثوار سوانا؟! وما الأولى؟! أن نتعرف على بعضنا فنضمّ الجهود أم يعمل كلٌّ منا منفرداً كما هو الحال؟!

– (إبراهيم): أريد أن نذهب إلى موضوع آخر.. ألا ترون أنا بحاجة إلى عمل في وضح النهار أمام الناس؟!! هم أقلّ حيطة في النهار، وإنّ رؤية الناس لنا ونحن نقطف رؤوس الغزاة في وضح النهار، سيرفع معنويات أبناء المدينة ويعزز قناعتهم بالمقاومة وسنكسب ثواراً جدداً..

– (شهيد): والله لقد كنت أفكّر بالأمر نفسه.. بوركت يا (إبراهيم)... إني أشاركك الرأي تماماً... على ما يحمل من مغامرة...

– (ليث): عندما يكبر الثمن المرجو من خطوة ما فإن احتمال تبعات المغامرة فيها أمر معقول مهما علت نسبة الخطر في هذه المغامرة.

– (محمد): هذا لا يمنع أن ندرس الأمر جيداً ونعدّ الخطة المحكمة، خاصة لأول عملية في النهار حتى نضمن النجاح الذي يحقق الهدف من الخطوة، وإني أطلب أن أكون من ينفذ هذه المهمة.

– (ليث): بل دعني أكون أنا يا (محمد). أحب أن أكون من يقوم بهذه المهمة.

– (شهيد): حسنا.. ستكون المهمة من نصيب (ليث)، أما (محمد) فلا زالت المعركة مفتوحة، والجولات القادمة أكثر إن شاء الله.

رتّب الأصدقاء الثوّار خطتهم، وحددوا الهدف والتوقيت، سينفذ (ليث) المهمة ملثماً، وسيكون بقية الثلاثة موجودين في المكان لحظة التنفيذ تحسباً لأي طارئ.

وقبيل موعد التنفيذ بلحظات حيث كان الثلاثة في المكان... جاءت بستان باكيةً إلى (ليث) فأفزعته، واضطرته للبقاء معها، ثم تبين له أن الأمر عادي وأنها مشاعر خوف وقلق عادية عليه نتيجة رؤيا رأتها.. لكن النتيجة أنها منعته من تنفيذ المهمة حيث كان الاتفاق يقضي أن تأخره لأي طارئ يعني إلغاء المهمة.

كان الأصدقاء الثلاثة في المكان... وأثناء وجودهم حيث يتجول

جنديان بسلاحهما بين الناس، ظهر "فارس ملثم" وباغت الجنديين فصرع الأول بضربة واحدة قاتلة أسفل الرقبة، ثم بارز الثاني وألحقه بصاحبه بسرعة، ثم غادر المكان بكل خفة وكأن الأرض قد ابتلعته.

وطار بين الناس الخبر.. [الفارس الملثم] هو البطل الذي يقف خلف أعمال المقاومة الجديدة... ترى من يكون هذا الفارس، وهل يعمل وحده أم يشاركه آخرون؟! يا لبسالته وجرأته!! في وضح النهار وبكل براعة يهاجم الجنود ويصرعهم يا له من فارس!!

أما الأصدقاء الثلاثة، فقد أعجبتهم براعة (ليث)، لكنه بدا مختلف الهيئة... ربما بسبب اللثام!! على أية حال نجحت المهمة بأفضل مما كانوا يتوقعون.

التقى الفرسان الأربعة في المساء، وكانت المفاجأة!!:

– (شهيد): هل تمزح يا (ليث)؟! عم تعتذر؟!

– (ليث): بل هل تمزحون أنتم؟! لقد شغلتني خطيبتي ومنعتني من الخروج، وأنتم تقولون إني نفذت المهمة وقتلت جنديين..!! بالله عليكم هل تهزأون بي؟!

– (إبراهيم): يبدو أن الأمر جاد إذن!! هناك يا سادة ثوار... أو ثائر على الأقل سوانا.

– (محمد): يا إلهي من هذا "الفارس الملثم" البارع في القتال؟!

– (شهيد): لا أكاد أصدّق.. إنه يقتل بنفس طريقتنا البارعة في القتل. لقد أكّد لي والدي أنه تعلمها من (الشهيد حسن) الذي قدم من (الأمل)،

ولم يبق على قيد الحياة هنا من يستطيع ممارستها!!! بل إنه يفكّر بنفس طريقتنا!! عندما خطّطنا أن نعمل في النهار وجدناه يعمل الأمر ذاته، ويختار التوقيت والمكان والطريقة الواحدة... يا إلهي!! لا أكاد أصدق! هل هذا كله من صنع القدر وحده!! أمر لا يكاد يصدّق!!

– (إبراهيم): ترى من يكون ذلك الفارس؟! كم أتمنى أن أتعرف عليه!

– (محمد): إن ما حصل مفيد جداً لنا... كل عمل سنعمله بعد اليوم سينسب "للفارس الملثم".. وهكذا تبتعد عنا الأنظار، وهذا سيساعدنا كثيراً...

أما (الواحة) فقد طارت بخبر "الفارس الملثم" وقامت تنسج حوله قصص البطولة، فيما جن جنون الغزاة وصعقوا من هول المفاجأة!! وفي الوقت ذاته فقد قاموا بتخصيص مكافأة لكل من يدلّهم على هذا "الفارس الملثم"، أو يمدّهم بأية معلومة تقود إليه، وحذروا الناس من مغبة مساعدته والوقوف إلى جانبه.

***

كان الفرسان الأربعة (شهيد وأصدقاؤه) قد اتفقوا على تكليف إبراهيم بنسج علاقات مع التجار الغرباء القادمين إلى (الواحة) من المدن العربية المجاورة، فربما وجد منهم –على قلّتهم– من يصلح أن يكون نقطة اتصال مع المدن العربية بهدف طلب النجدة والمعونة والإمداد.

وصل (خالد) (الواحة) تاجراً مع قافلة تجار... كان قلبه يخفق كلما اقترب من حدودها، لكنه كان شديد الحرص على إخفاء مشاعره وانفعالاته كي لا يشك به أحد، وما إن وطئت قدماه أرض (الواحة) حتى عادت به ذكريات الطفولة والشباب حيث الرحيل والهجرة، عاد إلى ذاكرته وصْفُ أمّه لذلك اليوم الذي ترك فيه أبوه (الواحة) وإياها فيما كان هو في أحشائها لم يخرج للحياة بعد! ها قد عاد (خالد) إليها بعد أكثر من عشرين عاماً من الغربة، لكنه عاد عودة الغرباء متخفياً كي لا يشك بأمره أحد. حتى حقه في إظهار فرحه حال دونه رصْدُ الغزاة. عاد إليها ولكن عودة دون أن يكون معه مفتاح داره فيها:

– لكني سأعود... سأعود إليك فاتحاً يا معشوقتي... سيعود إليك كل المشرّدين الذين هجّروا عنك وتركوك رغماً عنهم. الغزاة كابوس مزعج مرّ على طيفك، وسيزول حينما تستيقظين، وحينما تستيقظ معك وبك ومن أجلك الأمة.

بمثل هذه الخواطر كان (خالد) يحدّث نفسه لحظة دخوله أرض (الواحة).

لم يجد (إبراهيم) و(خالد) صعوبة في التعرف على بعضهما، فلقد كان كل منهما بغية صاحبه ومبتغاه.

أخذ (إبراهيم) (خالد) إلى (شهيد) الذي سرّ به كثيراً. حدّثه (خالد) عما يحدث في المدن العربية المجاورة من بدايات نهوض وتحرّك، واستمع (خالد) من (شهيد) إلى ظروف (الواحة) الجديدة، ودور الثوار الجدد

وأثرهم في الناس، وطلب منه أن يستمع بنفسه إلى سكان (الواحة)... ورأيهم في أعمال المقاومة وتحمّسهم لها، كما طلب منه أن يسمع منهم قصص آلامهم وعذاباتهم ويتعرّف منهم على حقيقة إجرام الغزاة وتنكيلهم الشديد بهم... وأخذ (خالد) يستمع من الناس إلى قصص المعاناة والآلام والجراح كما يستمع إلى قصص البطولة والتضحية والصبر والصمود والكفاح. وكان المطلوب أن ينقل (خالد) ذلك كله إلى سائر المدن العربية حتى يقفوا على حقيقة ما يجري في (الواحة) فعليهم أن يعيشوا همّها إن أرادوا أن يعملوا من أجلها، وعليهم أن يتعرفوا على جراحاتها كي يستطيعوا تضميدها، تمهيداً لإنقاذها وتخليصها.

قبل يوم من رحيل (خالد) اتفق مع (شهيد) على أن يتصل به عبر رسل يرسلهم إليه، يمدّونه بالمال ويزوّدهم بالأخبار لنشرها في أرجاء المعمورة، وتودّعا تودّع الأبطال متعاهدين على السير معاً على درب الكفاح الوعر الطويل.

***

أما (سالم) فلم يرقأ دمعه منذ أيام!! ظل يبكي بكاء النساء، وكانت أخته وهي تحاول مواساته ومعرفة ما به تبكيه، فتزيد بكاءه وحسرته!:

– يا إلهي!! ماذا أفعل؟!... أختي.. إنها (سلمى)... حبيبتي... لا.. لا...

– خذها واهرب.

– نحن مراقبون، سيلقون القبض علينا.

– اقتله..

– حاولت وجبنت.. لم أستطع.

– تمرّد على أمره،، واترك العمل معه.. تمرّد يا (سالم).

– سيفضحني.. سيكشف أمري... سيقتلني الناس.. وسأجلب لأختي العار من بعدي... من سيرضى أن يتزوّج أخت خائن؟!

– وماذا ستجلب لها إذا نفّذت مطلبه؟!... تموت مرة واحدة خير من الموت كل يوم آلاف المرات...

– لا... لا... لا أستطيع!

– (سالم)....؟!

– ربما كان الأمر سهلاً كما قال... ربما يكون صعباً في البداية.. ثم يسهل.. أكيد إن أختي ستعذرني عندما تعرف الحقيقة... عندما تعرف أني ضحية مثلها... يا رب.. رحماك!

اقترب الموعد، وجاء وقته... أقنعها بضرورة الذهاب معه إلى شطر المدينة الشمالي حيث يعمل، ترددت في البداية ثم قبلت لعلّها تتمكن من معرفة ما يؤرقه فتنقذه.. أقنعها أن تذهب إلى منزل (آلبرت) حيث ستتعرف هناك على ابنته.

– (آلبرت): أهلاً... أهلاً... يا مرحباً.. تفضلا.. كنت متأكداً من حضوركما... تفضلا؟؟

جلس (سالم) و(سلمى) صامتين..

– (آلبرت): يا للروعة.. لم أكن أتوقع أن تكون أختك بهذا الجمال الساحر!

نظرت (سلمى) إلى (سالم) باستغراب.. كانت عيناها تقول له:

– ماذا يقول هذا؟! لماذا يتحدث معي هكذا بوقاحة؟!

لكن (سالم) لم يحرك ساكناً..

– (آلبرت): سلمى أيتها الفاتنة.. امنحينا شيئاً من جمالك الأخاذ.

– (سلمى): اخرس أيها الوغد، قطع الله لسانك.

ثم نظرت لـ(سالم) وقالت له:

– ماذا يقول هذا الحقير؟! لماذا لا ترد عليه؟! لماذا أنت صامت؟!

ثم قامت لتغادر.. فقال (آلبرت):

– لا يا حلوتي.. فات الوقت...

ودخل مجموعة من الرجال.. واقتربوا منها وهي تبتعد عنهم وتنظر إلى (سالم) ثم صرخت:

– (سالم).. (سالم)... ماذا يحدث؟!

هجموا عليها فصرخت:

(سالم).. أخي.. (سالم).. أخي.. أخي (سالم)...

أغلقوا فمها وأدخلوها في الغرفة وسمع (سالم) آخر صرخة لها:

– آآآآآه........

انفجر من البكاء ثم غادر المكان وتركها لمصيرها !!

وصلت (سلمى) منزلها مساءً بين الحياة والموت... تركوها بعد أن

اغتصبوها.. كانت لا تنطق.. أفقدتها الصدمة القدرة على النطق... دخلت غرفتها تجرجر نفسها.. كان البكاء يفلق كبدها... كانت تنشج كالأطفال... أخذت تنظر إلى نفسها في المرآة.. ثم ضربت المرآة بجنون فأدمى الزجاج المكسور يديها... قررت الانتحار... أخذت قطعة زجاج لتقتل نفسها.. وفي اللحظة الأخيرة تذكرت الله ورحمته.. غيّرت رأيها.. قررت أن تترك (الواحة) في الصباح.. على أن تمرّ على (خولة) لتخبرها بما حصل قبل رحيلها.. لكنها قررت أن تكتب رسالة تتركها في المنزل... كتبت رسالة ثم أخلدت للنوم!!

أما (سالم) فقد توجّه مساءً نحو النهر بعد أن ظل طوال اليوم هائماً على وجهه.. وقرّر الانتحار!

وبقدر الله كان يمرّ قريباً منه (شهيد) و(إبراهيم):

– (شهيد): (إبراهيم)... من هذا ؟!

– (إبراهيم): إنه (سالم). أظنه (سالم). بل هو (سالم)، ولكن ماذا يفعل هنا في هذا الوقت؟!

– (شهيد): يا إلهي إنه يقترب كثيراً من النهر... كأنه يريد أن يلقي بنفسه.. هل هذا وقت سباحة؟! يا إلهي.. لقد ألقى نفسه في النهر... (إبراهيم).. إنه ينتحر... هيا بنا...

ركض (شهيد) و(إبراهيم) نحو النهر، وقفز (شهيد) إلى النهر وأنقذ (سالم) الذي خرج وهو يبكي كالأطفال:

– (سالم): دعني يا (شهيد). أرجوك دعني.. أنا إنسان ميت.. أنا

أستحق الموت... أنا نذل وجبان. أنا لا أستحق الحياة.. دعني.. أتركني أموت.. أنا ميت أصلاً [ثم صرخ]: دعني

وحاول الفرار والعودة مرة أخرى للانتحار فلحق به (إبراهيم) و(شهيد) وأمسكاه. كان يتصرّف بانهيار شديد... يبكي... ويمزّق ثيابه... ويضرب نفسه بشدة!!

وبصعوبة بالغة استطاعا تهدئة روعه حتى قصّ عليهما كامل قصّته وهو يبكي بانهيار إلى أن قال باكياً:

– لقد كانت تحاول إنقاذي.. كانت تحاول انتشالي من المستنقع فألقيتها فيه..

استشاط (إبراهيم) غضباً... وأمسك برقبته... وهزه بعنف... صارخاً:

– أيها الوغد الجبان... يا مجرم...

قاطعه (شهيد) وأزاح يديه. كان (شهيد) –ربما– أشدّ غيظاً من (إبراهيم).. لكن الموقف كان يستدعي لجم العاطفة وإعمال العقل:

– (سالم): دعه يا (شهيد).. أنا أستحق أكثر مما يفعل.. أرجوكما.. اقتلاني... أريحاني، أو دعاني أقتل نفسي.. أنا ميت أصلاً.. ميت منذ اللحظة التي قبلت فيها أن أخون وطني... أرجوكما... أريحاني..

–(شهيد): بل أنت حي... وستحيا.. وسيحيا أبناء (الواحة) جميعاً.. الموتى هم الغزاة.. الميت هو (آلبرت).. هذه ساعة الثأر يا (سالم).. ثأر (أم خولة) وثأر أبي وثأرك وثأر (سلمى) وثأر العشرات من شعبنا.. اسمع يا

(سالم): هل تقبلني زوجاً ل (سلمى)؟!!

ووقع السؤال على (سالم) ماء حياة!

– (سالم): ماذا.. ماذا تقول؟!

وأخذ يقبل يده ووجهه ورأسه.. عانقه بشدة وحرارة.. لقد انتشله من الموت مرتين.. وهذه الثانية أحيته أكثر من الأولى.

– (شهيد): لكن هدية زواجنا عليك.. هدية زواجنا رأس (آلبرت) يا (سالم) فهل تقبل؟!

– (سالم): نعم.. نعم.. بكل تأكيد... ولكني أخشى.. أقصد أني حاولت ففشلت.

– (شهيد): لكنك ستنجح هذه المرة. أتذكر درس النملة أيام كنا صغاراً؟! قد تكون يا (سالم) قد ترديت من عالي جبلك الطاهر العفيف.. لكنك لم تصل بعد قعر الوادي حيث اللاعودة.. وادي الرذيلة والموت.. يمكنك أن توقف سقوطك وانحدارك. قد يدمي التعلّق بالشوك توقف به انهيارك.. قد يدمي هذا الشوك يديك، لكن هذا أهون ألف مرة من جراحات الاستقرار في وادي الفحش والسقوط. انهض يا (سالم) وستنجح.. أقسم أنك ستنجح... ستنجح يا (سالم) لأن أختك لن تغفر لك إلا إن فعلت ذلك.. ألا تستحق (سلمى) منك التضحية؟!

– (سالم): بلى.. فداها.. روحي وعمري.. أجل.. يا (شهيد)... سأثأر لها ولنفسي ولكل ضحية من ضحايا هذا الوغد المجرم.. سأغسل عاري إلى الأبد.. سأقتله.

كان الفجر قد أوشك على البزوغ.. صلوا الفجر جماعة.. ثم ذهبوا إلى منزل (سالم).... دخل (سالم) غرفة (سلمى) وحده، وبقيا خارجها.. دخل يحمل لها بشرى طلب (شهيد) الزواج منها.. وبشرى توبته.. وبشرى قراره أن يغسل عاره بقتل (آلبرت).

كانت نائمة... أيقظها بهدوء.. لم ترد.. لم تتحرك.. جسمها بارد.. إنها.. إنها ميتة..!! لقد ماتت من الغيظ!!.. صرخ (سالم) باكياً:

– (سلمى).. أختي.. (سلمى).. ردّي عليّ يا حبيبتي... ردّي عليّ.. قد أحضرت لك عريسك.. خيرة شباب (الواحة) وزينة فرسانها.. هدية عرسك رأس (آلبرت).. أقسم إني سأقتله... (سلمى)... (سلمى).. لا تتركيني وحدي.. أرجوك... ردّي عليّ... (سلمى)... (سلمى)...

أمسكه (إبراهيم) و(شهيد) ورفعاه عن صدرها وهما يحوقلان ويسترجعان، ثم إنه انتبه إلى رسالتها بالقرب من رأسها:

﴿أنا ميتة... لقد مت أمس.. قتلني أخي.. لا.. ليس أخي.. لم يعد أخي منذ أن قبل أن يخون (الواحة)... ليس أخي... ولست أخته... لا أستطيع أن أنطق اسمه.. كنت قررت الانتحار لولا أن الله عصمني من ذلك.. فما قيمة الحياة بعد اليوم.. غداً صباحاً سأترك (الواحة) وأرحل...

ولكن.. (سالم). إن سمعت أنك قد غسلت عارك وانتقمت لي ولنفسك ... فساعتها يمكن أن أغفر لك..

إني راحلة.﴾

كان (سالم) يقرأ الرسالة وهو يبكي.. ثم قال:

- (سلمى)... لقد رحلت عن الحياة كلها.. لا عن (الواحة) فحسب.. نفسها الطاهرة لم تستطع احتمال ما حدث.. أقسم يا (سلمى) أن أنتقم.. أقسم.

***

في قصر الملك ظل (بيني) ابن (بيرس) يحاول التقرّب من ابنة الملك (ليئات) التي كانت منقطعة للعبادة ودراسة تعاليم الدين، بالتالي لم يكن يعنيها أمر (بيني) أو سواه، و لم تكن ترى فيه أكثر من شاب مخلص للمملكة، وحريص على خدمة أبيها ومن ثم خدمتها، وهذا ما كانت تفسّر به سرّ اهتمامه بها.

***

أما (خالد) فقد رجع إلى مدينة (السعادة)، وأخبر والدته عن رحلته إلى (الواحة) وتبرّك بدعواتها ورضاها، واصطحب أخاه وصاحبه (علي) وعادا معاً إلى مدينة (الأحلام) حيث لقاء الأصدقاء والفرسان على أرض الجامعة.

كان لقاؤهم حميماً جداً.. تحدّث كلٌّ منهم عن مهمّته. وفاجأهم أن نجاحهم جميعاً كان فوق مستوى التوقع. لقد كان تعطش الناس عجيباً لِـ(الواحة) ونصرتها... كانوا على استعداد أن يسيروا خلف كل من يقودهم لنجدتها.. كانوا مستعدين لبذل الغالي والنفيس من أجلها،

بل إن بعضهم وجد من سبقه في مدينته للحشد والتحشيد من أجل نصرة (الواحة)، أما (خالد) فلم تكن أخباره لهم أقل سروراً. لقد سرّهم خبر الثوار الجدد، وأجمع الجميع على ضرورة نصرتهم وعدم السماح لثورتهم بالانهزام، بل إن عليهم أن يمدّوها بالمال والسلاح والخبرات وكل ما يلزمها للنجاح.

اتفق الأصدقاء أن أول السبل لنصرة (الواحة) هو بث أخبار مآسيها ونشر قصص بطولاتها بين الناس:

– يجب أن تصبح (الواحة) قضية كل عربي.. علينا أن نُدخِلها كل بيت، وهذا يستلزم طاقماً مدرّباً من الشعراء والخطباء والقصّاصين، ويحتاج إلى كادر من الرسل النشطاء نرسلهم إليها يجلبون منها الأخبار... بل إن بإمكاننا أن نجنّد الرسّامين من الفنانين المبدعين ليقوموا بنقل الأحداث إلى الناس عبر الفن المرسوم جنباً إلى جنب مع الفن المقروء والمسموع.. وهكذا تصبح (الواحة) قضية كل عربي وتدخل كل بيت.

***

في سجن (الواحة) المحصّن في شطر المدينة الشمالي حيث يقضي حكمه أصحاب الأحكام العالية وغيرهم من الذين يعتبرهم الغزاة خطرين لا يثق ببقائهم في سجن (الواحة) في شطرها الجنوبي حيث هو وسط السكان العرب وحراساته أقلّ وتحصيناته أخف.. في ذلك السجن المحصّن كان السجن الطويل قد فعل فعله في معنويات وقناعات الثوار القدامى!!:

– (نبيل): نحن منسيون يا (ثائر).. نحن هنا ميتون.. لم يعد يذكرنا أحد. لا يسمع بأمرنا أحد. كل جديد نلتقي به يفاجأ أنه يرى في السجن من أمضى حوالي عشرين عاماً.. آه يا (ثائر)!!! هل سنخرج من السجن في أكياس سوداء إلى قبورنا.. يا ليتنا لم نسلك هذا الدرب!!

– (ثائر): لا... يا (نبيل).. لست نادماً على ما قمنا به، ولكن يبدو أننا أخطأنا في تقدير قوة خصمنا!! موازين القوى مختلّة... كان علينا أن نجعل للمقاومة هدفاً سياسيا متواضعاً.. لو أنا عرضنا عليهم صلحاً ما مقابل بعض الإنجاز لكان أجدى مما فعلناه!! لقد تأخرنا وفوتنا الفرص.

– (هاشم): وأي صلح يعرضه الضعيف على القوي؟!

– (عامر): بل وأي حق يمكن أن يجود به الجلاد على الضحية؟!

– (نبيل): لازلتما تفكران بعقلية الماضي!! ألم تُنْضج تفكيركما سنوات الأسر الطويلة هذه.

– (ثائر): يتناقل السجناء الجدد أخبار ثوار جدد بدأت تجود بهم (الواحة)... بالتأكيد إنهم يستلهمون تجربتهم من ثورتنا. إنهم امتداد لنا. ليتنا نتمكن من الاتصال بهم لعرض تجربتنا عليهم.. لا نريد لجهودهم أن تضيع كما ضاعت جهودنا.. لا بد من أن نستثمر الجهد المقاوم باتجاه حل سياسي وصلح نسترد به بعض الحق.

– (عامر): وهل يقف التاريخ عند (ثائر) ورفاقه؟! لم لا يكون الثوار الجدد لم يسمعوا بنا أصلاً؟! لماذا نفترض أنهم امتداد لنا؟! لم لا نعترف أن تجربتنا فشلت، وأن لهم تجربتهم وبرنامجهم؟! لماذا نكون أوصياء عليهم؟

هذا نوع من جنون العظمة.. لقد أدينا دورنا وواجبنا.. وغيرنا يؤدي دوره وواجبه وهكذا.. جيلٌ يخلف جيلاً.. حتى تتحرر (الواحة) وتعود إلى أهلها.

– (نبيل): دعك من هذه الفذلكات.. وهذه الموضوعية التي هي في غير محلها!! وجهة نظر (ثائر) عملية، فلو تمكنا من استثمار ثورتهم باتجاه صلح يعطينا بعض الحق إن كنا نعجز عن أخذ كامل الحق.. ولكن يا (ثائر) لماذا نتصل بهم هم؟! أعني لماذا لا نطلب الاجتماع بسجانينا، ونعرض عليهم رؤانا؟!

– (ثائر): ومن يسمع لنا يا (نبيل)؟! وأنى لهم أن يستمعوا لأناس منسيين وراء الشمس؟! هيهات يا (نبيل).. هيهات!

لكن (نبيل) لم يقنعه جواب (ثائر) وظلّ يفكّر بما عرضه من رأي فهو فرصة النجاة الوحيدة له، وخيط الأمل الذي لا يجب إفلاته مهما كان الثمن.

***

في ذلك الوقت كانت فكرة "تطوير السلاح" يشتد إلحاحها على فكر (شهيد):

– (شهيد): حاولت أن أجمع بين الفكرتين يا أبتاه: استخدام السم بجعل الإصابة أكيدة الفتك، وتصغير حجم النبال ليتمكن القوس من إيصال النصال إلى هدفها.. انظر يا والدي [وأخذ يري والده خلاصة ما توصّل إليه].

– (مصعب): الثغرات واضحة يا بني.. رغم بعض التقدّم...

– (شهيد): أجل.. يا أبي.. أجل.. النصال تتجه باتجاه واحد فلا تصيب أكثر من شخص واحد أو شخصين على الأكثر، ولا بد أن تكون المسافة قريبة لأن مدى القوس بسبب كثرة النصال قليل، وهذا سيجعل الرامي في قبضة خصمه لا محالة... ماذا أفعل يا والدي؟!!

– (مصعب): هون عليك يا ولدي الحبيب.. أنت تتقدم وتتطور، وأنا على قناعة أن مزيداً من التفكير سيوصلك إلى مبتغاك، وسأواصل التفكير معك، لكني على ثقة تامة أنك ستنجح يا (شهيد)، ستنجح بإذن الله.

***

واصل الثوار ضرباتهم الموجهة للغزاة، وكان أشدّها إيلاماً تلك التي تتم في وضح النهار، وكان ينفّذها فارس واحد. ازداد الناس تعلّقاً "بالفارس الملثم"، وصار رمز مدينة (الواحة)، وأخذ الصغار في ألعابهم يتلثمون ويتصارعون على تقمص شخصية "الفارس الملثم" الذي يفتك بالغزاة.

أما الغزاة وخاصة في أروقة (المخابرات) فقد كانوا يحترقون غيظاً!! كيف يفعل بهم فتىً واحد كل هذا الفعل وطوال هذه الفترة دون أن يتمكنوا من إلقاء القبض عليه؟!

عكف رجال المخابرات على وضع مخطط يؤدي إلى إلقاء القبض على هذا "الفارس الملثم" أو قتله مع تفضيل الخيار الأول، في حين كان القصر منشغلاً بالتحضير والاستعداد لزيارة إمبراطور الإمبراطورية العظمى

للمملكة والتي ستستغرق أسبوعاً كاملاً يتفقد فيه أحوال حلفائه في المنطقة.

حث (ريمون) رجال مخابراته على ضرورة تنفيذ مخطط إلقاء القبض على "الفارس الملثم" خلال زيارة الامبراطور لتكون أفضل هدية يتم استقباله بها.

***

وضع (شهيد) خطته المحكمة لـ(سالم) كي يأخذ بثأره وينتقم لنفسه ولأخته ولمئات ضحايا المجرم (آلبرت)، ودرّبه وأحسن إعداده، أما (سالم) فقد كان يتحرّق شوقاً لذلك اليوم. لقد تغيّرت نفسيته.. لقد أعاد له (شهيد) كيانه وإنسانيته.. لقد أنقذه أكثر من مرة.. لن يخذله.. ولن يخذل أخته.. ولن يخذل كل من يعلّق عليه الأمل من الضحايا والمكلومين.

أخفى (سالم) خنجره المسموم جيداً، ومضى إلى القصر وأعطى الحرس كلمة السرّ التي بينه وبين (آلبرت) فأدخلوه، وحتى يتجاوز إجراءات التفتيش كتب لـ (آلبرت) ورقة فيها أن لديه أخباراً هامة عن "الفارس الملثم". كان طعماً سهلاً لم ينتبه له المغرور المنتفخ خبثاً ولؤماً (آلبرت). سريعاً خرج (آلبرت) إلى حيث (سالم) واصطحبه معه للداخل وأغلق عليه الباب مختلياً به. كان (آلبرت) يتيه فرحاً...

لقد أفلحت وسائله الخبيثة في تطويع (سالم)، لقد استطاع أن يكسره. استطاع أن يجنّده تجنيداً كاملاً.. ها قد أصبح كالعجينة في أيديهم، بل إنه

اليوم قدّم له هدية لم يكن يتوقعها. ياللروعة!! سيسرّ به (ريمون) أيّما سرور حينما يحضر له "الفارس الملثم" في ذل الأصفاد.

– (آلبرت): مرحى مرحى يا (سالم)، أنت رجلنا الشجاع. سامحني عن كل إساءة سببتها لك، إنما كنت أريد لك الخير.. هيا.. هيا.. إني بانتظار أخبارك السارة، من هو هذا الوغد المسمّى "الفارس الملثم".. كم أنا في شوق شديد لغرس أظافري في أحشائه.

– (سالم): عفوا.. يا سيدي.. ولكن.. المكافأة.. أين وما هي المكافأة أولاً.. وهل ستحضر لي (مارلين) من جديد؟!

– (آلبرت)[الذي ضحك وقهقه بشدة]: أيها الخبيث!! قد بدأت تتشرب بعض طباعنا... طبعاً.. طبعاً.. لك كل ما تريد وما تحب وأكثر

أدار (آلبرت) ظهره إلى (سالم) ومشى بعيداً عنه بكل غرور وثقة وهو ينظر للأعلى وقال:

– هيا.. هيا.. يا (سالم). لا تضيع وقتي ووقتك.. من هو ذلك الجبان؟!

أخرج (سالم) خنجره دون تردد ومشى خلف (آلبرت) وقال له:

– اسمه.. (سلمى).. (سلمى) يا سيدي!!!

– (آلبرت): (سلمى)؟! (سلمى)؟! هل هذا اسم رجل؟! أهي امرأة؟! من (سلمى)؟! آه... (سلمى) هل تقصد.......

انتبه (ألبرت) وتذكر أخت (سالم) (سلمى) فأدار وجهه بقلق نحو (سالم).. لقد شعر بخوف شديد... لكن (سالم) لم يمهله فقد طعنه عدة

طعنات وهو يصرخ:

– (سلمى).. (سلمى).. أختي (سلمى).. أيها الوغد.. لأجلك يا (سلمى).. لأجل عيونك يا أختي الحبيبة.

صرخ (آلبرت) صرخة شديدة اهتز لها القصر:

–آآآآآه... اللعنة... يا مجنون... يا وغد.... آآآآآه

– (سالم): اصرخ.. يا جبان.. كما صرخت (سلمى).. لم ترحموا صراخها.. ولن أرحمك. إلى حتفك حيث الجحيم... ذق بعض ما أذقته لضحاياك يا نذل...

حاول (آلبرت) الدفاع عن نفسه والسيطرة على (سالم) لكن السم عاجله فخارت قواه فخرّ مضرّجاً بدمه.

وفي تلك الأثناء دخل الجنود الحراس من خارج الغرفة وشاهدوا قائدهم صريعاً.. فانقضوا على (سالم) وقتلوه..

استشهد (سالم) وهو يبتسم.. كانت آخر كلماته:

– (سلمى)... هل صفحت عني الآن يا (سلمى)؟!

كانت (سلمى) آخر كلمة خرجت من فمه.. خرجت حروفها الأربعة مع نفسه الأخير.. وكأنه كان يريد أن يقول:

إذا كانت النفس حين يدسّيها صاحبها تنحط إلى أسفل سافلين...

فإنها هي ذاتها النفس حين يزكّيها بالتوبة فيرتفع بها فوق السحاب.

ليست الخطيئة نهاية المطاف، فكل بني آدم خطاء، ولكنه الإصرار والاستسلام والهزيمة هو الذي يردي المرء إلى الهاوية، والعاقل السعيد هو

الذي يستطيع أن يستدرك قبل فوات الأوان.

كان (أبو البشائر) بالصدفة موجوداً عند (أفلاطون) فسمع ما حدث، ونقل البشرى لـ(شهيد):

– (أبو البشائر): لقد قتل (سالم) (آلبرت) واستشهد.. طوبى له..

– (شهيد): حقاً يا (بشر) أنت (أبو البشائر).. الحمد لله الذي أرانا في (آلبرت) يومه الذي يستحقه وشفى صدرنا منه.. كم سيسرّ والدي بهذا النبأ.. الحمد لله الذي ختم (لسالم) بالشهادة.. يرحمك الله يا (سالم).. ويرحمك الله يا (سلمى).

وقاد ما حدث الفرسان الأربعة للحديث عن ظاهرة الخيانة وكيفية التعامل معها:

– (محمد): لو كان معي سهم واحد وأمامي جندي من جنود الغزاة، وعميل جاسوس لقتلت الجاسوس، لأنه لولا الجاسوس لما استطاع المحتل أن يصل إليّ.

– (شهيد): أما أنا فسأقتل الغازي بذلك السهم الوحيد، لأنه لولا الاحتلال لما كان هناك جاسوس.

– (ليث): الغزاة يجندون الخونة في صفوفنا فيتسببون في اعتقالنا بل وقتلنا.. ثم نقتلهم (الجواسيس) ونتخلص منهم.. وهكذا تظل الجراحات في جسدنا نحن.. ويظل الاحتلال في مأمن.. نحن والخونة أبناء (الواحة).. وقتلهم يعني أن تظل المعركة داخل جسدنا نحن، فيما الجسد الغازي آمن سالم.

– (إبراهيم): حين يتعفن العضو في الجسد يا (ليث)، لا يعود منه. يصبح غريباً عنه، وراحة الجسد وعافيته حينئذ بالتخلص منه، وقد تشق البطن وتُسيل الدم لتخرج من أحشائك الورم.

– (شهيد): وأي جسد هذا الذي يبتر منه ربع أطرافه بل وحتى خمسهم أو عُشرهم؟!

– (أبو البشائر): إذا سمحتم لي بإبداء الرأي.. فأرى أن كل ما قلتموه صحيح.. أو أن كلاً منكم قد أصاب جزءاً من الصواب؛ نحن منقذون ووظيفتنا العلاج، فعلينا أن نبذل الجهد تلو الجهد.. ونكرر المحاولة تلو المحاولة في الإنقاذ، ولأن إنقاذ نفس هو إحياء لها ولأهلها، فإن الأمر يستحق منا الصبر والتضحية والتعب.. حتى إذا أعذرنا وبذلنا أقصى الجهد و لم يكن بد من البتر لجأنا إلى آخر العلاج، وظني أنا سنجد حينئذ حالات قليلة، ويكون نجاحنا النجاح الأكبر حين نكرر تجربة (سالم)، وفي جميع الأحوال تظل معركتنا المركزية مع الاحتلال داخل جسد الاحتلال.

– (شهيد):ترى كم من (سالم) و(سلمى) في واحتنا الجميلة لم نسمع بهم كي ننقذهم؟! ويح الغزاة المجرمين!!

زف (شهيد) لوالده نبأ مقتل (آلبرت) فسرّ بذلك أيما سرور، واعتبر هذه الحادثة تحولاً في المواجهة وبداية لانتصارات قادمة.

***

– (سلام): يا اللّه يا عماه!! لم أشأ مقاطعتك حتى تنهي قصة (سالم) و(سلمى).. وإني لا أكاد أصدق! أو فلأقل إن ثمة محطات عدة تُلِحُّ عليّ بسؤالها المتلهِّف..

(أبو البشائر): إني أسمع.. قل..

– أي صنف من البشر أعداؤنا أولئك! ألا يحملون شرف الفرسان؟! أو حتى أحاسيس الإنسان؟! لماذا يسلكون هذه الأساليب القذرة في تجنيد الناس؟! لماذا يحطمونهم ويدمرونهم بهذه الطريقة؟! إن قتل الإنسان أهون ألف مرة مما يفعلونه به؟!

– حين ينسى الإنسان ربه يُنسيه نفسه فتنتكس وترتكس، وتصير حينئذ مطموسة موكوسة تمارس في شريعة الغاب قانون الوحوش. التجنيد عند أعدائنا الذين واجههم آباؤك يا بني –وأحب أن أسميه الإسقاط– هدف بحدّ ذاته لا مجرّد وسيلة لجلب المعلومات. إنهم يريدون قتل إنسانية الإنسان وإفراغه من كل معنىً لقيمة أو خلق، حتى لا يبقى فيه ذرة لإمكانية ممانعة تسمح له أن يقول: لا. كانوا لا يرون أحداً من البشر يستحق الحياة سواهم، فلا عجب إذن فيما كانوا يفعلون.

– ولكن يا عمّاه، كيف يمكن للضحية أن يصبح مجرماً؟! ابن شعبنا النقي الطاهر كيف يحولونه من البراءة والطهر إلى الرذيلة والعهر حتى يفعل ما يفعل. يستسهل أن يمارس مع غيره نفس الدور الذي مورس معه! يهون عليه القتل والإيذاء حتى مع أقرب الناس عليه؟! هل يُعقل أن تهديد المرء بفضحه وكشف عورته وخطيئته التي ارتكبها في لحظة ضعف، كما

يضعف كل الناس ويخطئون.. هل تهديده بالفضيحة يمكن أن يحوّله هذا التحويل؟! لا أكاد أصدّق؟! ثم هل هم جادون بفضحه؟! أعني ماذا يفيدهم فضحه؟! إنهم بذلك يكشفون أساليبهم فيتجنبها الناس!

– (إن طبيعة الإنسان يا بنيّ لمعقّدة شديدة التعقيد، ففي نفسه منحنيات شتى ودروب، تتخفى فيها نفسه، وتتدسس بمشاعرها ونزواتها وهفواتها وخواطرها وأسرارها وخصوصياتها، إن الإنسان ليصنع أشد مما تصنعه القوقعة الرخوة الهلامية حين تتعرض لوخزة إبرة، فتنطوي سريعاً، وتنكمش داخل القوقعة وتغلق على نفسها تماماً، إن الإنسان ليصنع أشد من هذا حين يحسّ أن عينا تدسست عليه فكشفت شيئاً مما يخفيه، وأن لمحة أصابت منه درباً خفياً أو منحنى سريّاً، ويشعر بقدر عنيف من الألم الواخز حين يطلع عليه أحد في خلوة من خلواته الشعورية!! لذلك كان الستر من أعظم نعم الله على عباده، وكان التخلق بالستر والتستر وعدم فضح الناس شأن المؤمنين، أما أعداؤنا فقد عرفوا طبيعة النفس هذه فاستغلوها أخبث استغلال. غير أن ما قلته صحيح. إنهم ما كانوا لينفذوا تهديدهم بفضح ضحيتهم حتى لا تنكشف أساليبهم، ثم انظر يا بني كيف يتدرجون بالضحية ليحولوه مجرماً.. تبسيط وتهوين وإغراق بالجنس والمال ثم معلومات لا قيمة لها تطلب منه وحديث عن تعايش وسلام حتى يصل الأمر مع البعض أن يقتل بيده أو يعتقل بيده لا مجرّد أن يشي ويدل، ثم يتركونه في مواجهة شعبه... وساعتها فإن المطلوب منه أن يدافع عن نفسه ضد شعبه الذين قتل منهم واعتقل وآذى، أن يدافع عن نفسه بمزيد

من القتل والإيذاء.. وإذا انتهى دوره رموه لقمة سائغة غير مأسوف عليه. إن الليمونة لترمى في القمامة حين يتم عصرها تماماً!!

– كأني أراك يا عمّاه تبرّر ضعف من ضعفوا، فقبلوا –مضطرين– العمل في صفوف عدوهم؟!

– بل أنا أفسر لا أبرّر.. ولقد تعرّض عديدون لذات مواقف الضعف التي تعرض لها غيرهم من المتساقطين، وهدّدوا بما هدد به أولئك، لكنهم صمدوا وأبوا ورفضوا فما أصابهم سوء، وماذا لو أصابهم أي سوء مهما بلغ، فهل يمكن أن يصل أو يبلغ حداً مما بلغ أولئك.. لا والله.

– حسناً يا عمّاه.. لننتقل إلى قضية أخيرة: فلسفة الثوار في التعامل مع هذه الظاهرة.

– إنها معادلات صعبة يا بني، وموازنات أصعب! وفي الإطار العام كانت نجاحات الثوار وإصاباتهم أكبر بما لا يقاس، مع إخفاقاتهم وأخطائهم.. وإن أروع ما تميز به الثوار قدرتهم الرائعة على تحويل الخائن بعد إنقاذه إلى مجاهد ثائر يقتل من قتل فيه نفسه وروحه ثم يستشهد كما حدث مع (سالم) وذلك نجاحهم الأروع.

– بوركت يا عماه فقد رويت ظمأ نفسي.. والآن دعنا نعود إلى "الفارس الملثم".. من هو يا ترى؟! وهل ألقوا القبض عليه كما خططوا؟!

ابتسم(أبو البشائر) وشرع في إكمال الرواية:

***

في منزلهم النائي:

– (زينب أم خولة): لقد باتت صاحباتك اللاتي يتعلمن القراءة والتمريض عندنا مؤهلات لتنفيذ أية مهمة حربية توكل لهن...

– (خولة): أرى أنهن لازلن بحاجة إلى بعض الوقت يا أماه، لسنا في عجلة من أمرنا.

– (أم خولة–زينب): لم أقصد يا ابنتي أن نشركهن في العمل الآن، لازلت أرى أن مرحلتهن لم تأت بعد.

– أمي... بالمناسبة.. كيف حال خالتي (أم شهيد)؟!

– آه ذكرتِني يا (خولة).. ألا ترين أنه قد حان الوقت لنتحدث مع (شهيد)؟! تعلمين حديث أمه الذي أسرّته لنا عن عمله الفدائي تريد أن تلفت نظرك إليه!! لماذا لا تتضافر الجهود لعلّ العمل يكون أثمر؟!

– ذرينا نتريث بعض الشيء يا أماه، لازلنا بحاجة إلى مزيد من الوقت حتى نستوثق من قدراتهم وخبراتهم، ولا يصح أن نضع البيض كله في سلة واحدة.

– تدرين يا (خولة).. إني أرى في عينيك اليوم ذلك الوميض الذي شاهدته في عيني أبيك رحمه الله في ليلة الوداع الأخير.. لا أدري لماذا أنا قلقة هذه المرة.

– لا تقلقي يا أماه.. إني حذرة جداً، ولا أحسب أن أحداً ما يمكن أن يشك بي.

– أرجو ذلك يا ابنتي.. أرجو ذلك.. رضي الله عنك وحفظك وحماك ووفقك.. امضي على بركة الله.

***

وصل الإمبراطور الأعظم المملكة فانشغلت في استقباله إلا (فرودو) و(ريمون) اللذين كانا مصممين على تعويض خسارتهما الفادحة بفقد (آلبرت) بضربة قاصمة للعرب، ولن يكون لهم ذلك إلا إن نالوا من "الفارس الملثم".

درسوا جيداً كل الأعمال الفدائية السابقة التي - ورغم اختلافها وتنوعها- استطاعوا أن يعثروا فيها على قاسم مشترك مكّنهم -بمزيد من الدراسة- من تحديد ثغرة يمكن أن توقع ب "الفارس الملثم" واختاروا كمينهم في النهار، حيث هجوم "الفارس الملثم" المفضل والخاطف!!

كان (ليث) و(محمد) و(شهيد) موجودين في السوق يرصدون المكان حيث هم على موعد بعد أقل من ساعة مع (إبراهيم) ينفذ عملية في المكان.

- (شهيد): إني قلق اليوم على غير عادتي.. انظروا وتأمّلوا جيداً هل ترون الوضع مطمئناً؟!

نظر (محمد)و(ليث) ملياً حولهما. لم يلحظا شيئاً غير اعتيادي.

- (شهيد): انظر.. هناك جنديان فقط يتجولان... وهذا تكرر خلال الأيام الثلاثة الماضية.. هل يعقل أن تكون احتياطاتهم بهذا التساهل بعد كل الضربات الموجهة لهم ؟!

- (محمد): حقاً إنه أمر محيّر.. ولكن ربما كانا في جولة سريعة ومهمة خاصة.

- (ليث): أرى أن حركة الناس اعتيادية، ولكن دعونا ندقق في رصد المحيط.

– (شهيد): قلبي وعقلي يقولان لي أن ثمة كميناً ما... ماذا لو كان الغزاة متخفين بزي عربي..؟! ما رأيكم أن نتحرك جيداً في المكان، ونحاول الاحتكاك بكلّ من نشك به لعلّنا نجد شيئاً..

بدأ الفرسان الثلاثة حركة متفرقة في السوق يحتكون خلالها بكل من شكّوا به.. وكان سهلاً على ذكائهم اللّماح أن يكتشف الكمين... عشرات الأغراب في السوق بزي عربي يخفون سلاحهم تحت ثيابهم ويتخفون بين الناس. قليلو الحديث حتى لا تفضحهم لكنتهم الأعجمية... يا إلهي!!... إنهم بالعشرات، منتشرين في كل الأزقة والشوارع.

– شهيد [لليث]: أسرع يا (ليث) وحذّر (إبراهيم) من المجيء.. لازال هناك وقت.. يمكن إدراكه.. هيا يا (ليث).. حمداً لله أن اكتشفناهم في اللحظة الأخيرة.

غادر (ليث) المكان بسرعة، ولم يكد يغيب عن العيون حتى ظهر "الفارس الملثم" فجأة.. لم يعرف أحد كيف ظهر في وسط الجنود الغزاة.. وبسرعته وبراعته الفائقة قتل الجنديين.. لكن السوق قد تحوّل فجأة إلى جيش نمل من الجنود الغزاة.. كل أولئك المتخفين.. العشرات.. في لمح البصر تحولوا إلى محاربين.. يسدّون كل المنافذ والطرقات!!

صعق (شهيد) و(محمد).. عرفا أنه "الفارس الملثم" وليس (إبراهيم)، ترددا في اتخاذ القرار:

– ماذا بإمكانهما أن يصنعا لمساعدته؟..

واتخذ (شهيد) قراره الجريء الشجاع الذي يمليه عليه العقل والمنطق:

– لا يمكننا فعل شيء يا (محمد).. سيعتقل ثلاثة بدل واحد.. لا يمكننا إلا الترقب والدعاء!!

وجد "الفارس الملثم" نفسه في موقف بالغ الخطورة.. إنه في قلب الموت.. فقرّر أن يقتحمه، وبدأ معركته المستحيلة.. كانوا بالعشرات.. قتل الأول والثاني.. ثم الثالث والرابع.. كان يحاول فتح ثغرة للفرار لكن الأمر كان مستحيلاً..!! كانوا سداً من حوله.. أصدر (فرودو) أوامره بإلقاء القبض عليه حيا مهما كان الثمن:

– يا للهول.. لا يمكنني إلا أن أجلّك أيها الفارس الشجاع.. يا لك من بطل!! ليت عندنا جنوداً بمثل بسالتك!

[كذلك قال (فرودو) في نفسه].

قتل "الفارس الملثم" منهم عشرة جنود.. فتقدّم نحوه فارسهم (بيني) فبارزه مبارزة صلبة.. فسقط عن "الفارس الملثم" لثامه...

وكان هول المفاجأة على الجنود وعلى (فرودو)... وعلى أهل (الواحة) الذين كانت تخفق قلوبهم من الخوف والرجاء وهم يشاهدون المعركة المستحيلة كبيراً جداً.. وكان هول المفاجأة الأثقل والأضخم على نفس (شهيد)...

إنها فتاة!!

"الفارس الملثم" الذي هزّ (الواحة) فتاة!!

إنها (خولة)..

سقط اللثام عن (خولة)... رأت مفاجأتهم فانتهزت الفرصة وأسقطت السيف من يد (بيني) فهجم عليها جندي من ورائها فالتفّت إليه وصرعته، فاستطاع (بيني) أن يرمي درعه على يدها عن بعد، فأسقط سيفها.. فتجمعوا حولها واعتقلوها!!!

لم يصدّق أحد عينيه... أي حلم هذا الذي تراءى أمامهم الآن!! وصل (ليث) و(إبراهيم).. وشاهدا أواخر المشهد كما شاهده كل الحاضرين!!

– لقد وقعت خولة في الأسر.. وقع «الفارس الملثم» في قبضتهم يا أبتاه!!

بهذه الكلمات ختم (شهيد) حديثه لوالده وهو يصف له ما حصل.. كان يتحدث باكياً!!

– (مصعب): كان عليّ أن أكتشف أنها هي.. إنها بنت (حسن) و(زينب).. إنه تدريب (حسن) لأمّها التي درّبتها.. لماذا فاتني هذا الأمر؟!

– (شهيد): أنا جبان يا أبي.. أنا جبان!! كان علينا أن نتدخل حتى لو قتلنا جميعاً..!! أنا جبان... جبان.. أليس كذلك؟!

كان (مصعب) يصغي مغرورق الدمع.. كان يعلم أن ابنه اتخذ القرار الذي يمليه العقل.. إنها معركة شرسة ينبغي أن تلجم فيها نزوات العاطفة بنظرات العقول.. ولكنها (خولة).. (خولة) بنت (حسن).. يالله!!

– (مصعب): اسمع يا (شهيد).. أنت تعلم ما الذي تعنيه (خولة)

بالنسبة لي.. وتعلم من أبوها وأمها.. لقد خاضت معركتها المستحيلة.. وهل ثورتنا إلا ثورة المستحيل؟! وأنت ستنفذ المهمة المستحيلة..!! لست ابني (شهيد) ولست أباك إن لم تنقذها من براثن الأسر.. لن تدخل عليّ حتى تعود بها.. أفهمت؟!... هذا وإلا فلست ولدي الذي أعددته للنائبات!!

نظر (شهيد) إلى أبيه نظرة الواثق المغتبط.. لقد أعطته كلمات أبيه دفعة معنوية قوية..

قبّل (شهيد) رأس والده ويده ثم قال:

– ولن أقول لك: إما أن أعود بها أو لا أعود.. بل سأعود بها بإذن الله، فادع الله لنا يا أبتاه!!

خرج (شهيد) وقبّل رأس أمّه ويديها طالباً منها الدعاء!!

طلب (مصعب) من زوجته أن تحضر (أم خولة) إلى منزلهم ريثما تهدأ الأمور، وأوصاها أن تترفق بها وهي تبلغها الخبر.. حيث لم يعرف أحد من سكان (الواحة) الذين شاهدوا معركة السوق هوية تلك الفتاة!

وفي حين كان "الفارس الملثم" ومعركة السوق الأخيرة حديث (الواحة) كلها، كان قصر المملكة يتجهّز لوداع الإمبراطور الأعظم في يومه الأخير.. ووصلهم خبر اعتقال "الفارس الملثم" كأجمل مفاجأة بحضور الإمبراطور. الإمبراطور الذي كانوا قد حدّثوه عن ظاهرة "الفارس الملثّم" وقلقهم بشأنها، فكان خبر اعتقاله أجمل هدية له. أثنى الملك (تيودور) طويلاً على (ريمون) وجهاز مخابراته، و لم يفته الثناء على

(بيني) وترقيته. أما الإمبراطور فقد طلب رؤية تلك الفتاة فأحضروها سريعاً له، ولم يكن أحد قد تحدّث معها بعد. رآها الإمبراطور وأعجب بها فطلب أن يتم ترحيلها له إلى الإمبراطورية العظمى هديّةً يقبلها بشكر وامتنان من صديقه الملك (تيودور). لم يكن بإمكان الإمبراطور الانتظار، ولم تكن مهيأة لتسافر معه. فاتفقوا على أن يتم تجهيزها له، ومن ثم إلحاقها به مع وفد يليق بالإمبراطور بعد أسبوع من الآن، وطلب ألا يمسّها أحد بسوء أو يحدّثها بكلمة واحدة.

وفي الجهة الأخرى كان (شهيد) ورفاقه يتبادلون الرأي ويقلّبون وجهات النظر. لم يكونوا أقل حماساً من (شهيد) في مشروع تحرير (خولة). لا بدّ من اقتحام القصر وإنقاذها من داخله!! إنها مهمة مستحيلة.. لكن لا خيار لهم إلا ذلك. لن يتوقع أحد من الغزاة أن يفكّر أحد بذلك. القصر أكثر مناطقهم أمناً. سيأتونهم من قمة مأمنهم.. ولكن هل هي في القصر أم في إحدى السجون البعيدة عنه؟! ثم كيف سيدخلون القصر وهم لا يعرفون عنه إلا ما كان وصفه (أبو البشائر) لهم حوله. وذلك من تردداه على زيارة (أفلاطون) فيه.. ولكن ذلك ليس كافياً..

أجمع تفكيرهم على ضرورة أن يقوموا بمراقبة القصر عن بعد، واختطاف أحد حراسه والتحقيق معه قبل قتله لمعرفة مداخل وأسرار القصر، وإن لزم الأمر فسيقومون بتكرار المهمة مع حارس آخر حتى يستكملوا المعلومات اللازمة.

وضعوا خطتهم بإحكام، فقد كان شطر (الواحة) الشمالي أرضاً معروفة

لهم، وكما قالوا: قتلت أرضٌ جاهلها، وقتل أرضاً عالمُها. كما كان عليهم أن يحسنوا اختيار مكان التحقيق معه إضافة إلى طريقة التخلص منه بحيث لا يلفتوا النظر إليهم فيحتاط القصر ويخسرون هم عنصر المفاجأة.

وفي مساء اليوم التالي كان الفرسان الأربعة على مشارف القصر الملكي متنكرين بزي الجنود. كان الوصول عليهم يسيراً جداً. كانوا يتصرفون بثقة بالغة. راقبوا منافذ القصر عن بعد بشكل غير ملفت للنظر. كانت توقعات (أبي البشائر) وحساباته أن دوريات القصر تتبدّل بعد العشاء.. انتظروا حوالي ساعتين بعده فجاءتهم الفرصة. قسم من الحراس يصل ليأخذ مكان آخرين يغادرون القصر باتجاه منازلهم.. اختار الفرسان أحد الجنود هدفاً لهم.. قادتهم فراستهم أنه الأعلى رتبة من الموجودين.. استدرجوه بحيلة بسيطة ذكية إلى المكان الذي كانوا قد أعدوه مسبقاً. ذهب إليه أحدهم فتحدث معه (بلغته) بطلاقة طالباً منه أن يدلّه على أحد الأماكن، مشى معه يقوده إليه، ولما وصل مكاناً خالياً انقضوا عليه فقيّدوه مغلقين فمه واقتادوه إلى حيث خططوا. بدأوا معه تحقيقاً فورياً عن القصر وحراساته. أوهموه أنهم من جنود المخابرات ويشكّون في ولائه للأعداء. سألوه عن أمور دقيقة. ارتبك ورفض الإجابة، ومع جدّيّتهم وتهديدهم اضطر لأن يجيبهم بكل ما يعرف. بعد أن اقتنعوا أنه لم يبق لديه ما يمكن أن يفيدهم به، ومع اقتراب الفجر على البزوغ أخذوه إلى أحراش قريبة فقتلوه، ثم عادوا إلى منازلهم التي وصلوها مع الفجر.

نام (شهيد) عند (محمد) حيث كانت (أم محمد) التي أمضت ليلها

بالدعاء لهم في انتظارهم.

وصلت أخبار «الفارس الملثم» إلى المدن المجاورة، وتناقل الناس فيها بطولات الثوار في (الواحة)، واحتلت بطولات «الفارس الملثم» مساحات واسعة من تغطية الخطباء والشعراء:

ها هن نساء (الواحة) الماجدات.. يمرّغن أنف الغزاة بالتراب.. لم يعودوا ذلك الجيش المرعب. نساء (الواحة) حطمن أسطورتهم التي صنعتها أوهام المهزومين وذعرهم.. لقد ثارت النساء في (الواحة)، فمتى سيتحرك رجال الأعراب لنجدة (الواحة) ونصرتها؟!

نجح (خالد) ورفاقه في حشد السكان العرب في المدن المجاورة وربطهم بقضية (الواحة)، الأمر الذي سهّل عليهم تنمية مشروعهم وتقويته، ويسّر عليهم سبل جمع المال لإمداد (الواحة) وثوارها وأهلها، وللمرة الأولى تصل أخبار (الواحة) سريعاً وبتفاصيل أحداثها إلى المدن العربية المجاورة بهذه السرعة، لقد كانت الشبكة التي أقامها (خالد) ورفاقه شديدة الفاعلية والإنتاج، وهو ما شجّعهم على الاستمرار وتطوير عملهم وصلاتهم بالثوار داخل (الواحة).

***

مع ساعات الظهيرة التقى الفرسان الأربعة في بيت (محمد) يتبادلون الرأي حول الخطوة القادمة، وفي تلك الأثناء كان (أبو البشائر) في ضيافة (أفلاطون) داخل القصر:

وبعد حديث متفرق قال (أبو البشائر):

– هل أنت متزوج يا صاحبي؟!

ابتسم (أفلاطون) الذي فاجأه السؤال.. وقال:

– لا لست متزوجاً.

– فهل أحببت يوماً ما؟

كان استغراب (أفلاطون) هذه المرة أكبر!!

– لا.. لا أذكر أني أحببت.. ولا تسألني لماذا؟! ولكني سأسألك عن سبب سؤالك، وقبل ذلك دعني أسألك.. هل أنت متزوج أو أحببت يوماً ما؟!

ضحك (أبو البشائر) وقال:

– لا.. ولكني لا زلت في ريعان الشباب.. أتدري يا صاحبي قد توقعت منك هذا الجواب.. أعني توقعت أن تكون علاقتك بالمرأة هكذا..

– (أفلاطون): لم أفهم قصدك.

– (أبو البشائر): يقول فيلسوفنا الأديب:"إن كان حب الشاعر لا يخلو من الوزن... فهيهات أيها الفيلسوف إن أصبت الحب إلا في إمرأة معقدة يؤلفها الله تأليفاً من العسر بين فهمك ومعانيها" وهيهات أن تجد هذه المرأة!!

– رباه!! ما هذا القول البديع؟! وهل تحفظ لصاحبكم هذا شيئاً آخر في المرأة؟! في الوصف مثلاً.. في وصف حسن المرأة.

– قال مرّة: "كانتا درتين متجاورتين في حلية على صدر حسناء، وكلتاهما يتيمة إلا من أختها، تمج ذلك الشعاع النادر الذي جاءه الحسن من كونه ضوءاً لم يولد من شمس ولا من قمر، ولكن من ظلمات البحر!! تناجتا يوماً وكانت الجميلة قد استوفت كل زينتها، وحملت الدرتين على صدرها كأنهما عينا قلبها الثمين، فقالت إحداهما للأخرى وهي تشير إلى هذه الفتّانة: انظري، انظري ما أحسن لؤلؤتنا!! وهكذا صارت اللؤلؤة في هذا المنطق الشعري هي امرأة الأعماق المظلمة، وصارت المرأة الحسناء لؤلؤة الأعماق السماوية المضيئة».

– يا للروعة!! في حياتي كلها لم أسمع مثل هذا التألق. زدني بحق السّماء.

– وقال في أخرى: "كان لها حينا خفّة العصفور، وحيناً كبرياء الطاووس، ودائماً وداعة الحمامة المستأنسة».

– جميل.. جميل جداً... فماذا يقول في الحب؟!

– قال: "الحبيب من تلتهمه بكل حواسك فإذا رأيته فقد رأيته وذقته ولمسته وشممته، وقد قال لي رجل عن زوجته: أنا وهي ينتج منهما أنا بلا أنا!!»

– رائع وبديع... فعن بغض المحبين؟!

– قال:«قيل أن البغض بين المحبين حين يقع يكون أعنف ما في الخصومة، إذ هو تقاتل روحين على تحليل أجزائهما الممتزجة..»

– (أفلاطون): يا للروعة يا (بشر)!! أتدري؟! لا أستغرب وجود

فيلسوف عندكم يتحدث بهذا المنطق السحري عن نسائكم، فلقد رأيت في القصر هنا فتاة من العرب.. لا أحسب أني رأيت وسأرى مثلها في نساء العالم...!!

وأخذ (أفلاطون) يقص على (أبي البشائر) خبر (خولة) وجرأتها، وطلب الإمبراطور لها وأنهم سيرسلونها له بعد خمسة أيام، وحدد له الموعد والساعة، وأخبره عن طبيعة الوفد المشارك. كما طمأنه أن أحداً لم يمسّها بسوء بسبب وصية الإمبراطور، ولم يخف حسرته على خسارة القصر لفتاة مثلها!!

كان (أفلاطون) يتحدث كالمسحور، ولم يلق بالاً لأسئلة (أبي البشائر) المستدرجة تريد الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات، وهو الأمر الذي لم يكن صعباً، حيث استرسل (أفلاطون) في حديثه دون ضوابط.

انتهى اللقاء بينهما على أن يهدي (أبو البشائر) لـ(أفلاطون) كتب صاحبه الفيلسوف الأديب كي يستمتع بأدبه وفلسفته.

توجه (أبو البشائر) نحو الفرسان الأربعة يضعهم في صورة ما حصل عليه من معلومات.

استقر رأي الفرسان الأربعة على الخطة التالية:

غداً بعد الظهيرة يستدرجون حارساً آخر أفادتهم اعترافات الحارس الصريع أنه سيبدّل دوريته وقت الظهيرة، ومن ثم التحقيق معه للتأكد من صحة المعلومات التي أدلى بها صاحبه أو إذا ما كان سيضيف عليها. وإن عليهم أن ينفذوا مهمة اقتحام القصر في نفس الليلة كي لا يلفت اختفاء

حارسين من حراس القصر في فترة واحدة انتباه الغزاة أو يثير ارتيابهم.

كانت خطتهم تقوم على أساس أن يدخل (شهيد) [الذي أصرّ أن يكون أول الداخلين]، و(ليث) القصر مع ساعات المساء الأولى، ويتفقدا الأجواء في الداخل، ويحددا موقع (خولة) ثم يخرج (ليث) لـ(إبراهيم) و(محمد) بعد أن يتفق مع (شهيد) على ساعة الخروج (التحرير)، حسب الكشف الميداني.الذي سيمكنهم من تحديد الوقت الذي يتمكن فيه (شهيد) من تحرير (خولة)، ويكون دور الثلاثة فيما بعد إشغال الحراس لحين وصول (شهيد) و(خولة) الباب الخارجي، ومن ثم انسحاب الجميع بهدوء. كانت مهمة مستحيلة، ومحطات مغامراتها متعددة، فحراسات القصر في الداخل مشددة، وقد يدركهم الوقت قبل أن يستطيعوا تحديد مكان (خولة) أو تحريرها، فإن عليهم أن ينجزوا المهمة قبل الفجر. وأعطى (شهيد) أوامره لهم أن يتركوا المكان إذا تأخر عن الموعد الذي اتفق عليه مع (ليث) لأن مكروهاً حينها يكون قد أصابه. وإن على الفرسان الثلاثة أن يواصلوا المشوار الطويل بعدها. كان الخوف على (خولة) أن يصيبها أذى أو مكروه عاملاً آخرَ يلحّ عليهم في تحركهم السريع.

وفي تلك الأثناء وصل (أبو البشائر) الذي ظل يبحث عنهم حتى عرف أنهم عند (محمد) وكعادته جاء يحمل لهم أخباره الجديدة. كم أراحهم أن (خولة) لم يمسها سوء أو مكروه. وضعوا احتمال أن يكون (أفلاطون) يخدع (أبا البشائر) ويتعمّد أن يضلله بهذه المعلومات بغية استدراج رفاق (خولة) إن كان لها رفاق. لكنهم سرعان ما استبعدوا هذا الاحتمال بعد

التدقيق فيما قاله (أبو البشائر). وأحياناً يضع القائد الاحتمال في حسبانه كي يستبعده (بعد الدراسة).

– (ليث): إن كنا قد اطمأننا على (خولة) فإن نقلها إلى الإمبراطورية بعد أيام يجعلنا نسرّع في إنقاذها ونمضي في تنفيذ خطتنا أليس كذلك يا إخوة؟!

هزّ (إبراهيم) و(محمد) رأسيهما بالإيجاب إلا (شهيد) الذي كان يفكّر بعمق حتى قال:

– وما رأيكم أن ندعها تسافر ثم نحررها هناك؟!

انتبه الجميع لهذا الرأي الغريب الذي فاجأهم به (شهيد) ثم أكمل:

– اقصد أن نحررها أثناء الطريق في قلب البحر. انظروا معي: سفينة كبيرة تحمل ثلاثين راكباً بينهم عشرة مسلحين فقط.. والباقي وفد من كبار رجال المملكة لا علاقة لهم بالحرب، وليس ألف مسلح كما في القصر.. وفي عرض البحر حيث لا يوجد إلا الموج والسحاب لا داخل المدينة حيث كل أهلها أعداؤنا... ومزيد من الوقت لنعدّ العدة بأناة لا عدة ساعات.. ثم سفينة تغرق وسط البحر كما سنوهمهم فيغلقون الملف لا حادثة فرار فتاة كانت ستذهب هدية للإمبراطور الأعظم فسيقلبون من أجلها (الواحة).. كل النقاط السالفة تجعلنا نعيد التخطيط ونغيّر الخطة ونجعل هدفنا البحر.. ما رأيكم؟!

لاقت فكرة (شهيد) إعجابهم وإجماعهم..

– (ليث): غير أن الأمر لا زال صعباً. في عرض البحر سيكون الخطر

أخف بكثير لكن نحتاج إلى جهد كبير من السباحة والعوم.

– (إبراهيم): وسنحتاج تحديد موعد إبحار السفينة بدقة، فتأخرها أو تقدمها قد يفشل المهمة لا قدر الله. ولاحظوا أنها فرصتنا الأخيرة.

– (محمد): قد نكون مضطرين لاختطاف حارس آخر من القصر نختار أن تكون رتبته عالية لعلّه يقودنا إلى معرفة الموعد بالضبط.

– (أبو البشائر): وسأذهب في اليوم التالي (لأفلاطون) بهديتي من الكتب، وأحاول التأكد من الموعد.

– (شهيد): اجعل ذهابك على يومين متتاليين وتظاهر بأنك نسيت أحد الكتب وستحضره في اليوم التالي، ولا تلفت انتباهه بسؤالك حتى تتأكد تماماً. أما الآن فدعونا نضع خطتنا للتحرير.

***

في قصر الملك بدأ الحاخام (سام) يتحرّش بابنة الملك (ليئات) التي كانت غافلة عن تصرفاته، فلقد كان حديثه عن الدين والقداسة والطهر آخذاً بلبها. وظل (أفلاطون) غير راضٍ عن تلك العناية التي يوليها (سام) لـ(ليئات) وذهبت محاولاته في منع ذلك عبر التلميح الدائم للملك أدراج الرياح!! أما (بيني) فقد كان يكره الكاهن لأنه كان يراه سبب اعتزال معشوقته (ليئات) وانسحابها من بهارج الحياة فضلاً عن أنّه لم يكن يصدّق طهره وقداسته، ولطالما حدّث والده (بيرس) بهذه المشاعر، لكن (بيرس) كان يصدّه باستمرار.

أما (أم خولة) فقد قبلت واقتنعت ببقائها عدة أيام في دار (أبي شهيد) لحين انتهاء مهمة (شهيد). كانت و(أم شهيد) تقضيان ساعاتهما بين البكاء والدعاء. أما (مصعب أبو شهيد) فلم يكن يدخل المنزل إلا في ساعات الليل المتأخرة، ثم يغادر في الصباح قبل أن يراه أحد. كانت الساعات والدقائق تمر عليهم ببطء شديد. وبثقل لا تُحتَمَل وطأتُه لولا أنه العزاء الجميل، والصبر الجميل، والأمل الذي يحيون عليه.

***

اختطاف الحارس والتحقيق معه لم يفدهم بأية معلومة، فلم يكرروا مع غيره حذراً من لفت انتباه (القصر)، واستطاع (أبو البشائر) أن يحدد لهم موعد الرحلة وساعة سفرها بالضبط، فمضوا في خطتهم على بركة الله.

قبل يوم واحد من موعد الرحلة، وفي الصباح جلس (شهيد) و(محمد) في منزل الأخير يراجعان الخطة، فدخل عليهما (نضال) شقيق (محمد) الأصغر وكان ابن الخامسة عشرة من العمر.

– (شهيد)[لنضال مازحاً وقد أحبا بعضهما في هذه الأيام القلائل]: هيه يا صاحبي بعد أن تصبح مهندساً كبيراً.. هل ستبني لي بيتي وزوجتي دون مقابل؟.

لكن (نضال) فاجأهما:

– (نضال): أرجوك يا (شهيد) خذوني معكم. إني أجيد السباحة والقتال، ولستم أكثر حباً (للواحة) مني....

– (محمد): أكنت تتنصت علينا؟! كم مرة قلت لك.. لا تدخل أنفك في شأن الكبار [وقام ليضربه].

هرب (نضال) باتجاه (شهيد) محتمياً به وقال لأخيه:

– أنا لا أتحدث معك، إنما أتحدث مع صاحبي (شهيد).. لماذا تظن أنك أبرع مني في القتال؟! كم تزيد عني في العمر؟! هل تبارز؟!

ابتسم (شهيد) وقال ل(محمد) [مازحاً]:

– هو يتحدث معي.. وما علاقتك أنت؟! لا يا صاحبي.. لست أشك ببراعتك القتالية، ولكن ليس من اللائق أن تهزم أخاك الكبير!!

[كان محمد يهز رأسه مبتسماً معترضاً على هذا المنطق!!] وأكمل (شهيد):

– ثم إننا ندخرك لمرحلة قادمة. نحن نكفيك هذه الجولة فاستعد للقادمات.

– (نضال)[مسروراً]: هل هذا وعد يا صاحبي؟!

– (شهيد): نعم. هذا وعد.

– (محمد): حسناً، تدرّب جيداً وعندما نعود إن شاء الله سنرى من سيصرع من؟!

في هذه اللحظات دخلت (أم محمد) وهي تدعو للفرسان، وتسأل الله أن يوفقهم ويحفظهم ثم قالت:

– (أم محمد): أتدري يا (شهيد)؟! منذ ثلاثة أيام وأنا أرى هذه الرؤيا كل ليلة..

– (محمد وشهيد): خيراً إن شاء الله!!

– رأيت أني أنزع من قلبي أربع نخلات أعطيك الكبرى منها أولاً فتأخذها، ثم أعطيك الصغرى فالأكبر فالأكبر، فتأخذ أنت الثلاثة الأخيرات فتزرعها في أرض جميلة مزهرة، تزرع الصغرى أولاً ثم الأكبر فالأكبر، فيما تبقى النخلة الكبرى التي أخذتها أولاً معك.

– (محمد): خيراً يا أماه.. النخل خير وبركة.. والزرع جميل.. إنها رؤيا خير إن شاء الله.

أما (شهيد) فقد دمعت عيناه وصمت.. وكذلك (أم محمد) صمتت.. فكأنهما فهما تأويل الرؤيا؛ فلقد كان (لأم محمد) أربعة أولاد أكبرهم محمد وأصغرهم (نضال)، فهل ستهبهم كلهم للجهاد والمقاومة والثورة؟! وما هو تأويل الرؤيا بالضبط؟!

نام (شهيد) و(محمد) في ساعات الظهيرة فأمامهما مهمة دونها همم الجبال!!

خرج الفرسان الأربعة بعد العصر من دار (محمد) مع دعوات (أم محمد) وانتظار (نضال) الواثق لعودتهم. وصلوا شاطئ البحر في الشطر الشمالي مساءً، وركبوا القارب الصغير الذي كانوا قد أعدوه مسبقاً. كانت حساباتهم تشير إلى أنهم إن أبحروا طوال الليل بنفس مسار السفينة (الهدف) التي ستبحر في صباح اليوم التالي، ثم واصلوا إبحارهم فإنها ستلحق بهم مع ساعات المساء في عرض البحر، وساعتها سيختفون عن أنظارها ويبقى (محمد) في القارب بينما ينزلون منه سباحة باتجاه السفينة،

فيتعلقوا بها حتى إذا انتصف الليل هاجموها وحرروا (خولة)، أما (محمد) فسيظل يقترب نحوهم ببطء محاذراً أن يراه أحد، وإذا أصبح الصباح دون أن يعودوا فإن ثمة خللاً ما قد حدث وما على (محمد) حينها إلا أن يعود وحده.

اقتات الفرسان طوال تلك الرحلة على التمر والماء فقط. كانت رحلتهم سهلة و لم تلفت نظر أحد، فقوارب الصيد يمكن أن تتواجد في البحر بمثل تواجدهم فلم يثيروا شك أحد، خاصة وأنه لم يحدث مسبقاً أي هجوم من البحر أو فيه، بل إن شطر المدينة الشمالي آمن كل الأمن. وعلى هذا فلم يكن يدور بخلد أحد من الغزاة أن معركة هامة ستحدث في البحر!!

تأخرت السفينة عدة ساعات فغادرت الميناء مع ساعات الظهيرة لا في الصباح كما كان مقرراً، وذلك بسبب تأخر (خولة) في تجهيز نفسها، حيث استطاعت أن تسرق سكيناً من مخدع الجاريات أخفته في ثيابها، ولقد ظلت تتلكأ حتى تمكنت من ذلك. أما وفدها المرافق فقد زاد خمسة حراس فأصبح خمسة عشر حارساً، وعشرين مرافقاً من رجال المملكة الاعتباريين..

حلّ المساء وفرساننا في عرض البحر:

– لا يبدو للسفينة أي أثر؟! يا إلهي!! هل تأخروا هم أم تأخرت هي؟! هل ضلوا الطريق؟! هل خانتهم حساباتهم؟! ما الذي يحدث؟!

– (ليث): لقد بذلنا في عالم الأسباب كل ما يمكن أن يبذله بشر من جهد، وليس لنا إلا الثقة بالله. اصبروا وتجلّدوا فلئن كان الله قد كتب لنا

النجاح فسيصلون وسننجح، وإن...

– (شهيد): لا تكمل يا (ليث).. بإذن الله سننجح.. حتى لو وصلنا الإمبراطورية، وأنقذناها من فم التمساح، لن يضيعنا الله ولن يضيعها.. أنا واثق أن (خولة) ستتحرر إن شاء الله. سنحررها بإذن الله.

– (إبراهيم): الأرجح عندي أنهم لم يتقدموا علينا... وظني أن موعد رحلتهم تأخر قليلاً لسبب لا نعرفه.. وفي الرحلات المهمة كهذه لا تتبدل المواعيد إلا للطوارئ، ولساعات عدة لا أكثر، وهذا ما أظنه.

– (محمد): إذن سيصلون بين لحظة وأخرى.

بعد أن كادوا ييأسون، وعندما انتصف الليل شاهدوا خيال سفينة.. تأكدوا أنها هي.. هللوا واستبشروا. نزل (شهيد) و(ليث) و(إبراهيم) من القارب وسبحوا باتجاهها. اقتربوا منها وتعلقوا بها حتى إذا اطمأنوا إلى نوم ركابها بعد هدوء الحركة على ظهرها قرروا الصعود لتنفيذ مهمتهم المستحيلة.

في تلك اللحظة وقد جاوزت الساعة منتصف الليل بساعتين. كانت (خولة) قد بدأت بتنفيذ خطتها للهرب. طلبت من حارسها الداخلي كوب ماء فلما ناولها إياه –وكان بين اليقظة والنوم– سحبت ذراعه وراء القضبان ثم لوته وطعنته بخنجرها في رقبته، حتى إذا تأكدت من موته أخذت مفتاحه، وفتحت زنزانتها وخرجت. شعر الحارس الخارجي بحركة في الداخل، فما كاد يدخل حتى بادرته (خولة) وقتلته إذ اختفت وراء الباب وهاجمته. سمعت (خولة) صوت جلبة بسيطة في الخارج فالتفتت حولها فوجدت صندوقا طويلاً للملابس ففتحته واختبأت فيه.

وجد الفرسان الثلاثة خمسة حراس مستيقظين فبارزوهم وصرعوهم، ثم جابوا السفينة بحثاً عن الباقين الذين وجدوا معظمهم نائمين فأجهزوا عليهم. نقّبوا السفينة كلها وتأكدوا أنه لم يبق فيها أحد من الغزاة على قيد الحياة. لقد قتلوا خمسة وثلاثين رجلاً. ولكن أين (خولة)؟! الزنزانة فارغة.. وهناك جنديان صريعان عندها. أدركوا أن (خولة) قد قتلتهما وفرّت:

– ولكن.. أين ذهبت؟! بل ما الذي يضمن أنها موجودة أصلاً؟ هل هذه هي السفينة المطلوبة؟! كل المؤشرات لديهم تشير إلى ذلك.. ولكن أين (خولة)؟! يا إلهي.. هل أصابها مكروه؟! هل قفزت في البحر؟ ماذا نفعل؟!

عاودوا البحث من جديد دون جدوى.. أوشك الفجر على البزوغ.. أخذ (شهيد) ينادي بأعلى صوته:

– (خولة).. (خولة).. أين أنت يا (خولة)؟! لقد جئنا لإنقاذك؟! هل أنت هنا؟! ردي علينا.. (خولة).. أين أنت؟!

سمعت (خولة) الصوت لكنها اعتقدت أنها خدعة من الغزاة:

– لقد اكتشفوا فرارها وقادهم حدسهم أنها ربما لازالت على ظهر المركب فلجأوا إلى هذه الحيلة السخيفة؟! ومن هذا الذي سينقذني في وسط البحر؟!

قررت (خولة) أن تبقى مكانها حتى مساء اليوم التالي، ثم تفر سباحة عندما تتأكد من نومهم.

أوشك الفجر على البزوغ. إن الوقت يدركهم.. فلربما واجهتهم سفن أخرى... إذا غادر (محمد) قبل وصولهم فإن عليهم أن يرجعوا سباحة وهو أمر شاق صعب، فإنهم منهكون من الإجهاد.. عليهم أن يتلفوا السفينة كي تغرق.. ولكن (خولة)..!! ماذا بشأن (خولة)؟!!

– (شهيد): كيف سنغرق السفينة.. ونرجع دون (خولة)؟! كيف؟!

– (إبراهيم): الوقت يداهمنا.. لربما تكون (خولة) قد فرّت قبل وصولنا.

– (ليث): دعونا نفكّر.. لقد وجدنا جنديي حراستها مقتولين.. وظني أنهما لو قتلا باكراً لانتبه بقية الحرس، وعلى هذا فأرجح أنها اختارت نفس توقيتنا للهجوم.. ألم تلاحظوا طوال الفترة السابقة أنها كانت تفكّر بنفس طريقتنا؟ وكأننا خريجو مدرسة عسكرية واحدة؟!

– (شهيد): إذن أنت ترجح أنها آثرت الاختباء عندما سمعت ضجيجا في الخارج؟

– (ليث): ولكننا نادينا عليها فلم ترد.. ولو كانت موجودة لردت!

– (إبراهيم): إذا كنا نتحدث عن (خولة)، وانسجاما مع ما قلت ورجّحت يا (ليث)، فإنها ستتوقع أنهم اكتشفوا فرارها، فلجأوا إلى هذه الحيلة، ومن ثم فلن تخرج ليعتقدوا فرارها.

– (شهيد) يا لك من فتاة يا (خولة)!! فإن كانت لازالت هنا فكيف نخرجها؟! بل إني أشعر أنها هنا!

– (إبراهيم): تجوب السفينة كلها بأعلى صوتك وأنت تعرّف

بنفسك، وتذكر معلومات عن أهلها وأهلك لا يعرفها إلا أنت، وتقنعها أن هناك فعلاً من جاء ينقذها.. فلا أخفيك إن ما فعلناه يكاد يكون لا يصدّق!! ومن حقها ألا تصدق وتظن الخديعة في الأمر!!

نفذ (شهيد) ما طلبه (إبراهيم) بكل همّة.. كان صوته يمتلئ حرارة، وكان قلبه يقول له إنها لا زالت هنا..

لم تترك كلمات (شهيد) لـ(خولة) مجالاً للشك.. فخرجت وهي تكاد لا تصدق..!! لم يصدّق الفرسان أنفسهم عندما رأوها.. لقد ذهب عنهم كل التعب والإعياء.. وكان لقاءً رائعاً!!

لقد فاتهم موعد (محمد).. لا بأس. إن عليهم أن يعودوا سباحة.. أغرقوا السفينة.. وتعلق كلٌّ بخشبة، وسبحوا باتجاه الشاطئ.

عاد (محمد) وحده، ووصل الشاطئ مع فجر اليوم التالي.. وعاد إلى منزله وحده مع ساعات الصباح الأولى..:

– (أم محمد): لا.. لم يستشهدوا.. لم يصبهم مكروه.. سيعودون.. لا زال (لشهيد) دور سيكمله.. هكذا تقول الرؤيا!

– (نضال): لقد وعدني (شهيد).. وسيعود.. سيعود لكي يفي بوعده.

أما (محمد) فقد كان يبكي ظناً منه أنهم لن يعودوا.. لم يخرج (محمد) من بيته طوال اليوم، أما (نضال) فقد ظل خارج المنزل حتى إذا حلّ المساء دخل والحزن يملأ قلبه.

– (أم محمد): ادخل يا ولدي.. ادخل يا (نضال).. تأخر الوقت.

– (نضال)[مغرورق العينين]:سيعودون يا أمي...أليس كذلك؟

هزت رأسها بالإيجاب دامعة العينين، وأخذت بيده، وأدخلته.

وقبيل منتصف الليل طرقت باب الدار طرقات اهتز لها قلب (محمد) طرباً.. إنها طرقات (شهيد)... قام سريعاً من فراشه... وقام (نضال) و(حسام) و(ياسر).. وقامت (أم محمد).. كان البيت كله مستيقظاً.. فتح (محمد) الباب و لم يصدّق عينيه من الفرحة ...

الفرسان الثلاثة ومعهم (خولة)..

صاح (نضال)[الذي هجم على (شهيد) يعانقه]: ألم أقل لكم إنه سيعود.. لقد وعدني ولن يخلف الفارس وعده.

وكان لقاءً قلّ مثيله بين الأحباب. نام الجميع بملابسهم من الإعياء.. وفي الصباح عاد كلٌّ إلى منزله...

وعاد (شهيد) ومعه (خولة) إلى دار (شهيد)...

طرق الباب.. فهبَّ كل من في البيت.. إنها طرقات (شهيد)... لقد قال أنه لن يعود دون (خولة).. فهل فعلها؟!

فتح (مصعب أبو شهيد) الباب ووجد أمامه (شهيد).. وكانت نظراته تسأله:

– هل عدت (بخولة)؟!

هزّ رأسه بالإيجاب.. كبّر (مصعب) وعانقه بحرارة..ثم عانق أمه، وقبل يديها، ورأسها وقد استقبلته بالدموع... أما (خولة) فقد عانقت أمها وعانقتها أمها طويلا... لقد خرج زوجها(حسن) و لم يعد، أما (خولة) فقد عادت بعد أن كان احتمال عودتها بعيدا... بكت (خولة) وبكت

(أم خولة)... كانت تقبلها في رأسها ووجهها ويديها...إنها كل شيء لها في هذه الحياة... هذه الحياة التي طالما قست عليها...ها هي تبتسم لها الآن... وامتزجت دموع الفرح مع تسبيحات الحمد والشكر.

لأول مرة منذ الغزو يبكون من الفرح!! و لم يقطع لحظات صفائهم إلا صوت (خولة) يقول بكل ثقة وجرأة مع مزاح ظاهر:

– يا عمّاه.. لا يوهمنّك ولدُك.. ليس هو من عاد بي.. بل أنا من عدت به.. وليس هو من أنقذني.. بل أنا من أنقذته..

ابتسم (شهيد)!!! وضحك الجميع.. وكان يوم فرح قلّ نظيره...!

أما الغزاة فقد اعتقدوا أن السفينة غرقت.. وقد شاهدوا حطامها وبعض الجثث، ولشدّ ما أحزنهم ذلك حيث اعتبروا تلك الفتاة مصدر شؤم ولعنة عليهم، ولكنهم على أية حال قد تخلصوا منها. ووصل الخبر إلى الإمبراطور فلم يكترث كثيراً، وإن كان أسف بعض الشيء!

***

– (سلام): حينها يا عمّاه تزوج أبي وأمي ؟.. حدثني عن زفافهما كيف كان.

– (أبو البشائر): لقد كان زفافاً مميزاً يا بني كما كان أبواك مميزين. وكما أن أباك لم يكن كأي رجل، وأن أمك لم تكن كأية امرأة.. فكذلك كان عرسهما لا كأي عرس.

***

جاء (شهيد) يزف إلى أمه بشرى رغبته في الزواج من (خولة).. كادت تطير من الفرحة، وهمّت بأن تطلق زغرودتها لولا أنه وضع يده على فمها ومنعها!! ثم أخذ يقنعها بضرورة إخفاء الأمر عن الناس، وأنه سيكون زواجاً بالسر!! فلعلّ أحداً من الناس استطاع كشف هوية (خولة) يوم نُزِع لثامها حين اعتقلت، لذلك يجب ألا تظهر أمام أحد، وعليه فسيتم الزفاف على مستوى (دار أبي شهيد) وأم (خولة) فقط. وسيكون سكنهما في منزل (أم خولة) النائي....!!

اضطرت (أم شهيد) للاقتناع!!

حتى الفرحة المرتقبة التي انتظرتها طوال العمر تصادرها أجواء الغزاة!.. شعرت (أم شهيد) أن كل شيء قد تم الاتفاق عليه بين الجميع، وكانت هي آخر من يعلم ليكون دورها مباركة القرار فحسب!!

قبلت على مضض كل ذلك، وحاولت أن تعزّي نفسها بأن ذلك كله أمر مؤقت وأنهم سيعلنون العرس قريباً.

تم الزفاف في دار (أم خولة) التي غادرت المنزل ثلاثة أيام أمضتها في دار (أبي مصعب).. اتفق الفارسان العروسان على تأجيل الإنجاب حتى لا يعلم أحد بزفاف (خولة).. نجح (شهيد) في إقناعها بضرورة تجميد دورها في المقاومة في هذه المرحلة، غير أن أطرف ما في الأمر أنها ظلت لا تعترف ل (شهيد) بأنه من أنقذها!! بل هي من أنقذته!! فلولا أنها أشفقت عليه وردّت على نداءاته واستغاثاته وخرجت.. لما عاد إلى منزله.. إذ ما كان له أن يعود دونها... أما هي فكان بإمكانها الفرار وحدها!! و لم يكن (شهيد)

يعلّق على ذلك بأكثر من الابتسام!!

وبعد انتهاء أسبوع العسل وضع الفرسان استراتيجيتهم الجديدة المتمثلة بتصعيد المقاومة، والتعبير عن ذلك بالإعلان عن ميلاد «تلاميذ الفارس الملثم»....!

وتصاعدت أعمال المقاومة، وصار يظهر في النهار أمام الناس أكثر من «فارس ملثم» لا فارس واحد.. والتحق العشرات من الشباب بالثورة والثوار، واشتعلت أرض (الواحة) تحت أقدام الغزاة.. وعادت إلى أعاليها السامية معنوياتُ الناس.

أما الغزاة فقد كشروا عن أنيابهم، وأزاحوا القناع عن وجههم القبيح...

لم يعد الأمر فردياً أو نزوة عاطفية.. إنها ثورة شعب، فلا بدّ من كسر إرادتهم بكل وسيلة..

زادت إجراءات القمع من قبل جنود الاحتلال، وازداد تنكيلهم بالأبرياء والآمنين.. كانوا يردون على كل عملية بحملة اعتقالات ومداهمات واسعة تخرّب كل شيء تأتي عليه... وامتلأت السجون بالعشرات.. وأُعمل القتل اليومي في السكان الآمنين.. لم ينج منهم طفل ولا شيخ ولا امرأة.. بل كان يتسابق جنودهم أحياناً في إثبات جدارتهم أيهم يستطيع إصابة رأس صبي في حضن أمه من أول رمية سهم!! وعاش الناس في كرب شديد وضيق واسع!!

وتوّج الغزاة الغاصبون أعمال إرهابهم باقتحام عشرة جنود منهم أحد

مساجد (الواحة)، حيث باغتوا المصلين أثناء سجودهم، وقتلوا عشرين مصلياً بدم بارد.. ثم اشتبك معهم بقية المصلين بأيديهم وصدورهم العزلاء، واستطاعوا انتزاع سلاح أحد الجنود وقتلوه فيما فرّ الباقون... وهبّت (الواحة) كلها في جنازة مهيبة تودّع الشهداء الآمنين وتطالب الثوار بالانتقام والثأر. وأخذت (الواحة) تتميز من الغيظ وتغلي من الغضب:

– (شهيد)[متألماً حزينا]: يا للأبرياء الآمنين يا (خولة)!! إنّ عدوّنا قد ولغ في دمائهم.. وسائلنا في المقاومة محدودة.. نقتل جنودهم فيقتلون الأطفال والنساء والشيوخ!! نقاتلهم قتال الرجال فيقاتلوننا قتال الجبناء!! لا يمكننا الانتصار وكسب المعركة إن ظل سلاحنا بدائياً هكذا.. لا بد من نقلة نوعية..

– (خولة): منذ أسبوع وأنا أفكر بسلاحك الذي عكفت على تطويره.. قلت أنه بقيت أمامك ثغرة واحدة.

– (شهيد): نعم.. قوس متطور بعدة أوتار مشدودة، يحمل نصالاً متعددة، يمكنه رميها معاً بحركة واحدة فتنطلق في شتى الاتجاهات، لكنها ليست سريعة ولا بدّ لكي تؤدي أثرها القاتل أن تُرمى من مسافة قريبة جداً.. وأن تكون مغموسة بالسم..!! أي سلاح هذا وكيف يمكن استخدامه؟!

– (خولة): عندي الحل يا (شهيد)...!!

– ماذا؟ حقاً...؟ أسعفيني به يرحمك الله.

– على حامل سلاحك هذا أن يحمل معه شيئاً آخر... عليه أن

يحمل روحه في كفه بعد أن ينزعها من صدره.. أعني.. سيحمل سلاحك استشهادي يطلق نصاله وسط الجنود فيَقتل ويُقتل...

كان (شهيد) يصغي إلى (خولة) باهتمام وإصغاء شديدين... واصلت (خولة):

– المطلوب أن تغيّر شكل الأوتار بحيث تصبح على هيأة الدرع يلبسه (الاستشهادي) تحت قميصه، حتى إذا صار بين الجنود نزع فوّهة السم حتى يسيل على كل النصال فيطلقها بإرخاء الوتر. والنصال من مسافتها القريبة قادرة على جرح من تصيبه ومن ثم فسيقتله السم... أما الاستشهادي فأغلب الظن أن يفتك به السم الذي سيلامس جسده..

– (شهيد): هل نرسل أبناءنا للموت يا (خولة)؟!

– (خولة): بل للاستشهاد والحياة.. وهل نحن إلا مشاريع شهادة؟! تخيّل أيّ رعب سيصيب العدو حين يرانا نقتحم الموت ونهجم عليه.. حين يرانا نطلبه كما يطلب هو الحياة..

اقتنع (شهيد) بالفكرة تماماً.. وبدأ يعيد صناعة سلاحه الجديد.. أنهى صناعته ووضع مكان السم ماءً ثم جرّبه فكانت النتيجة مذهلة..

– (شهيد): الآن يا (خولة) يتوازن الرعب.. الآن يا حبة الفؤاد:

لا عدل إلا إن تعادلت القوى   وتصادم الإرهاب بالإرهابِ
لا رأي للحق الضعيف وإنمـــا   الرأي رأي القـــاهر الغلاّبِ

حمل (شهيد) سلاحه الجديد إلى دار (محمد) حيث (ليث) و(إبراهيم) و(محمد) بانتظاره هناك. طار الجميع فرحاً وتيهاً بالفكرة ورأوا فيها بداية

مرحلة جديدة.. وكان (محمد) صامتاً يفكّر:

– (شهيد): مالك يا (محمد)..؟! لم تعطنا رأيك! ألم تعجبك الفكرة؟! لماذا أنت صامت؟!

– (محمد): الآن أقول لك لماذا أنا صامت.. (نضال).. تعال.. ادخل..

دخل (نضال) وسط دهشة الجميع فقال له (محمد):

– هيا يا (نضال) قصّ على صاحبك رؤياك التي شغلتك منذ ثلاث ليال!!

– (نضال): رأيت أن أمي أخذت بيدي حتى سلّمتني لك يا (شهيد).. ثم إنك قبّلت جبيني وأخذتني بيدك، فأشرت إلى مجموعة من الجنود الغزاة.. وفجأة وجدتني بينهم.. و لم أدر ما حدث.. إلا أني سمعت من ينادي: فزت يا (نضال). لقد فزت يا (نضال).. فقمت مسروراً من نومي.. وتكرر معي ذلك على مدار ثلاث ليال.. لقد أوّلتها أمي أنك سترسلني للشهادة يا (شهيد).. وسأستشهد بعد أن أثخن في العدو الجراح.. هيا بالله عليك... إني في أشد الشوق لذلك...

دخلت (أم محمد) وهي تحمل ملابساً جميلة جديدة وقالت:

– متى يوم عرس (نضال)؟! لقد جهزت له لباس الزفاف؟!!

بكى (شهيد).. وبكى (ليث) و(إبراهيم).. وقال (شهيد):

– ستكون يا (نضال).. يا أجمل صاحب.. ستكون أول استشهادي يَهَبُ –برحيله– لشعبه الحياة كما يسقي به عدوه كأس المنون.. لله دركم

من أسرة مجاهدة..!! لله أنت يا (أم محمد) ما أعظمك من أم... ولن تهزم مدينة أمهاتها (كأم محمد).

حدد الفرسان الهدف في سوق (الواحة) الجنوبي أمام عيون الناس في وضح النهار وسط كتيبة جنود.. ودّع (نضال) إخوته.. وعانق (شهيد) بحرارة.. فيما قبّل (شهيد) جبينه. ثم قبّل (نضال) يد أمه ورأسها وعندما همّ بالخروج.. ودّعته أمه بالدعاء ثم قالت:

– لا والله يا ولدي ما هنت علي... وما تهون على أمّك يا فلذة كبدها.. لولا أنه الله.. وفي سبيل الله.. لولا حرية الأوطان.. امض على بركة الله وعين الله ترعاك.. ارفع رأسك ورأسي ورأس أحبابك أجمعين.. ولا تعد لي إلا محمولاً على أكتاف الرجال.. فلهذا اليوم أنجبتك وعندئذ سأطلق زغرودة زفافك يا عريسي الجميل.

عبس الخطب فابتسمْ وطغى الهول فاقتحمْ

رابط الجأش والنهى ثابت القلب والقدمْ

لم يتردد.. لم ينظر إلى الوراء... عينه في أفق الخالدين.. قلبه يحث خطاه.. واثق الممشى.. مطمئن الجنان.. وأمام الناس.. وسط النهار... نظر (لشهيد)و(أمه) نظرته الأخيرة وابتسم... ثم تقدّم وسط الجنود.. كبّر بأعلى صوت.. ونفذ المهمة:

سال السم.. وانطلقت النصال.. واهتزّ المكان... عشرة من بين ثلاثة عشر جندياً أصابتهم النصال على الفور... عاجله السم.. فاستشهد على الفور وهو يبتسم. أذهلت الصدمة كل الجموع:

سكان (الواحة).. لم يدروا ماذا جرى. من نجا من الجنود تساءل: هل هي صاعقة من السّماء.. أم جنّ على الأرض؟!!

بدأ الجنود الناجون بالصراخ بشكل جنوني.. سمع صراخهم آخرون كانوا قريبين..

حاول (شهيد) ورفاقه أخذ (الجثمان).. لكن مجيء الجنود اضطر الناس للانسحاب!!.

أخذ الجنود جثث قتلاهم إضافة إلى جثمان (نضال)..

وطارت (الواحة) بما رأت.. وما كادت تصدّق ما شاهدت أو سمعت.

في المساء ملأت جدران الحي أوراق تتبنى العملية من قبل (تلاميذ الفارس الملثم) –كتائب الاستشهاديين– وتوعدت بجيش من الاستشهاديين يقذف الموت في حلوق الغزاة المعتدين.

أصرّت (أم محمد) وابنها (حسام) شقيق (نضال) أن يكون هو الاستشهادي الثاني في اليوم التالي...

أراد (شهيد) من تتابع العمليات أن يصيب عدوه بالصدمة والرعب قبل أن يكتشف ما حدث، فنوى أن تكون العملية الثانية في اليوم التالي:

الصدمة والرعب... إنه أسلوبهم.. حسناً سنرى من سيرعب من؟! ومن الذي سيصاب بالصدمات...؟

في اليوم التالي.. تبع (حسام)... (نضال).. في نفس المكان.. وبنفس الطريقة ؟؟ وكانت حصيلة القتلى عشرة أيضاً...

– يا الله ما الذي يحدث في (الواحة)؟!...

ثم في اليوم الثالث يتكرر الأمر نفسه.. وتصرّ (أم محمد) ويصرّ ولدها الثالث (ياسر).. ويستجيب (شهيد).. ويتكرر ذات المشهد وبنفس الروعة.. وبحصيلة تقل عن أخويه بجندي واحد.. وهكذا قدّمت (أم محمد) أولادها الثلاثة في أيام ثلاث متتاليات.. قدّمتهم في سبيل الله من أجل (الواحة) وحريّتها.. وثأرا للأبرياء والآمنين.. وانتقاماً للرّكّع السجود.

أية أم... وأيّ أبناء؟!

إنه مذهب جديد في الحب.. لم يعتد عليه الناس!!

يضن الناس بأحبابهم أن يقترب منهم الردى فضلاً عن أن يرسلوهم لاقتحامه!!.. ولا يطيق الناس ساحات المنون أن تكون على مرمى بصر حبيب فضلاً عن أن يزرعوه بقلبها...!!

أما هنا.. فنحن أمام حب من نوع جديد... حب لا يتقنه إلا الكبار.. الذين يعلمون ويدركون ويثقون ويوقنون أنهم: يرسلون أحباءهم.....

للحياة إذ يموتون...

وللبقاء إذ يرحلون...

وللخلد في جنة الرحمن إذ يستشهدون...

فما أبلغه من حب... وما أعجبه وأعذبه !!!

بعد الضربة الثالثة شلّ تفكير الغزاة!! فتحصنوا في قلاعهم أسبوعاً كاملاً لا يخرجون منها!! وتنسمت (الواحة) لأول مرة منذ احتلالها شيئاً

من نسائم الحرية.. أسبوع كامل لم تُرهَق عيونهم برؤية جندي واحد. وأخرج الغزاة جثامين الشهداء الثلاثة بعد الضربة بيوم واحد.. أخرجوها من حصونهم بعد أن أخذوا ذلك السلاح الجديد –ما تبقى منه–.. رأوها لم تتحلل و لم تتعفن.. بقيت كما هي كأنها لازالت حية.. تنظر إليهم فتقذف في قلوبهم الرعب.. فاعتقدوا أن شياطيناً تسكنها وأنها مصدر شؤم.. فأخرجوها..

وزفت (الواحة) فرسانها الثلاثة في حفل مهيب... عرس لم تشهد له (الواحة) من قبل نظيراً..

ثلاثة أشقاء!! ثلاثة أبطال!! ثلاثة استشهاديين!! يا لأمهم العظيمة!!

خرجت (الواحة) عن بكرة أبيها في وداعهم الأخير تُودِعهم صدر الأرض الحنون التي عشقوا وأحبوا... كانت عيون الغضب والحب دامعة... وحناجر العزم والمضاء صادحة:

بالروح.. بالدم.. نفديك يا شهيد.

أما خارج (الواحة) فقد تطايرت الأخبار إلى المدن العربية المجاورة.. ووصل خبر خنساء (الواحة) إلى كل بيت.. وصارت (أم محمد) مثل الأمهات العظيمات...

أما الاستشهاديون الفتيان فصاروا حلية قصائد الشعراء.. ورموز الشباب العربي المعشوقة:

يا أرض جئنا للجهاد كتائباً ... تتسابق الأرواح والأعمـــارُ
فدوى لمجدِكِ يـــا أبيةُ كلُّنا ... وفداكِ نحن كتائبٌ.... ثوارُ

والله شـــاهد بيعِنا وعهـــودِنا ... وعـــلى خلاصِـــكِ أقسـم الثـوارُ
هي بيـــعةٌ للموت في أعنــاقنا ... و(المـوت في كنـف الإلــه فخارُ)
صفقـــاتنا بذل الدمـــا عنوانُها ... ثمنـــاً لتكتـــب بالدمـــا الأخبـــارُ
في راحة الكف التي بُسِطت هنا ... للمـــوت تَطـــلبُ تُخْـــزن الأسرارُ
من يفهـــم السرّ الدفيـــن لمُقْدمٍ ... بيـــن الممـــات وبينـــه أمتـــــار
حمـــل المنيّة فوق كَـــفٍّ مُتَيَّمٍ ... وتقـــدّم الإيمـــان والإصـــــرار
يا راحـــلاً صنـــع الحياةَ رحيلُهُ ... والمـــوت ثوبٌ يرتديـــه كبـــار
أمطـــارد الموتِ المخيفِ بروحِهِ ... الناس حيرى.. من صنيعـك حاروا
البـاحثون عـــن الحياة حياتَّهم ... بخيوطـــها تتشبـــث الأظفـــارُ
وإلى الدنـــا قد أخـلدوا واثّاقلوا ... لم يفهموك.. ومن صنيعك حاروا!!
لكنـــه يأبى.. ويبـــقى صـــامتاً ... والصمت درسٌ لا يعيـــه صغـــار
لـــن يفهـــم السـرَّ المـراد جوابُه ... إلا شهيـــد مقـــدم مغـــــــوار
مـــن رام فهـــماً أو جـــواباً شافياً ... فبمثـــل دربيَ تُفْهـــم الأســـرار
همم الصغار صغيرة كهمـومهم ... وعلى العظائـــم قـــد أصرّ كبـــار
لله درك مـــن شهيـــد صـــامت ... هـــزّ الأعـــاديَ صـــمْتُه الهـــدار

***

في هذه الفترة عكف الغزاة على إعادة حساباتهم:

– أي سلاح جديد هذا الذي بدأنا نواجه به؟! ما الذي يدفع شاباً بعمر الورد أن يلقي بنفسه إلى المنون؟! وبأي شيءٍ يمكن أن تعاقب رجلاً يريد أن يموت؟!

ولم يستطع الغزاة -حتى آخر أيام غزوهم- أن يفهموا أو يفسروا ظاهرة الشهادة؟!

ثم إن الغزاة ارتأوا اتخاذ الإجراءات التالية:

أولاً: زيادة قمع الناس وإرهابهم واستقدام مجموعة من الفيلة تجوب الشوارع لبث الرعب بين الناس. إضافة إلى قتل كل من يقترب من جنودهم أو يشكون به، هذا ثانياً. مع العمل، ثالثاً: على تخفيف وجودهم واحتكاكهم بالناس في ساعات النهار، ورابعاً: تكثيف العمل الاستخباري.

كان مشهد الفيلة يبث الذعر في قلوب الناس. فقرر (شهيد) ورفاقه نقل العمل الاستشهادي إلى شطر (الواحة) الشمالي حيث ينعم الغزاة هناك بالأمن الكامل.

لم يجد الفرسان صعوبة في العثور على استشهاديين، فقد صاروا يتوافدون بالعشرات، وحيث اطمأن الغزاة إلى أمنهم جاءهم ما لم يكونوا يحتسبون!!

استشهادي وسط جموعهم في شطر (الواحة) الشمالي... في قلب وجودهم حيث الأمن والأمان والدعة والراحة... ولأول مرة منذ احتلال (الواحة).. ثم يتبعه آخر بعد أيام.. ثم آخر...:

- يا للكارثة!! لقد تجمعنا من كل بقاع الأرض حيث الاضطهاد والخوف، لنقيم مملكتنا هنا حيث الأمن ووعد الرب!! فهل جئنا للموت؟! لقد هاجرنا بحثاً عن الحياة... وها هو الموت يلاحقنا حيث اعتقدنا أن

الحياة قد فتحت ذراعيها لنا.. ما الذي يحدث لنا بحق السّماء!!

ولأول مرة يذوق نساؤهم وأطفالهم وشيوخهم طعم الرعب والذعر.. الخوف الذي طالما أذاقوه لأهل (الواحة) على مدار ما يزيد على عشرين عاماً.. لأول مرة يتذكرون أن هناك شعباً قد قتلوه وشردوه واغتصبوا أرضه.. لأول مرّة يتساءلون:

– هل ما فعلناه صواب أم خطأ؟!

لأول مرّة يهتز إيمانهم بمبرر وجودهم على هذه الأرض.. ومن فقد مبرر وجوده.. فقد وجوده ذاته..!!

وفقد الغزاة صوابهم...!!:

كل بيت كانوا يشعرون أو يشكون أنه يساعد الثورة والثوار كان يُهدم بالفيلة أو المنجنيق حتى ولو على رأس ساكنيه.. وازداد القمع والقتل وكانت الثورة تتعاظم، والاستشهاديون يتزايدون..

وبدأ الملك (تيودور) يتحدث عن نوع من المقاومة لا يمكن إيقافه... وبدأ يوصي أعوانه بإعداد خطة للصلح.

أحد الاستشهاديين رأى رجالاً ونساءً حيث كان ينوي التنفيذ فتردّد فشكّوا به، فاعتقلوه، فاعترف تحت التعذيب على اسم (شهيد).. وهكذا أصبح (شهيد) المطلوب الأول لهم.... اعتقلوا أمه وأباه.. قلبوا عليه (الواحة) دون جدوى... وكان (شهيد) قد أعدّ عدّته لمرحلة الاختفاء الطويل!!...

***

في يوم تخرجهم من جامعة (الأحلام)... ودع (خالد) و(سعد) و(المثنى) و(حسن) و(علي) و(عزام) بعضهم... على أن يتواصلوا فيما بينهم بشكل دائم.. كان مطلوباً من كلٍّ منهم أن يبني في مدينته جيشاً مزوّداً بكل ما يلزمه استعداداً ليوم التحرير الأكبر. وكان على (خالد) أن يتنقل بين تلك المدن لمتابعة التطوّرات. وبالمقابل كانت أخبار (الواحة) تدخل كل بيت عربي، وصار (شهيد) رمزاً للعرب جميعاً لا (للواحة) فحسب.

أدرك الغزاة أن قوتهم العسكرية عاجزة عن وقف الثورة، فعرضوا الصلح على (شهيد).

نادوا على مسامع الناس أنهم يودّون التفاوض معه، وأنهم سينسحبون من بعض أجزاء (الواحة) ويتركون الحرية للسكان العرب كي يديروا شؤونهم بأنفسهم، وأن هذا الإنجاز قابل للتطور بشرط توقف أعمال العنف أولاً...

أطلقوا سراح (أم شهيد) و(أبي شهيد) مع عشرات من الأسرى كبادرة حسن نية...:

(شهيد)[في مخبأه الآمن في الجبال]: هذا استسلام لا صلح..

(إبراهيم): عندما بدأوا يذوقون طعم الهزيمة أرادوا أن يخدعونا بهذا الوهم، بهذا الفتات الذي يعرضونه.. سراب.

(محمد): يريدون إنهاء الثورة وتسليم السلاح، ومن ثم سينقضون علينا من جديد...

(ليث): علينا أن ننتهز هذه الفرصة فنكثّف هجماتنا عليهم.. إني أرى أن مواصلتنا ستجبرهم على انسحاب جزئي ولكن بدون شروط.. أعني قد نضطرهم للخروج من شطر (الواحة) الجنوبي دون مقابل.. وهذا إنجاز عظيم..

(شهيد): إني لأرجو ذلك والله... وأراه قريباً.. ولكن ما رأي الناس؟! هل منهم من ينخدع بما يدّعون؟!

(إبراهيم): الناس بسطاء ومساكين يا (شهيد).. هم كالعادة منقسمون.. لكن قسماً غير قليل منهم تعب وأرهقه الغزاة.. ويتمنى الراحة والدعة والهدوء.. لذلك فإنك تجد كثيراً من الراغبين بأن تضع الحرب أوزارها..

(شهيد): وهل هذا بأي ثمن؟!

(ليث): لكن الجيل الجديد من الشباب تملأ قلوبهم الثورة، وهم زادنا...

(محمد): علينا أن نصبر.. ونصبّر معنا الناس، والنصر صبر ساعة.. وسننجح إن شاء الله.. ها هي أموال إخواننا العرب تصلنا عن طريق (خالد)، فنعوّض بها من هدم بيته، أو ضاعت تجارته.. أو يحتاج علاجاً لمصاب... وهذا خفف عن الناس كثيراً..

(شهيد): إذا لم يجد الغزاة من يقبل بعروضهم الهزيلة، فسينسحبون دون شروط.. وسيتركون الشطر الجنوبي دون مقابل.. آمل ألا يجدوا بيننا من يقبل ما يعرضون.. آمل يا أصحاب!!

***

في هذه الفترة خفت زيارات (أبي البشائر) لـ(أفلاطون) كثيراً، بل إنها انقطعت تقريباً، بسبب حدة الأحداث، وفي آخر تلك الزيارات، كان (أفلاطون) غاضباً:

(أفلاطون)[بحدة]: أية ثقافة هذه التي لديكم تغررون بها فتيانكم؟!! الجنة.. الحور العين.. ثم ينتحر وهو في عمر الورد فيقتل العشرات... أي عنف وإرهاب هذا؟!

(أبو البشائر): أظن أنكم آخر من يتحدث عن العنف والإرهاب.. ثم من قال لك أن الجنة هي دافع الاستشهادي..؟

(أفلاطون): تخدّرونه بهذا الوهم فيمضي بلا وعي.. ويمارس هذا الجنون.. كيف تغرسون في قلبه وعقله هذه الغيبيات.. يتزوج بسبعين حورية.. ما هذا؟!

(أبو البشائر): تخطيء المرة تلو المرة يا (أفلاطون)!! من قال لك إنه يفعل ذلك لينال الجنة؟! هو بإمكانه أن ينال الجنة بما هو أهون من ذلك بكثير:... يتزوج ويبني بيته فيدخل الجنة، يميط الأذى عن الطريق فيدخل الجنة، يبر بوالديه فيدخل الجنة، يحسن إلى الناس فيدخل الجنة، يكون ذا خلق حسن فيدخل الجنة.. يعيش طيباً خلوقاً فيدخل الجنة.. لماذا يذهب إلى الموت إذن؟!.. من السهل على نفسك ويريحها أن تقنعها بهذا الجواب: الجنة.. الدافع هو الجنة.. ولا تريد أن تبصر الحقيقة، ولا تريد أن تقرأ الإجابة الصحيحة... هو يفعل ذلك لأنكم قتلتم أباه وأمه.. وقتلتم أخاه وزوجته... وهدمتم بيته... لأنكم حولتم حياته إلى جحيم.. لأنكم

جرّعتم أهله كؤوس الذل والهوان.. كم مرّة يهان هو وأهله في اليوم.. كم مرة شاهد جنودكم وهم يتلذذون بقتل طفل رضيع.. وكم.. وكم.. ماذا تريده أن يفعل أمام إجرامكم هذا إلا أن يجعل جسده شظايا.. تقتل من أجرم فيه كلّ هذا الإجرام.. فَيَقتل ويُقتل...!! هل عرفت الآن لماذا يفعل فتياننا ذلك...؟!

صمت (أفلاطون) ولم يتكلم بحرف واحد.. وانتهى اللقاء.. حيث انقطعت اللقاءات بعد ذلك فترة طويلة.

أما (بستان) فقد حذرت (ليث) تحذيرها النهائي:

(بستان): اسمع يا (ليث)، بقي ثلاثة أشهر على موعد زفافنا، لم أعد أطيق هذه الحال.. عليك أن تختار.. إما أنا أو (الواحة).

(ليث) [مبتسماً]: أنت و(الواحة).

لا... أحدنا يا (ليث).

بل كلاكما يا (بستان).

تركته ومضت وهي غاضبة تقول:

إذن... (الواحة) يا (ليث)...!! لقد اخترت (الواحة)!!

***

في غرفة مخابرات القصر:

(فرودو): سنجعل هذا الـ(شهيد) الأحمق يندم على رفضه عرضنا.. سيعض أصابع ندمه على أنّه فوَّت فرصتنا الرابحة.. أنا أجد من يقبل عرضنا..

(ريمون): من؟! من يا (فرودو)؟!

(فرودو): (نبيل).. (نبيل وثائر)... أتذكرهما؟! أول مجموعة حاربتنا أيام الغزو الأولى... قبل أكثر من عشرين عاماً.. ثم اعتقلناهم...لقد أرسل لي (نبيل) عدة رسائل يود الحديث معي ويعرض استعدادهم لعقد صلح والعيش بسلام وتعايش...وكنا أقوياء و لم أجد حاجة للتجاوب فأهملت الأمر... إنهم الآن يائسون... ميتون.. نحن سننتشلهم من الموت.. سيقبلون أي عرض.. ولا تنس الرمزية التي كان يتمتع بها (ثائر)..

(ريمون): يا لك من رجل!! يا لها من فكرة!! كيف غابت عني؟! أحسنت! هيا نعد خطتنا بشكل جيد.

لم يصدّق (نبيل) نفسه حين طلب (فرودو) مقابلته. لقد كان يئس من ذلك بعد أن أهمل كل عروضه السابقة، إلا أن (ثائر) كان أقل انفعالاً في لقائه مع (ريمون).

بعد عتاب بسيط من (فرودو) لـ(نبيل) على مخالفته في الماضي أصول الصداقة، سامحه وتمنى أن تكون السنوات السابقة قد علّمته!! كان يضيّفه بكل ما لذ وطاب من الطعام والشراب.. ثم صار يخرجه رحلات خارج السجن ويعرفه على العمران والقوة التي أسسوها في شطر (الواحة) الشمالي.. وكان (نبيل) منذهلاً جداً بما يرى.. ثم إنه أخذه إلى حفلات راقصة وساهرة أطارت لبّه!! كان كل حديث (فرودو) عن التعايش والسلام وأن على سكان (الواحة) أن يسلّموا بالأمر الواقع فلا قبل لهم (بالغزاة)... و لم يكن (نبيل) بحاجة إلى إقناع كبير فقد كان أشدّ تحمساً

من (فرودو)... و لم يفت (فرودو) أن يجعل (نبيل) يقضي أوقاتاً مختارة مع حسناوات.. يختلي بهن.. حيث ينسى كل شيء!! حتى إذا اطمأن إليه بدأ يحدّثه مباشرة عن نيّتهم إخراجهم من السجن، وأنهم سيجعلونهم حكام (الواحة) الجدد(شطرها الجنوبي) وسيخلون لهم بعض المواقع.. والثمن: رأس المقاومة أو بتعبيره: إثبات قدرتهم في حفظ السلام والأمن ومنع العنف.. وأنهم سيزودونهم بما يلزم من مال وسلاح لتكوين شرطة قوية تتولى هذه المهمة... و لم يكد يصدّق (نبيل) ما سمع! ثم إنهم جندوا (نبيل) إلى صفوفهم وأقنعوه أن هذا ليس خيانة بل تجنيد لتعاون سياسي على أسس السلام والتعاون المشتركة، فهم لا يريدون منه معلومات، فهي تصلهم من أكثر من مصدر،إنما يريدون منه أن يسهّل مهمتهم وينفذ طلباتهم ويتعاون معهم في كل ما يطلبون. ووافق (نبيل) على كل ذلك. كانت المهمة الموكلة إليه إقناع (ثائر) وبقية الرفاق في السجن بعرض الصلح الجديد.

أما (ثائر) فقد كانوا معه أكثر حذراً حيث لاحظوا تمنّعه في مقابل تهافت (نبيل)، لكنهم أدركوا أنه الشخصية المركزية، وأنه وحده من يستطيع -برمزيته وشخصيته- أن يوقع معهم اتفاق الصلح. لذلك فقد حرصوا على أخذه إلى رحلات تريه مدى قوتهم وما وصلوا إليه من تقدّم ومصانع وعمران، وتركّز حديثهم معه على عبثية التفكير بحربهم وإنهائهم... وبدأ (ثائر) يقتنع كذلك أن (الواحة) وأهلها بل المدن العربية المجاورة كلها لا قبل لهم بالغزاة، وأن السبيل الوحيدة هي الرضا بالأمر الواقع وتقاسم الأرض والصلاحيات. ثم إن الغزاة استطاعوا إقناعهم أن هذا العرض هو

فرصتهم وفرصة (الواحة) الأخيرة وإذا ما ضيعوا هذا العرض وفوّتوا هذه الفرصة فلن يكون إلا السيف والدم والمجازر والإبادة، وسيكونون الخاسرين أفراداً وشعباً.

ولم يفت (فرودو) و(ريمون) وضباط مخابراتهم أن يقيموا اتصالاتهم مع بقية أفراد المجموعة (هاشم) و(عامر) والآخرين... حيث استطاعوا تصنيفهم جميعاً، فجنّدوا من جندوا منهم. وحذروا (نبيل) من (عامر) وتصلّب عقليته، وأن عليه ترويضه وتطويعه وإلا فلن يعتبرونه ضمن طاقم السلام والتعايش. بل سيعادونه كما يعادون (شهيد) ورفاقه. ازدادت قناعة (الغزاة) أن (ثائر) هو مفتاح الحل، وأن الجميع يدينون له، فرتبوا خطتهم على هذا الأساس.

وضعوا تفاصيل الخطة في القصر مع الملك (تيودور) ووزير الحرب (آلفونسو)، ثم عرضوا على (ثائر) ورفاقه فقبلوا مع بعض الملاحظات والمطالب الثانوية. كان واضحاً وطبيعياً أنها عملية إملاءات لا جولات مفاوضات!

وفي قصر (الملك تيودور) وبحضور أركان المملكة، إضافة إلى الأسرى العشرين رفاق (ثائر)، وفي حفل مهيب وقّع (ثائر) و(ريمون) بنود الصلح السرّي، لتعيش (الواحة) أيامها العجاف تأكل ما قدّمت لها أيامها العزيزات الشداد!!

***

– (سلام): عجيب يا عمّاه أن يطوّع الثوار بهذه الطريقة!!

– (أبو البشائر): النفس البشرية قد تستغرقها اللحظة الحاضرة، وما فيها من أوضاع وملابسات، وقد تغلق عليها منافذ المستقبل، فتعيش في سجن اللحظة الحاضرة، وتشعر أنها سرمد، وأنها باقية.. وهذا سجن نفسي مغلق مفسد للأعصاب في كثير من الأحيان..

– لكنها ليست هذه هي الحقيقة، فقدر الله دائماً يعمل، ودائماً يغيّر، ودائماً يبدّل، ودائماً ينشيء ما لا يجول في حسبان البشر من الأحوال والأوضاع: فرج بعد ضيق، ويسر بعد عسر، وبسط بعد قبض..

– ولكنهم انفعلوا باللحظة الآنية والثمرة العاجلة والموقف الجزئي.

– كانوا يعلمون يا عمّاه بأمر الثوار الجدد، وأنه لولا ضرباتهم لما التفت إليهم الغزاة، فلقد كانوا منسيين.

– حين عرض عليهم ذلك الصلح الهزيل يا بني.. كانوا مخيرين بين أمرين: أن يرفضوا فيخسروا هم لتكسب (الواحة) ويكسب المجاهدون.. أو أن يقبلوا فيكسبوا هم لتخسر (الواحة) ويخسر المجاهدون، فاختاروا الثانية.. وحشدوا لها الأعذار..

– وأي كسب هذا يا عمّاه؟! وماذا يجدي الذي خسر نفسه لو كسب كل الأشياء؟! ماذا يجديه؟.. لو كانوا رفضوا وما تعجلوا قطف الثمرة قبل نضجها.. لاضطر الغزاة للانسحاب دون شروط، وما تأخر مشروع التحرير ما تأخره.

– يا بني.. مشكلة بعض الناس من القادة أنهم يظنون أنفسهم نهاية

التاريخ. وليس مثل حكمتهم وخبرتهم في معرفة الخبايا وفك الطلاسم والمشكلات.. وأنهم إن انتهوا فسينتهي كل شيء..وما يدري هؤلاء أن القضايا الكبرى التي يتصدّون لعلاجها أكبر منهم فلا يقلّل من شرفهم وكرامتهم ومكانتهم أن يقتصر دورهم على الحفاظ على الراية مرفوعة فيمضون وهي مرفوعة لتواصل من بعدهم الأجيال، فالصراع طويل والقضية كبرى.. ولكنّها النفس الغريبة العجيبة يا بني..

– ألا إن في ذلك لعبرة لكل ذي لب.. ثم ماذا حدث يا عمّاه؟!

– هذا ما سنراه غداً بإذن الله.. فاستعد لفصل الرواية الأخير...

الفصل الثالث

محاكمة وانتصار

محاكمة وانتصار

مع إشراقة شمس يوم جديد وصل (سلام) معه حمامته البيضاء موعده مع (أبي البشائر). كانت أشعة الشمس أخاذة المنظر وهي تخترق أوراق الشجر المتشابكة فقال لها:

– أشعر أيتها الشمس أنك تعزفين معنا اليوم أنغام الحرية. أرى ذلك في تراقص إشعاعاتك الخلابة هنا وهناك... لم تكوني كذلك قبل عشرين عاما. كانت غيوم الغزاة تفرض عليك قيودها. أليس كذلك؟! كانت تحبس عن (الواحة) منك موجات الدفء والحياة... ولا تري الناس منك إلا وهج السموم !! أسيرة كنت مع (الواحة) أيتها الشمس.... أنت أيضا _ كما نحن _ مدينة لآبائي الذين فكوا من إسار المعتدين ضياءك! أرأيت... أرأيت... كم كانت تضحيات وعذابات وجراحات ودماء أبائنا عظيمة النفع والبركة على الحياة ؟! لقد منحونا أنشودة الحياة نسمع رجع تردادها على لسان الشجر والحجر، والشمس والقمر، والهواء والضياء كما ترددها الطيور ويرددها الناس... لقد أطربوا مسامعنا بأنشودة الحياة الحرة هذه كل يوم، حين اختاروا الحياة في ثوب الموت الدامي، وأبوا الموت في ثوب الحياة القانع.. ألا ما أكبر دينهم في أعناقنا أيتها الشمس الوضاءة !!

ألا ما أكبر ذلك الدين!!

في هذه الأثناء وصل (أبو البشائر):

– (أبو البشائر): السلام عليكم ورحمة الله

– (سلام): وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. كيف أصبحت يا عماه؟! إني لفي أشد الشوق لسماع تفاصيل الفصل الأخير من قصة (الواحة)... فهل أنت جاهز؟!

– (أبو البشائر)[مبتسماً]: كل الجاهزية يابني... قل لي أين وصلنا؟!

– (سلام): قلنا ياعماه: أن (ثائر) ورفاقه باتوا كالمصباح الذي قلّ زيته وجفت ذبالته، فإن لم يطفئه نفخ الريح أطفأه نفاد الوقود... فجاء الغزاة وانتشلوهم من القبر، وأوهموهم أنهم ينفخون فيهم الروح من جديد ويمنحونهم الحياة بعد الموت.... فرضوا بحياة الموت الفانية على موت الحياة الباقية... واختاروا الخبز المغمس بالعار على المبيت على طوى الأحرار..... وكان الثمن المدفوع رأس المقاومة... فتأخر مشروع التحرير، وكان ما كان!!

– (أبو البشائر): فإلى الفصل الأخير إذن يا (سلام).

***

استيقظت (الواحة) على صوت أهازيج وأناشيد وزغاريد وتهليلات تخرج من بعض بيوتها. خرج الناس بحثا عن التفسير؛ إنهم عشرون أسيرا كانوا محكومين مدى الحياة وأمضوا في السجن حوالي عشرين عاما (نبيل) و(هاشم)

و(عامر) وآخرون... قد أطلق سراحهم!! لم يصدق أهلهم وذووهم، من بقي منهم على قيد الحياة ما يرون!! كما لم يصدق أهل (الواحة) المشهد!! كبار السن يذكرونهم أما الصغار فقليل منهم كان يسمع عنهم... لكن سرعان ما طار الخبر بين الناس، وصارت تكثر الأحاديث عن بطولاتهم أيام الغزو الأولى، ونسبت لهم الأعمال الضخمة التي لم يقم بها أحد ولم يسمع عنها أحد!! وكان عملاء (فرودو) جزءاً من هذه الحملة التي ضخّمت تلك الأفعال!! وبدأ الأسرى المحررون عملهم الموكل إليهم بأسرع وقت، وكان (نبيل) منظّرهم الأكبر والأفصح، وأخذوا يحدثون الناس عن صلح يضع حداً لمعاناتهم وآلامهم وجراحاتهم، ويعيد البسمة من جديد إلى شفاههم التي أدمنت الكآبة والحزن، كما أخذ (نبيل) على عاتقه تجنيد أكبر عدد ممكن من شباب (الواحة) لينخرطوا في جيش شرطتها الذي سيستلم مهام الأمن والنظام. وكان كبار السن أكبر المتحمسين لإرسال أبنائهم لخدمة الوطن الحر!!

وفي غمرة السكرة بفرح الانعتاق نسي الناس –أو تناسوا– الأسئلة الأهم:

– لماذا يقدم الغزاة على هذه الخطوة؟! وما الذي ذكّرهم بهؤلاء الأسرى المنسيين حتى يسلموهم زمام الأمور؟! ثم أليس هذا هو الصلح الذي رفضه (شهيد) رمز (الواحة) البطل، وأخبر الناس أنه استسلام لا سلام فصدقوه... ما بالهم اليوم قد صدقوا (نبيل) وأمانيه؟! وما هو رأي (شهيد) فيما يحدث ياترى؟!

***

في مخبئه الآمن في الجبال الوعرة و لم يكن قد وصله ما جرى:

–(شهيد): تدرين يا (خولة)! ما كنت أعلم أني أحبك كل هذا الحب! بل أني كنت أحبك كل هذا الحب... حبا تزيده الأيام صفاء وتألقا.... لقد كانت (الواحة) وحريتها، والغزاة وإجرامهم قد شغلوا كل فكري وكياني حتى باتت أفعالي وأحلامي، بل وطعامي وشرابي، بل وحتى هوائي ونبض فؤادي.... كل ذلك بات مجندا لرسالتي التي نذرت لها نفسي.... غير أن مشاهدتي لك وأنت تؤسرين وقد كُشف القناع عن "الفارس الملثم" يومها... قد هدم السد الهائل فاندفع سيل الحب الدافق الذي ما كنت أراه أو أشعر به رغم أنه كان يملأ كل كياني.... وليس بسبب أنك "الفارس الملثم" الذي مرّغ أنف الطغاة في التراب، وهو ما لا أنكر أنه زاد من حبي وإعجابي.... لكنني اكتشفت أني أحبك لأنك (خولة) المرأة والزوجة... (خولة) المودة والسكن... (خولة) التي أصاب في مقتلٍ لحظُها الفتاكُ الفارسَ الذي طالما هزيء بالصعاب، وتحدى المخاطر والأهوال.

– (خولة)[بابتسامة الأنثى التي لا يرضي غرور جمالِها شيءٌ مثل وقوع الفوارس في شرك فتنته]: أما وقد اعترفت اعترافك هذا الذي وإن لم يضف للحقيقة شيئا كما أن غيابه لم يكن ينقص منها شيئا.... فلا بأس أن أقول: يختار الناس رسالتهم في الحياة، حتى أولئك الذين لا رسالة لهم فقد اختاروا أن يكونوا بلا رسالة أو اختاروا ألا يختاروا!! وربما يكون غريبا على فتاة –أية فتاة– أن تختار رسالتها في الحياة –كما اخترت– ذروة السنام فوق صهوات الجياد، غير أني أشعر بدماء أبي الشهيد قد

سرت في شراييني فإذا أنا أواصل رسالته التي نذر نفسه لها كأنني هو يا (شهيد)....

همّ (شهيد) أن يقاطعها فقال: ربما....

– لكنها قاطعته وأكملت: مبلغ حلم الفتيات –وأنا واحدة منهن– بفارس تهبه نفسها إذ يمنحها الحياة ودفأها، فإذا هو أبوها وأمها وأخوها وابنها، كما هو زوجها وشريك حياتها...... لا أنكر – ولا ينبغي لي– حاجتي الفطرية تلك كأية امرأة... لكن ما أروع يا (شهيد) أن يوفق الله المرء لأن يجند حاجته الفطرية من أجل رسالته التي اختار، فإذا الزواج وهو حاجتنا الفطرية التي جبلنا عليها خالقنا جزءٌ من رسالة الجهاد والمقاومة والتحرير، جزءٌ من فلسفة الصمود؛ يوفقك الله لاختيار من يشاركك رسالتك ثم تنشئون ناشئتكم في قلب الرسالة.

– (شهيد): ما أطيب وأكرم هذا الكلام على قلب حبيبك يا (خولة)... ووالله إنه ليمنحني من القوة والعزم والمضاء ما لا يقف عند حد حتى بلوغ الغاية... غير أني حسبتك وقد قررت الاعتراف أن تعترفي لي أيضا – كما اعترفت– أنك كنت تحبينني أيضا منذ زمن...!!

– (خولة)[وهي تبتسم بمكر]: ترى لو لم تكن (شهيد) الفارس، هل كنت تظن أني سأرضى الارتباط بك؟!

– (شهيد): وأيضا لم تعترفي...!! إذن أعلن الانسحاب من المعركة وأرفع الراية البيضاء! وضحك الاثنان كثيرا... وانتهى المشهد.

***

بعد عشرة أيام من خروج (نبيل) ورفاقه وصل فيها ليله بنهاره وهو يحشد لفكرة الصلح قلوب الناس وأيديها. جاء الموعد المتفق عليه. أُطلق سراح (ثائر) في مشهد احتفالي مهيب تم الإعداد له بحكمة حيث رافقه انسحاب الغزاة من ثلاثة حصون من أصل سبعة كانت منتشرة في شطر (الواحة) الجنوبي، وسلموها (لثائر) و(نبيل) وأهل (الواحة). كان مشهد الجنود المحتلين وهم يتركون الحصون التي بنوها على أرض الناس ومنازلهم المسروقة، كان مشهدا معبرا للغاية وخرج الناس في الشارع يحتفلون ويهللون ويهتفون بحياة (ثائر) ويرفعونه فوق الأكتاف. وتجند كثير من الشبان المتردد في صفوف الشرطة التي كان يقودها (نبيل)، وبدا الأمر للناس – أو هكذا حرصوا على إظهاره– وكأن (الواحة) قد تحررت، أو هي في الطريق إلى ذلك! وأن الحرب قد وضعت أوزارها أو أنه قد آن لها ذلك!! كان شوق الناس للحرية يفعل فيهم فعل السحر، أو فعل السكر! حيث يغيب العقل ويُقاد المرء بهواه الخداع!! مسكينة أيتها الشعوب!!

قال (ليث) وهو يشاهد هذه الاحتفالات والأناشيد:

ستطبّلون لفــرحةٍ مغشــوشة   وستخرجون لفرحة بحدادِ
سَتدوسُكُم نعلُ الذي لُذتُم بهِ   دوس الحوافرِ ناعمَ الأكبـادِ

وكانت هذه المرة الأولى التي أحس فيها أن لديه روح الشاعر، ويمكنه أن ينظم الشعر الذي طالما تذوقه وحفظ من أبياته الآلاف!!

***

في قصر الملك (تيودور) وفي حجرة الحاخام (سام) الخاصة حيث تتلقى (ليئات) ابنة الملك مزيداً من دروس الدين. يخدع (سام) (ليئات) ويسقيها الخمر حتى يسكرها تماما حتى كادت تغيب عن الوعي، ثم يغتصبها!!

كان (بيني) من أشد المغتاظين من (سام) ومن علاقة (ليئات) وتعلقها به، و لم يكن يرتاح لزياراتها المتكررة له، لذلك فقد اقترب من غرفة (سام) بحذر وأحس أن ثمة مكروهاً قد أصاب (ليئات) فقرر اقتحام الغرفة فإذا هو يشاهد (سام) في ذلك المشهد الرهيب!! تفاجأ الحاخام وحاول أن يصيح بوجه (بيني) ليخيفه!! لكن (بيني) كان قد أفقده المشهد صوابه، فاستل سيفه وهجم على الحاخام الذي حاول الفرار، فقتله، وهو يصرخ بكل جنون!!

أفاقت (ليئات) على المشهد، وأدركت ما حصل تماما! أفقدتها الصدمة قدرتها على النطق. لبست ثيابها وخرجت وهي تبكي. دخل الحرس وألقوا القبض على (بيني) وأودعوه السجن. وجنّ جنون القصر!!

الفارس الهمام (بيني) يقتل الحاخام (سام) فيعتقل ليواجه عقوبة الإعدام!! (بيريس) يكاد لا يصدق ما فعله ابنه:

– لماذا فعل ذلك؟! هذا المجنون قتل نفسه بطيشه!! الملك (تيودور) الذي يحب الحاخام بمقدار ما هو فخور بفروسية (بيني) وشجاعته تكاد الحيرة تقتله!! أما (أفلاطون) فقد كان مسروراً للتخلص من (سام)، لكنه كان حزيناً على مصير (بيني)، وأدرك أن وراء الأمر سرّاً ما!!

وكان (بيني) صامتا لا يتكلم.. يرفض الإجابة على أي سؤال يتعلق

بالحادث، فكل ما كان يعنيه ألا يجرح مشاعر (ليئات)....(ليئات) التي أفقدتها الصدمة القدرة على النطق مدة يومين وحبست نفسها في غرفتها أسبوعاً كاملاً تبكي... فسّرها أبوها بحالة حزنها الشديدة على مقتل الحاخام... مما زاد من تصميم الملك على الاقتصاص من (بيني)!! أما رجال المخابرات (ريمون) و(فرودو) فلم يعنهم الأمر كثيرا و لم يضعوه في حساباتهم أو على جداول أعمالهم.

في الجبال الوعرة الشاسعة، خرج (شهيد) ضيّقاً صدرُه، محبوسةً أنفاسُه، مشغولاً فكرُه بعدما وصلته أخبار (الواحة) الجديدة، وأنباء الصلح الهزيل الذي عرض عليهم مراراً ورفضوه حتى جاء من يقبل به!!...

وضع إصبعيه في فمه، ثم صفر فجاءه حصانه (الأشقر) يشق أشجار الغابة بكل خفة ورشاقة. ركبه بدون لجام ولا سرج، كما كان يحب، وبقفزة واحدة من على الأرض صار على ظهره، وانطلق به يسابق الريح ذهاباً وإياباً. وذلك بانتظار موعده –بعد قليل– مع أصدقائه الفرسان.

في تلك الأثناء كان (مهند) يجتاز إجراءات التفتيش الصارمة في القصر، ثم يدخل غرفة (فرودو) المليئة بالحرس:

– (فرودو): هات يا عميلنا النشط الجديد، ما هي آخر أخبارك؟!

– (مهند): كما قلت لك ياسيدي. لقد بدأت شكوكي تزداد في أن الشخص الملثم الذي أقابله هو أحد القيادات المقربة جداً من (شهيد). إنه يتكلم عنه بكل حرارة وإعجاب، ويذكر تفصيلاتٍ لا يمكن أن يعرفها إلا أقرب المقربين.

– (فرودو): عظيم.... عظيم.... يا(مهند).. قلت لنا أن خطتهم القادمة تتعلق بعملية احتجاز أسرى داخل القصر بهدف إجراء عملية تبادل للأسرى... وبما أنه طلب منك تجنيد أربعة عملاء آخرين لتنفيذ المهمة، فإن المطلوب منك الآن أن تخبره أنك عثرت على أحدهم، وهو من سيجند الباقين على اعتباره أقدم منك... [ثم نادى بأعلى صوتهٍ]: (طيّب) (طيب)... تعال يا (طيب)...

خرج (طيب) من غرفة جانبية... وسلم على (مهند) ثم قال (فرودو):

– اسمع يا (مهند)، يلزم أن تُقنع صاحبك الملثم بضرورة التقائه مع (طيب) مباشرة فلا يكفي أن تظل أنت حلقة الوصل.

– (مهند): ولكن ياسيدي.... لقد أصر علي (الملثم) أنه لن يلتقي مع سواي... أخشى أن يشك بي... ثم هل قصرت في شيء ما؟

– (فرودو): (مهند)... هل تريد أن نغضب منك؟! هيا أرِنا ذكاءك وإخلاصك. ليكن نجاحك في إقناع صاحبك هو الاختبار الحقيقي لك.

هز (مهند) رأسه ومضى.

– (فرودو): كما ترى يا (طيّب). مهمتك الأساسية أن تكشف لنا مدى صدق هذا من كذبه؛ هل هو يعمل معنا أم معهم؟! هل يخدعنا أم يخدعهم؟! حتى لو كان صادقاً معنا فلا زال جديدا ولا يمكن الاعتماد عليه في مهمة ضخمة كهذه، وقد اخترنا أذكى وأخطر عملائنا لهذه المهمة... مرحى لك يا (طيب). هذا اليوم يومك!

– (طيب): ولكن لماذا لا زلتم لا تثقون به تمام الثقة؟

– (فرودو): لقد جنّدناه حديثاً، مستغلين حاجته المادية حيث هو معيل أبويه المريضين، وقد وفّرنا لهما دواءً وعلاجاً غاليّ الثمن... لكنا مع ذلك لا زلنا لا نرتاح لـ (مهند) هذا كل الراحة... ثم إن المهمة ضخمة لا ينفعها إلا أمثالك.

وفي إحدى الأحراش التقى (مهند) مع (الرجل الملثم):

– (مهند): اسمه (طيب)... وقد طلب مقابلتك حيث هو أقدم مني وأقدر على قيادة العملية.

– (الملثم): وما رأيك أنت؟!

– (مهند): أظن أن اللقاء به سيكون مفيدا.

– (الملثم): حسناً. حدّد لي موعداً لي معه وقل له أني سأناقش معه تفاصيل الخطة وعليه أن يكون جاهزاً في اختيار مساعديه.

انتهى اللقاء وترك (مهند) المكان ثم غادره (الملثم) بعد أن اطمأن لسلامة الطريق.

وصل (إبراهيم) الفرسان الثلاثة الذين كانوا بانتظاره حيث (شهيد):

– (إبراهيم): السلام عليكم ورحمة الله.

رد الفرسان التحية:

– (شهيد): ماهي أخبار (المصيدة) ؟! هل التقيت (مهند)؟!

– (إبراهيم): أنا قادم من لقائه الآن... كل الأمور تسير كما رسمنا.

– (ليث): كلما كانت قطعة الجبن أكبر كان الاستدراج أنفع.

– (محمد): فإذا ما جوعنا الفأر أكثر كان تهالكه على الطعم أكبر.

– (شهيد): قديما قالوا: كن من احتيالك على عدوك أشد احتراسا من احتيال عدوك عليك. لذلك علينا مراجعة خطتنا وسد كل ثغرة نتوقعها فيها إضافة إلى دراسة كل الاحتمالات.

– (ليث): كم أحلم يا أخوة بذلك اليوم الذي نتمكن فيه من تحرير الأسرى. مئات العائلات سنحييها.

– (محمد): وسنثبت للناس الذين غشّى على عيونهم سرابُ الصلح، أن المقاومة هي من يحقق الإنجاز ويصنع التحرير، لا التسليم والاستسلام.

– (شهيد): أحسب – إن وفقنا الله ونجحنا– أنها ستكون ضربة مزدوجة نضرب بها الذين قطعوا الطريق على مشروع تحرّرنا.

– (إبراهيم): وستكون بداية نوعية وجديدة تناسب المرحلة الجديدة التي فرض على (الواحة) أن تحياها.

– (شهيد): ولا ينسينا ذلك كله ما اتفقنا عليه من وضع اللمسات الأخيرة على استراتيجيتنا القادمة في مواجهة المشروع الجديد. واصلوا جمع المعطيات، ودراسة التفاصيل حتى نخلص إلى التصور النهائي بإذن الله.

عاد (شهيد) إلى (خولة) وتحاورا حول العملية الجديدة التي أسموها: (مصيدة الفئران). وتبادلا الأفكار حول الاستراتيجية الواجب اتباعها في ظل المرحلة القادمة، غير أن (شهيد) حسم مع (خولة) مسألة مشاركتها العملية والمباشرة في الفترة الحالية:

– (شهيد): حتى لو استشهدت يا (خولة) قبل أن نرى أن وقت عملكن قد حان، فإني أثق أنك وبقية الفرسان قادرون على تحديد الوقت المناسب والظرف الملائم لتتحركن...

– (خولة): حسنا. نقبل أن نكون جيش احتياط يدخل المعركة في اللحظة الحاسمة ليضرب الضربة الحاسمة وأرجو ألا يطول ذلك.

في قصر الملك (تيودور). نزعت (ليئات) فجأة وبعد أسبوع من العزلة لباسها المحتشم، وخرجت من حبسها في غرفتها وعاد لها نطقها وبدت فتاة أخرى!! اندفعت بشدة إلى حياة المرح واللعب والخمر والمجون والغناء والطرب، وانغمست في بحر الملذات:

– (مادلين): رب ضارة نافعة يا (تيودور)!! لقد حزنت على (سام) قليلا... ثم ها هي تعود لشبابها ونضارتها وحيويتها وتنساه. علينا مكافأة (بيني) بدل عقابه!!

– (تيودور): هل أنت مسرورة لحال ابنتنا هذه؟!

– (مادلين): كل السرور يا (تيودور). انظر لها كيف تعيش شبابها الوردي كما هو حال بنات سنها، فضلا عن كونها أجملهن وأغناهن. حمدا للرب أن تخلصت من قيود (سام) الذي وأدها في خزعبلاته.

– (تيودور): أرجو أن يكون رأيك صحيحا يا (مادلين). ولكن انقلابها من النقيض إلى النقيض يخيفني ويقلقني.

– (مادلين): دعك من هذه الأوهام، واحرص على أن توفر لها كل ما تطلب وتحتاج.

لقد انقلبت (ليئات) رأساً على عقب، حتى ما تركت شاباً أو ضابطاً إلا وضاجعته!! لقد غدت (داعرة) بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، إذ انهار لديها كل مقدّس، وفقدت كلّ قيم الطهر والعفة!!

وكان من عجيب القدر أنها ضاجعت (ريمون) بعد أن أخذها إليه (فرودو) يتمتع بها كما فعل هو. ضاجعها (ريمون) وضاجعته وهو لا يعلم أنها ابنته، وهي لا تعلم أنه أبوها الحقيقي!!

في موعدهم في الأحراش:

– (الملثم / إبراهيم): أهلا بك يا(طيب). مواعيدك دقيقة. وحذرك جيد. لقد راقبنا الطريق جيّداً وتأكدنا خلوّه من راصدٍ يتبع حركتك.

– (طيب): لقد تعلمنا عند هؤلاء الأوغاد الكثير من وسائل الحيطة. لا تتصور يا... ياسيدي...

– (الملثم): [مقاطعاً]: بل قل يا أخي...

– (طيب): لا تتصور يا أخي كم كانت سعادتي بالغة عندما فاتحني (مهند) بالأمر. كم كنت أتمنى تلك اللحظة التي نتخلص فيها منهم ونغسل عارنا بأيدينا. وأحسب أن هذه حال كثير من الضحايا. وللعلم، اعتبر الثلاثة الآخرين الذين طلبتهم للمهمة حتى نصبح خمسة، اعتبرهم جاهزين.

– (الملثم): أنا واثق يا(طيب) أن رحم (الواحة) عقيم عن إنجاب الخونة، وأن (الواحة) لا تنجب إلا البررة من الأبناء. هو ابن حرام من يخونها يا (طيب).. أليس كذلك؟.. [وهو يحملق في عينيه].

– (طيب): [وبدون ارتباك]: بلى يا أخي... وإن كان ثمة من سقطة

ما فسرعان ما ننهض.. يردّنا الحليب الحر الذي رضعناه.

– (الملثم): حسنا هيا نراجع معا لم الخطة الأولية معا.

بعد أن أعطى (طيب) (الملثم) المزيد من المعلومات عن جغرافية القصر وطبيعة حراساته، رسم له الخطة الأولية التي تتحدث عن كيفية اقتحام القصر وطريقة احتجاز المختطفين وكيفية عرض الشروط والمطالب المتمثلة بإطلاق سراح جميع الأسرى، ومن ثم الآلية التي ستنتهي بها العملية بحيث تضمن سلامة الخاطفين وعودتهم سالمين كجزء من الصفقة. كان (الملثم) يشرح كل شيء بكل دقة وتفصيل، فيما كان (طيب) يصغي باهتمام عجيب.

– (الملثم): بالتأكيد تقول في نفسك أنها عملية مجنونة.

– (طيب): لا أخفيك يا أخي أنها عملية في قلب النار، وكلها مخاطر وصعوبات، وأعجب كيف اهتدى تفكيركم لهذا التخطيط الرائع... يا لكم من أبطال!

– (الملثم): هل أنت خائف؟!

– (طيب): لا. لا. أبداً... إنما أنا منذهل بعض الشيء، فهي المرة الأولى في حياتي التي أستمع فيها إلى مثل هذا الأسلوب في التخطيط.

– (الملثم): والآن. سآخذك إلى المنزل الذي اخترناه كنقطة انطلاق للعملية، ستحضرون إليه خمستكم كما اتفقنا وستكون هناك مفاجأه كبرى بانتظاركم.. قائدنا سيلقاكم هناك ليطمئن على تفاصيل الخطة ويودّعكم ليشد من أزركم.

– (طيب)[الذي لم يتمالك نفسه من الفرحة]: أحقاً.. أحقاً..؟! هل سيأتي (شهيد)؟! أقصد هل سننال شرف الاجتماع بالبطل الرمز (شهيد)؟!

– (الملثم)[الذي نظر بحدة إلى (طيب)]: أنا لم أقل (شهيد).. قلت قائدنا. والمعلومة عندنا لا تُعطى قبل أوانها، ولكني أؤكد لك أنها ستكون مفاجأة كبرى لكم وستكون سارّةً جداً. بشّر أصدقاءك بذلك.

– (طيب): سامحني يا أخي.. فلا تعلم كم هي مكانة (شهيد) في قلوبنا، وقلوب الناس جميعا.

– (الملثم): أعلم. ولهذا عذرتك ولعل الله سبحانه يكرمك برؤيته.. من يدري!!!

أخذ (الملثم) (طيب) إلى المنزل وأراه إياه من بعيد. كان منزلاً في طرف المدينة. كان آخر منازلها. وكان مكشوفاً حوله من ثلاثة جهات تحيطه الأشجار والأعشاب الكبيرة فيها. وكانت طريقة الوصول الوحيدة إليه هي من قلب مدينة (الواحة) وبين منازلها. ونقل (طيب) لـ (فرودو) كل ما حدث:

– (فرودو): رباه!! أي مجانين أولئك؟! أي مخطط هذا الذي يفكرون به؟! ويا لحذرهم الشديد!! إنه (شهيد)..بالتأكيد (شهيد) هو من سيودعهم... لقد وقع في المصيدة... كم سيسرّ (ريمون) وتسرّ المملكة كلها بهذا الصيد الثمين. ثم التفت إلى (طيب) وقال له:

– لقد أبليت بلاء حسنا ياعزيزي. وستكون مكافأتك كبيرة بعد

العملية. سنضع الخطة لاقتحام المنزل أثناء اللقاء بكم. وسيكون الوداع الأخير بحق. موعدنا بكم غداً لنشرح لكم تفاصيل الخطة.

وذهب (فرودو) إلى (ريمون) يبشره بأن (شهيد) قد بات في متناول اليد، وراجع معه خطته للقبض عليه.

***

كان من بنود الصلح الموقع ألا يحتك الجنود الغزاة بأهل (الواحة) احتكاكاً مباشراً مكتفين بالمراقبة عن بعد، وذلك في المناطق التي انسحبوا منها، في مقابل أن يحمي (ثائر) ورفاقه أمنهم فيمنعوا أية عمليات تستهدفهم، فإن نجحوا في ذلك فسيحصلون على مزيد من الإنجاز، وإلا فإن الغزاة قد يضطرون لمراجعة الاتفاق من جديد وربما التخلي عنه، وإعادتهم للسجن.

كان سلاح الشرطة وراتبها مصدره العدو! وكانوا يعدّون عليهم السيوف والرماح والنبال؛ يستلمونها من مخازنهم في النهار ثم يعيدونها – إلا قليلا– في ساعات المساء مكتفين بحمل الخناجر والعصي!

وكان أخطر ما في الأمر تلك الدورات التدريبية التي ينظمونها لهم؛ إذ يختارون وينتقون من الشباب الواعد –وفق مواصفات حدّدوها– من يعقدون له معسكرات تدريب خاصة في شطر (الواحة) الشمالي، تُغسَل فيها الأفكار – أو تُلوّث– وتتبدل القيم والمفاهيم؛ فالغزاة المحتلون هم الجيران الجدد الذي نتعايش معهم، والثوار المجاهدون هم الأعداء الذين

يسعون لتدمير الإنجاز والحلم بالحرية فليس لهم إلا السيف أو السجن! فإذا رافق التوجيه ما رافقه من تمتع بالنساء والشراب والترفيه والطرب، أدركت أيَّ جيلٍ سعى لصناعته الغزاة!! وأيَّ مستقبل ينتظر (الواحة) في ظل قيادة هؤلاء!! بل أدركت أي جرم أجرمه بحق هؤلاء الفتيان مَن أرسلهم ومن جندهم؛ لقد تجندوا كي يخدموا وطنهم الذي أحبوا فإذا حبُّ الوطن اليوم يعني أيَّ شيء إلا حبَّ الوطن، ومصلحةَ الوطن!!

مرّوا من أمام الناس في السوق بزيّهم الجديد، صفوفا تلو صفوف، وكان (ليث) يرقب ويشاهد فوجد نفسه ينشد:

وتجمّعوا وتصفّفوا واستعرضوا   فاستقبلوا أو ودّعوا وتـــــواروا
باسم الإله يحوطُهُم من حاسدٍ   عينا الحسـودِ يصيبُهُنّ عُـــوار!!
يا دارُ في هــذي الطـوابير التي   قــد صُفِّفت... ويـزمّر المزمـــارُ
رغم الوجاهة ذلٌّ ما قد أجرموا   في حقِّ شعبٍ هــدّه استعمـــارُ
فـــإذا محرِّرُه مـن استعمــارِهٍ   مستعمرٌ... وتبدّلـت أدوارُ!!!
من يحرس المحتلّ.. يحمي أمنه   مهمـــا تسمّى... خـائنٌ غـدّارُ
سمّوا الأمور على حقيقتها وإن   حذف الرقيبُ.. وأعدم الجزّارُ!!

***

في اجتماعهم المقرر:

– (شهيد): هل باتت أفكاركم ناضجة للعرض والنقاش... من يحب أن يبدأ؟!

– (محمد): الذي أراه يا (شهيد) أن هذا المشروع الاستسلامي إنما جاء ليقطع الطريق على مشروعنا التحرري، وبما أن آثاره كارثية على قضيتنا وشعبنا فإن الواجب يحتم علينا إسقاطه... نسقطه بتكثيف العمليات الجهادية ضد المحتلين؛ فإنما جيء بهؤلاء كي يحفظوا أمن العدو، فإن فشلوا فلا معنى لوجودهم... وهكذا نسقط هذا المشروع الكارثي، ونعيد القضية إلى مسارها الصحيح.

– (ليث): أشك في أن الغزاه سيتخلون عن حلفائهم الجدد! لأن البديل سيكون نحن، وهذا ما فرّوا منه.

– (محمد): قد فكّرت طويلاً في إمكاناتنا الحالية، وفي إمكانات الشرطة، وانبهار أهل (الواحة) بهذا التحرر الشكلي، فوجدت أننا لو استطعنا أن نتفق مع (ثائر) على أن نقاتل نحن ليستثمر هو بمزيد من الإنجاز والتحرر، فلربما نجحنا في إنجاز مشروع تحرّرنا.

– (ليث): أشكّ أيضاً في أنّ (ثائر) قادرٌ على ذلك، أو حتى راغبٌ به! لقد قام الاتفاق على أن يكون رأس المقاومة هو الثمن فلا مكان إذن للتصالح مع المقاومة أو التكامل معها. لقد اختاروا الطريق المعاكس لطريقنا، ولا أظن أن ثمة إمكانية للالتقاء!!

– (شهيد): ألاحظ أن أيّاً منكم لم يتعرض لخيار مقاتلة الشرطة أو استهداف بني جلدتنا... وهذا – والله– يشرح صدري ويثلج فؤادي أن أرى أن بوصلتنا برغم كل الضغط وتأزّم الموقف واضطراب الرؤى لا تخطيء هدفها، ولا تضل طريقها. فسلاحنا الطاهر لن يعرف له طريقاً إلاّ

إلى حيث الغزاة، ولن نحرف مساره مهما كانت الظروف، ومهما بلغ بنا الأذى والاضطهاد...

– (إبراهيم): وإلام قادك تفكيرك يا (شهيد). لم نسمع رأيك.

– (شهيد): بعد نقاشٍ معمقٍ بيني وبين (خولة) رأينا الآتي:

إن تكثيف العمليات سيدفع الغزاة لتعزيز صلاحيات (ثائر) ورفاقه، وسيدفعهم إلى مزيد من الانسحاب لا إلى التراجع عن الاتفاق؛ أي أننا بالعمليات لن نسقط الاتفاق التصالحي، بل سندفع العدوّ لمزيدٍ من التراجع والانسحاب ليقطف (ثائر) ثمرة جهادنا. وبما أن الدور التاريخي والواجب الشرعي والوطني المطلوب منا تجاه شعبنا هو تخليصه من الاحتلال. فإن علينا أن نكثّف عملياتنا الجهادية بهدف الدفع التدريجي للاحتلال عن أرضنا، وهذا هو دورنا التاريخي، وهذه هي مسؤوليتنا الكبرى تجاه قضيتنا الكبيرة، حتى لو أن (ثائر) ورفاقه هم من سيقطف، الثمرة ويُسجّل باسمه الانجاز. على أن علينا أن نوطّن أنفسنا على مرحلة قادمة من ظلم وأذى واضطهاد بني الجلدة نعضّ فيها على الجرح، ونكظم فيها الغيظ... حتى تنقشع الغمة.

– (ليث): يا لله يا (شهيد) ما أجمل هذا القول. إن هذا الاتفاق الذي فرّط بالحقوق، وأعطى الشرعيّة للغاصب سيسقط وحده، لأنه يحمل بذور فشله.

– (محمد): ما تقوله مقنع وجميل يا (شهيد) خاصة وأنه يقينا في مربع المقاومة والجهاد ومراغمة أعداء الله. لكن الذي لا أتصوره أبداً، ولا

يمكنني استيعابه أو تحمله، هو أن يُقدِم أحدٌ من بني جلدتنا على سجني وتعذيبي، وهو يظن نفسه يخدم وطنه الذي أسعى أنا لتدميره!! ثم أصبر على ذلك... والله إن هذا لعظيم...!

– (شهيد): هذا قدرنا يا (محمد). هذا قدر الكبار الذين تبلوهم الأحداث الكبار، فيخرجون منها أكبر وأنضج... سيرفعنا الله في ضمير الناس إذ يُسقِطُ الآخرين، وسيدرك شعبنا ولو بعد حين أن هؤلاء ما قادوه إلا إلى سراب. وساعتها سيعود شعبنا كله إلى خندق المقاومة وقد تعلّم من تجربته السابقة الكثير. وقد يسود الباطل حيناً ليشتاق الناس إلى الحق، حتى إذا انتزعوه وحصلوا عليه كانوا به أكثر تمسكاً، وعليه أكثر حرصاً، بعد أن ذاقوا مرارة غيابه.

– (إبراهيم):

متى يبلغُ البنيان يوما تمامه   إذا كنت تبنيه وغيرُك يهدمُ؟!

أحسب يا إخواني أن هذه المرحلة ستكون الأصعب في مسيرة تحررنا، ولئن وفقنا الله عز وجل لتجاوزها فإنا على تجاوز ما سواها أقدر حتى نبلغ الغاية بإذن الله. والآن وقد اتفق رأينا على هذا ما رأيكم بمراجعة التفاصيل النهائية لعملية (مصيدة الفئران) لعل الله عز وجل يجعلها باكورة عملنا المبارك في هذه المرحلة الحساسة.

***

كان الباب يطرق ولا يرد أحد:

– (أم شهيد): لماذا لا تفتح الباب؟! إلى متى ستُبقي الطارق يطرق ولا ترد؟!

– (مصعب أبو شهيد): وما شأنك بهذا يا امرأة؟.. إنه (ثائر) وهذه طرقاته البغيضة التي حفظتها.. يريد مقابلة (شهيد).. هذه المرة الثالثة التي يعيد عليّ طلبه ذاته... إني لا أطيق رؤياه.

– (أم شهيد): لماذا تصده يا رجل؟.. لعلّ في التقائه به خير (لشهيد)... ألا ترى حرصه على ذلك؟..

ثم إنها ظلت تلح عليه حتى أقنعته.... فتح (مصعب) الباب فدخل (ثائر) وأغلق خلفه الباب!

– (ثائر): هذه المرة لن أتركك تُبقيني خارج المنزل ثم تعيدني بخفّي حنين. أنا الآن ضيفُك، ولن أغادر من هنا حتى تعدني بتحديد موعد مع (شهيد). لن أتركك. أريد أن أقابله. [ثم وجّه كلامه (لأم شهيد)]. لعلي يا (أم شهيد) أحمل الخير له و(للواحة)... لو كنت أريد به أذىً لما جئت بابَكم طارقاً ولسلكت درباً آخر... ثم أنا على قناعة أنكم لو فاتحتم (شهيد) بالموضوع لما رفض، لأنه ببساطة إن لم يكسب فلن يخسر شيئاً.

وظل (ثائر) و(أم شهيد) يراودان (مصعب) حتى أقنعاه بعرض الأمر على (شهيد) ليكون هو صاحب القرار. قبِل (مصعب) ذلك على مضض وطلب بعض الوقت، حتى إذا تأكد من أمن الطريق التقى مع (شهيد) وعرض عليه الأمر وأخبره بأنه يكره ذلك لكن الأمر له. و لم يتردد (شهيد) في قبول العرض، وقد كان مطمئنا أنها مقابلة بهدف الاحتواء ولن يكون فيها أي كمين أو خدعة. هكذا هي شخصية (ثائر) التي درسها حين درس تجربته الأولى. وتم تحديد الموعد وجاء اللقاء.

حضر (ثائر) مع (عامر)، وكان بانتظارهم في إحدى الجبال (شهيد) مع (ليث) ملثما. وبعد التعارف والتحايا والترحاب:

– (ثائر): أنا اسمي (ثائر)، والثورة في دمي، لكن الحياة أنضجت تفكيري وجعلتني أنظر إلى الأمور بواقعية. في أيام شبابي الأولى كنت مثلك: حالماً يتدفّق بالحيوية شبابُه، وبالثورة كيانُه. أرى أن بإمكاننا ببعض السيوف والنبال أن نلقي الغزاة في البحر... ثمّ إن عشرين عاماً من التجربة المرّة جعلتني أدرك أن صراعنا لا يحسم بالضربة القاضية، وأنّ المؤامرةَ أكبرُ منا. والرضا ببعض الحق خيرٌ من ضياع جميع الحق يا(شهيد).

– (شهيد): أنت تخلط الحق بالباطل يا (ثائر). لا أدري أفعن جهل –ولا أحسبك من الجاهلين–؟! أم عن عمدٍ مقصود؟! نعم. صراعنا لا يحسم بالضربة القاضية، لكن هل يعني هذا الاستسلام ورفع الراية البيضاء؟ وهل تعني الواقعية الرضوخ للواقع الصعب أم دراسته وفهمه بهدف مجابهته؟! وإذا كنا لا نستطيع إنجاز مشروع التحرير اليوم أنورِّث أبناءنا الهزيمة والاستسلام، أم نسلّمهم راية المقاومة قبل أن تسقط، ليواصلوا مشوار التحرير؟! وهل من لا يستطيع الزواج يحق له الزنا؟

– (ثائر)[مبتسماً]: إنها ذات شعاراتي التي كنت أرددها في شبابي يا (شهيد). لماذا تنفق عشرين عاما أخرى من عمرك حتى تتوصل إلى ما توصلت إليه. إني أختصر عليك الزمن وأعطيك خلاصة تجربتي. لقد خذلنا العرب وتركونا وحدنا نواجه الموت. ولقد أقام خصمنا مملكة مدججة بالسلاح والعتاد. تُقنِع مَن أنّ عملية هنا، وأخرى هناك يمكن أن تزيل هذه

المملكة الضخمة؟! كن واقعيا يا (شهيد) وحكِّم عقلك لا عاطفتك.

– (شهيد):

يقوى القويُّ بضعفِ مَن ضعفوا كما   يقسو الوِساد برقَّةِ الوسادِ

لا قويَّ إلا بضعيف، ولا كبير إلا بصغير، ولا طاغية إلا بذليل، والتبعية بنت الضعف ولن يولد الاستقلال إلا من رحم القوة. والهزيمة إنما تبدأ أولا من داخل النفس كما أن النصر –أولا– هو نصرها. وواقعية الضعيف ماديّاً يا (ثائر) في أن يبحث عن مكامن قوّته القليلة، ليضرب بها على نقاط ضعف خصمه القويّ حتى يُعيِّشَه في رعبٍ، دائم، وقلق مستمر يرى فيه أن ضريبة الاحتلال أفدح من أن يتمكن من دفعها فيرحل. أما إخوتنا العرب فإنهم خير مما تظن وستثبت لك الأيام أن دماء استشهاديينا وشهدائنا قد ضُخّت في عروقهم، وأن مقاومتنا تنضجهم على نار هادئة، وأن براكين الأخوّة، والنخوة، والعروبة، والإسلام في أعماقهم ستنفجر ولو بعد حين. ثم كفَّ عن تغنِّيك بأمجاد الماضي الثوريّة، وانظر إلى ما جنته يداك اليوم على شعبك: حوّلت نصف شعبك حارساً لأمن الاحتلال، وعيناً على نصفِه الآخر! تُرى هل يُعفي اللصَّ أنه كان في طفولته بريئاً؟ كذلك ماضيكم الذي لوّثتموه!!

– (ثائر): ها أنت لا تزال تتكلم في عالم الشعارات والأماني؟! لا زلت لم تخبر السياسة ودهاليزها، والذكاء والتدرج وحسن اقتناص الفرص. وحتى متى سننتظر إفاقة العرب من غفوتهم يا (شهيد)؟! هل هذا معقول؟! كن واقعياً...وانظر إلى دماء شعبنا التي تسيل... حتى متى؟! وما يحقنها إلا ما فعلناه؟

– (شهيد): وأين الواقعية والسياسة والذكاء في قبول ما عرضه خصمنا من صلح طالما رفضه شعبنا؟! وهل الواقعية أن نقبل كل ما يعرضون؟! إنّ ذلك يتقنه كل إنسان... فما أسهل أن تقول «نعم» حين يكون ثمن إل «لا» مرّاً علقما. وهل يفتخر طالب أو يحتفل ويباهي بأنه حصل على الرسوب بجدارة؟! كل أحد بإمكانه أن يرسب ويحصل على صفر!! إنما البطولة والجدارة أن تذاكر وتجتهد وتتعب متجاوزاً الأسئلة الصعبة فتحرز الشهادة. كان بإمكان شعبنا منذ سنوات أن يقبل ما قبلتموه اليوم من صلح هزيل عُرض عليه فدفع من التضحيات والشهداء ما دفع رفضاً له.. فهل ترى أن ما قمتم به واقعية وذكاء؟! وهل تحقنون دماء شعبنا باستسلامكم هذا إلا لتنتزعوا روحه، وتدفنوه في مقابر الأموات بلا حياة ولا كرامة؟

– (ثائر)[وقد بدأ يضيق ذرعاً]: يا(شهيد) ألا تؤمن بالمرحلية وسياسة الخطوة خطوة. (خذ وطالب)، وتدرّج في الوصول إلى الأهداف... ألا ترى ذلك؟!

– (شهيد): الخطوة المرحلية لا تتعارض مع الهدف النهائي بل تكون على طريقه مكملة له. وإذا كان هدفنا النهائي هو التخلص من الاحتلال فأين المرحلية في اتفاق يرسخ التبعية للمحتل ويربط كل ما هو عربي في (الواحة) بالغزاة: المال، والطعام، والعتاد... فبدل أن نسير في طريق التحرر والانعتاق نحن نرسخ التبعيّة يا (ثائر)... هذه هي بركات صلحكم....

– (ثائر): يا (شهيد) إنكم لا تعرفون قدراتنا وخبراتنا وذكاءنا ومهاراتنا في التفاوض، إن ما اكتسبناه من تجربة طول هذه السنين جعلتنا

نخبر هؤلاء جيداً. لذلك نحن قادرون على اختصار الزمن وتحقيق الانجاز، والوصول إلى الهدف بأسرع مما تظنون.

– (شهيد): ماذا لو كنت تبحث عن منزل في مدينة (الواحة)، ثم أخذت خريطة مدينة (الأمل) وسرت عليها... فهل يمكن أن تصل؟! إن السرعة والمهارة والذكاء والخبرة والجهد والتجربة، حينئذ لن تفعل شيئاً سوى إيصالك إلى المكان الخطأ بشكل أسرع!! إنك تبحث عن الحرية والتحرير في المكان الخاطئ وهيهات أن تصل!! الحرية والانعتاق ليس طريقها المفاوضات والاستجداء!

– (ثائر): امنحونا الفرصة يا (شهيد)... أوقفوا عملياتكم... ودعوا الأيام تثبت صحة رأينا أو رأيكم... امنحونا الوقت كي نثبت لكم أن مشروعنا صائب.

– (شهيد): والله يا (ثائر) –رغم غضبي الشديد مما فعلتم– لو كنت أعلم أن الفرصة إنما أمنحها لكم لفعلت، ولكن الفرصة التي تطلب إنما نمنحها للمحتل ونعطيها للغزاة... نحن وهم متقابلون وجهاً لوجه، وكل خطوة نتراجعها يتقدمونها هم، وكل مساحة نتركها يملؤونها هم.. وهو ما لن يكون، فلن ندعهم يلتقطون الأنفاس ليعاودوا الانقضاض.

– (ثائر): أهذا قرارك الأخير؟!

– (شهيد): أجل ولن نحيد قيد أنملة.. لن ينعم الغزاة بالأمن أبداً.

– (ثائر): قد افترق طريقنا يا (شهيد).. وستفرض عليّ ما لا أحب. عليك أن تفهم أني لن أسمح لأحد أياً كان أن يخرّب حلمي، أو يقف في

طريق مشروعي الذي أؤمن به... أفهمت يا (شهيد)؟ لن أسمح بذلك مهما كلفني الثمن.

– (شهيد)[مبتسماً]:

أتهدم أمّةً لتشيد فرداً على أنقاضها؟!.. بئس البناء!

ليكن التاريخ هو الحكم بيننا... وصدقني يا (ثائر) ستكتشف ولو بعد حين أن الغزاة يخدعونك وأنك سلكت الدرب الخاطئ. وأنك إن كسرت سيفك، وسيف شعبك فستكون من أشد النادمين حين تحتاجه وقد أحاطت بعنقك سيوف الغزاة... ستفقد سيفَنا الذي تريد كسره أحوجَ ما تكون إليه... وإن كان لي من نصيحة فأقول: حاول أن تكتفي بإغماد السيف لا كسره وإن كنت لا بد سائرا في درب المفاوضات:

فلا تخُض الحوارَ الصعبَ إلا وسيفك فوق طاولة الحوار

– (ثائر):احتفظ بنصائحك لنفسك... وسنرى ماذا ستفعل أنت ورفاقك الحالمون أمام زحف تيارنا الجارف الذي لن نسمح لأحد باعتراضه مهما كانت النتائج.

– (شهيد): قد علمت أن للحق قِبَلاً لا يولّي بِوَجهِهِ شطرَها إلا آحادٌ من الناس: يتقدمون إذ الآخرون يحجمون، ويقتحمون إذ غيرهم يتراجعون، وصلاةَ القتال يُصلّون إذ سواهم على أعتاب الظلاّم راكعون ساجدون.... ولكلٍّ وِجهةٌ هو مُوَلّيها... وقد اخترنا قِبلتَنا: (الواحة) والشعب، والأسرى والشهداء، والمقاومة والجهاد، والوطن والقضية والأمة... هذه قِبلتنا التي

نختار، وشطرَها نُوَلّي الوجه، لا نحيد، ولا نزيغ.... وأنت وقِبلَتَك التي تختار، ووجهَك وشطرَه الذي يُوَلِّي.

***

بعد انقطاع طويل عاود (أفلاطون) طلبه للقاء (أبي البشائر)، وبعد ترحيب واحتفاء قال (أفلاطون):

– (أفلاطون): ها قد بزغ فجر أمل لتعايش شعبينا يا (بشر). في داخلي سعادة لا توصف بهذا الصلح الذي تم عقده. إنه وإن كان ناقصاً ويحتاج إلى مزيد استكمال فإنه أرحم ألف مرة من ويلات الحرب التي اكتوينا بنارها في الفترة السابقة. (ثائر) رجل شجاع يحق (للواحة) أن تفتخر به. لقد اتخذ القرار الصعب في الظرف الصعب وتحمل مسؤولية شعبه باقتدار.

– (أبو البشائر): أترى ذلك حقا؟! أعني هل أنت مقتنع بما تقول؟!

– (أفلاطون): كل القناعة يا (بشر). ما الذي يريبك في قولي؟!

– (أبو البشائر): دعني أسألك سؤلا يا (أفلاطون). لا تجبني عليه. أجب نفسك بنفسك، نفسك التي يمكنك أن تخدع كل الناس إلاها... سؤالي لك: هل تشعر بالأمن الآن؟! هل أنتم الآن أكثر أمنا؟! هل تنام قرير العين في مأمن من مطاردة كابوس يؤرقك؟! هل تأكل لقمة هنيئة لا تجد فيها طعم القلق؟

اهتز (أفلاطون) من الداخل.. دارت في نفسه معركة حامية الوطيس:

– ما هذا الذي يقوله (بشر)؟! ما هذه الأسئلة؟! لطالما حدثت نفسي بها.. وكنت دائما أهرب من الإجابة. ها هو هذا العربي يضعني أمام نفسي من جديد...

لم يستطع (أفلاطون) الرد.. فأكمل (أبو البشائر)؟

– (أبو البشائر): هل يمكن للص أن يأمن يا (أفلاطون)؟! بإمكان اللص الذي سرق دارك وشردك منها.. بإمكانه أن يقتلك ويقتل أبناءك وجيرانك ويفتك بكل من له علاقة بك.. فهل هذا سيجعله آمنا؟؟... لا. سيظل خائفاً من أن حفيداً لك أو قريباً أو صاحباً سينتقم في يوم من الأيام... بإمكان اللص أن يملك كل الأشياء... لكنه لن يحصل على شيء واحد. شيء واحد هو في الحقيقة كل شيء... إنه الأمن. وقد قالوا: لا حياة لخائف!! وهب صاحب الدار تنازل –رغما– عن داره للسارق... هل يأمن؟ كلا. سيظل خائفاً من قدوم مظلوم لا يرضيه ما حصل فيثور فينتزعَ حقه الذي تم اغتصابه.. لن يأمن اللص إلا إن أعاد الحق إلى أصحابه.... ثم أترى تحالفكم مع (ثائر) استراتيجياً؟ لقد علمتني الحياة يا (أفلاطون) أن الباطل أرض مرجرجة مهتزة، وتيهٌ لا معالم فيه ولا نور، ولا يجتمع عليه أهله إلا لينصرفوا ويتفرقوا بعد حين، فأما الزبد فيذهب جُفاء وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض...

وظل (أفلاطون) مصغياً مطرقاً لا ينبس ببنت شفة. وشعر (أبو البشائر) بمقدار الهزة التي أحدثتها كلماته (لأفلاطون) فاستأذن بالخروج وخرج.

***

في بيت صغير في وسط (الواحة). الخائن المعروف (أبو دحيان) ينظر إلى أطفاله الصغار نظرات مودع، ثم ينظر إلى زوجته، ثم يصرخ في وجهها:

– مالك تنظرين إليّ هكذا؟! لا أملك إلا أن أذهب لمقابلته؟! سأنكر.. إنها إشاعات الناس.. إنهم يكرهونني... أجل سأذهب لمقابلة (نبيل) قائد الشرطة وسأنكر أني عميل... أتراه يصدقني؟! هل يمكنني أن أنكر؟!.. أم أنك ترين أن أعترف أمامه وأتوب...؟! مالك لا تردين [وهو يصرخ]: ردي أيتها البلهاء... ردي.. لقد فعلت كل ما فعلت من أجلك ومن أجل أطفالي الصغار... ألا تفهمين؟!!...

ثم لبس معطفه وخرج.. مر بجانب دار جارهم (أبي عبد العزيز) الذي طرق عليه الباب في ليلة شتاء باردة ثم أعطاه هذا المعطف الذي يلبسه الآن يقيه من البرد قائلا له بابتسام:

– حق الجار على الجار يا جار...

(عبد العزيز) الذي قتله الغزاة بسبب وشايته عنه يوم لاحظ تردد الثوار إليه فحاصروا منزله فقتلوه وقتلوهم.... إنه يلبس معطفه الآن... لكنه يشعر بالبرد.. يرتجف... من الخوف ربما... أو من وخز الضمير...!!!:

– لكنني لو لم أفعل ذلك أنا لفعله غيري... أنا ضحية مثله.. كلنا ضحايا... يا لشبابك الوضاء يا (عبد العزيز)... يا لدموع أمك وزفرات أبيك يوم العزاء وقد كنتُ أول المعزّين... الخبز المغمس بالذل الذي أطعمه أولادي خير من الجوع والفقر... خير من التسول والحاجة....

وصل (أبو دحيان) مقر الشرطة. أدخلوه إلى (نبيل) فجلس وقبل أن يسأله (نبيل) أي سؤال بادر بالقول:

– نعم هذا معطف (عبد العزيز) جارنا... وأنا من وشى به.. لكنني كنت مضطراً.. لو لم أفعل ذلك لمات أطفالي من الجوع... ثم إن غيري من العملاء الكثيرين كان سيقوم بنفس المهمة.. لقد أرغمت على العمل معهم... لقد أجبروني أنا مستعد...

فقاطعه [نبيلٍ]:

– (نبيل): اسمع... كل ذلك لا يهم... نريدك أن تعمل معنا بنفس الطريقة!!

***

بين الأشجار في ساعات المساء التقى طفل صغير في العاشرة من العمر مع (إبراهيم)، وأخذ يحدثه بهدوء، وبعد عشرة دقائق قضاها معه عاد الصغير إلى منزله. ذهب بعدها (إبراهيم) إلى (شهيد) وغيّروا بعض تفاصيل الخطة لعملية (مصيدة الفئران). وبعد يومين من ذلك. كان (طيب) و(مهند) والعملاء الثلاثة الآخرون في غرفة مخابرات القصر في ساعات الصباح الباكر يرسمون مع (فرودو) تفاصيل العملية التي سماها (المصيدة):

– (فرودو): كما ترون، وكما اتفقنا. لا مجال لاقتحام المنزل إلا من مكانٍ واحد هو من وسط المدينة لأن بقية الاتجاهات مكشوفة، لهذا اختاروا هذا الموقع الذكي. أما نحن فسنكون أذكى منهم. سيتخفى

جنودنا بزي عرب، ولن يلاحظ الناس أية حركة. سيدخل أربعتكم المنزل. أما (مهند) فسيبقى في المنزل الذي حددناه مع ضابطي مخابراتنا. يقوم (طيب) بتنويم (شهيد) ومن معه بوضع هذا المخدر في شرابهم، حتى إذا ما تمّ ذلك صعد إلى ظهر الحائط ورفع الراية البيضاء ومن ثم يقوم ضابطانا برفع الراية البيضاء من منزلهم، فيتقدم جنودنا لاقتحام المنزل واعتقال من فيه وهم نيام. وأنت يا (طيب) نعتمد عليك في مهمتك وعليك بداية أن تزيل شكوكهم حول تأخر (مهند) وأنه سيلحق بكم لاحقا.

وانطلق الجميع إلى منازلهم بانتظار التنفيذ بعد العشاء.

قبيل المغرب بقليل وصل (مهند) ومعه ضابط المخابرات بزي عربي إلى منزل قريب من منزل العملية. طرق الباب ففتحت له امرأة عجوز الباب فطلب كوب ماء، فلما ذهبت لإحضاره دخل الثلاثة المنزل الذي تسكن فيه العجوز وحيدة، ثم قاموا بتقييدها، وسدّ فمها بقطعة قماش، ثم جلسوا بالقرب من الشبّاك يراقبون المنزل المطلوب.

مع العشاء وصل ملثمان من الجبال وطرقا المنزل الذي فتحه لهما ثالث كان بانتظارهم:

– (مهند): بالتأكيد يا سادتي هذا (شهيد) ومعه قائد كبير.. لقد وقعوا في الشرك.

وبعد دقائق وصل (طيب) وزملاؤه الثلاثة. طرقوا الباب ثم دخلوا ومرت الدقائق بطيئة. وبعد نصف ساعة صعد على السطح من يرفع الراية البيضاء.

سُرّ الضابطان و(مهند) كثيراً، فرفعوا بدورهم الراية البيضاء، فبدأ الجنود بالتقدم، ولكن بحذر. وصلوا الباب، فطرقوه، ففُتِح لهم. دخل خمسة منهم ثم أُغلِق الباب.. لم يدر أحد من أغلق الباب ولماذا؟!!!

في تلك الأثناء كان (مهند) ينسحب من الغرفة دون انتباه الضابطين ليعود إليها حاملاً سيفاً مع ملثمين اثنين!!! وضع كل ملثم منهما سيفه في رقبة ضابط وقال (مهند):

– انتهت اللعبة... ياسادة.

– (أحد الملثمين): لا تتحامقا.. نريدكما أحياء. أية حركة تعني الموت. يداكما خلف ظهريكما وانبطحا أرضاً...

حاول أحد الضابطين أن يسحب سيفه، فعالجه الملثم، فقتله، ثم قالوا للثاني:

– هل تريد أن يكون مصيرك كصاحبك؟! اخرج معنا بهدوء.

فقرر الاستسلام، فأوثقوه جيداً، ثم خرجوا من المنزل بصحبة العجوز، واستقروا في مزرعة مهجورة قريبة كانوا قد أعدوها مسبقاً. أما المنزل الآخر فبعد دخول الجنود الخمسة وإغلاق الباب، سمع الجنود في الخارج صوت صياح وعندما همّوا بالدخول بدأت السهام تنطلق باتجاههم من مكان... ارتبكوا وتصايحوا وتنادوا بالتراجع فتراجعوا سريعاً عن رشق السهام، وقد قُتل وأصيب منهم الكثير. ابتعدوا عن مرمى السهام، وتقدمت مجموعات كبيرة من المنزل، وعكفت على محاصرته. خافوا من الاقتراب من حيث زملاؤهم في الداخل ولا يعرفون مصيرهم.

نادوا على سكان المنزل بالاستسلام فلم يرد أحد.... هددوا وتوعدوا دون جدوى.. وصلوا المنزل الآخر فوجدوا أحد الضابطين صريعا ولا أثر (لمهند) وللضابط الثاني، فجن جنونهم. أحضروا فيلين ضخمين من شطر (الواحة) الشمالي، فوصلا قبيل الفجر. ومع بزوغ الفجر قرروا اقتحام المنزل، وبدأوا بالاقتراب رويداً رويداً بحذر متسترين بالفيلة... حتى وصلوا الجدران فالباب، ثم اقتحموا وهالهم أنهم لم يجدوا سوى تسعة جثث، هي جنودهم الخمسة، وعملاؤهم الأربعة، فيما لا أثر لأي شخص آخر:

– يا للسماء!! أين ذهبوا؟! هل ابتلعتهم الأرض؟! اللعنة.. إنه أخطر كمين نتعرض له!! يا للهول!! كيف حصل ذلك؟! ولكن أين الضابط المتبقي؟! أين جثته؟! ألا زال على قيد الحياة؟! ولماذا تم الاحتفاظ به حيّاً و لم يقتل؟!

كان جنود الغزاة يملأون المكان، وفُرِض منعُ التجوال على كل الحيّ، وحضر كبار الضباط، حيث حضر (ريمون) و(بيريس) بنفسيهما للوقوف على تفاصيل هذه الكارثة:

– عشرون قتيلا وعشرة جرحى ومختطف واحد إضافة إلى عملاء أربعة صرعوا أيضاً، وذلك دون اعتقال أو قتل أحد من الخصم...!

– لقد كانت مصيدة حقاً... لكنها لنا لا لهم...!!

بعد التدقيق والتنسيق في المنزل اكتشفوا نفقاً تحته يمتد إلى ما يزيد على الثلاثين مترا. لم يكن يُحتاج إلى كثير ذكاء ليكتشفوا أن الفرار كان عن طريقه.

وصل الغزاة قبيل الظهر، ليجدوا أنّ مساجد (الواحة) التي لا تخضع إلى حظر التجوال قد علقت بها أوراق تتبنى اختطاف ضابط من جنود الغزاة يطالب خاطفوه بإطلاق سراح جميع أسرى (الواحة) مقابل إطلاق سراحه، وإلاّ فسيتم قتله. وإن المهلة أمامهم هي ثلاثة أيام.

جنّ جنون الغزاة، وبدؤوا حملة تفتيش واسعة في الحي، إذ توقعوا أن الخاطفين لم يبتعدوا كثيرا. طلب (فرودو) مساعدة (نبيل) الذي جنّد كل رجاله، حتى أخبرتهم امرأة عجوز بعد أن خدعها (نبيل) إذ أوهمها أنهم يبحثون عن عملاء معهم عجوز ينوون تدمير الحي وسرقته، فأخبرتهم العجوز أنها رأت عجوزاً مع أربعة رجال أحدهم مقيّد يدخلون إلى مزرعة مهجورة...

حاصروا المزرعة.. واستعدّ الأبطال للمواجهة.. قتلوا المختطَف وبدأوا برمي النبال. هاجمهم الغزاة بالفيلة وهدموا فوقهم المنزل فاستشهدوا ثلاثتهم مع العجوز.

نعى الفرسان العجوز وشهداءهم الثلاثة، وعلى رأسهم الشهيد (مهند) الذي ذهب لبيت عزائه (إبراهيم)، والتقى أخاه الصغير وشدّ على يده ووعده بالانتقام لأخيه البطل، طالبا منه أن يسير على دربه.... إنه ذلك الصغير الذي قابله بين الأشجار إذ أرسله (مهند) إليه حيث شعر أنه مراقب، فقد كان الغزاة لا يثقون به كثيرا، فأرسل أخاه الصغير ليخبر (إبراهيم) عن المستجد الجديد المتعلق بالمنزل الثاني، منزل العجوز الذي سيتمّ التحصن فيه، فما كان منهم إلا أن اتصلوا بها واتفقوا معها فاشتركت معهم في

العملية البطولية فاستشهدت كالأبطال. وكان الغزاة قد أخّروا كشف أمر هذا المنزل (لمهند) حتى الساعات الأخيرة لضمان السرّيّة، ووضعوا (مهند) تحت الرقابة الشديدة، إذ كانوا لا يثقون به تماما، لكن (مهند) والفرسان كانوا أذكى منهم.

واجتمع الفرسان بعد أيام يقيّمون العملية.

– (شهيد): الحمد لله على فضله. لقد كان نجاحنا نسبيّاً.

– (إبراهيم): يرحم الله (مهند). لقد كان رائعا منذ البداية، منذ بداية تجنّده للعمل معهم بطلبنا حتى لحظة استشهاده. لقد خسرنا فتىً وأي فتىً... يرحمه الله.

– (ليث): أظن أن الشق الأخير من الخطة كان فيه ثغرة ما.

– (محمد): كنا قد عزمنا على اختطاف أحد الجنود وتهريبه معنا من داخل النفق. لكن مستجد المنزل الجديد جعلنا نعيد حساباتنا.

– (شهيد): نغادر وحدنا عبر النفق دون وجود مختطفين أسهل علينا. العيون كلها ستكون متجهة لمنزلنا. سيكون انسحاب (مهند) وإخوانه مع المختطفين آمنا. المزرعة التي أعددناها كانت مناسبة. هذا ما ارتأيناه.

– (ليث): لكنّ ضيق الوقت الذي عدّلنا فيه خطتنا جعلنا لا نحسب أن كثيراً من سكان (الواحة) يمكن أن يستسهل تقديم المعلومات (لنبيل) وشرطته، وهو الأمر الذي ما كان ليقدمه للعدو. كان علينا أن نحسب جيدا الدور الجديد الذي بدأ يمارسه هؤلاء.

– (إبراهيم): وهكذا خسرنا شهداءنا الأبطال ولم ننجح في تحرير

الأسرى. لكننا على أية حال قتلنا من الغزاة الكثير، وكانت ضربة موجعة لهم.

– (شهيد): يرحم الله شهداءنا الأبرار. علينا استخلاص العبر. فطريقنا طويلة وصعبة. وقدّر الله وما شاء فعل.

وفي الجانب الآخر استدعى (فرودرو) (نبيل) وشكره عابراً على خدمته لكنه حذّره مِن أنّ عملياتٍ من هذا النوع قادمة ستعني أن مشروع حلفهم في خطر، فعليهم أن يثبتوا جدّيّتهم في حماية أنفسهم بحماية أمن الغزاة كما تعهدوا والتزموا!!

وقال (ريمون) (لفرودو) وهما يندبان حظّهما، ويستخلصان العبر:

– أي خصم ذكيّ شجاع هذا الذي نواجهه؟! لقد اعتقدت أنهم اختاروا العملاء لتنفيذ العملية، حتى إذا ما فشلت تكون خسارتهم محدودة! واضعين في اعتبارهم عدم الثقة الكاملة بهم. واعتبرت هذا ذكاءً، وحذراً منهم... لكنهم فاجؤوني للغاية... لقد استدرجونا تماماً... كانوا يعرفون كيف نفكّر... بل وجّهوا تفكيرنا، وجعلونا نفكّر مثلما أرادوا، وخطّطوا!!... إن ما حدث درس كبير. علينا أن نتعلم منه... نحن نواجه رجالاً لم نخبُرهم من قبل!!.. ولو كنت أعلم أنهم بهذا الذكاء، لجعلت (طيب) ينجح في مهمته، ويحرّر الأسرى، ليثقوا به، ومِن ثَمّ يتغلغل فيهم لكي نلقي القبض عليهم جميعاً دفعةً واحدة. أعترف: هذا من أقسى الدروس التي تعلمتها في حياتي!!!

***

كثير من الوادعين، الباحثين عن الراحة، المؤثرين السلامة على كل حال... في المدن العربية تنفس الصعداء بعد أخبار الصلح الجديد:

لقد تحررت الدار أو أوشكت!! قد آن أن نتخلص من عقدة الذنب التي رافقتنا طوال أعوام الغزو!! ما عاد (عباس) بحاجة إلى أن يصقل سيفه!! لقد زال يوم الشدة فلا حاجة للاستعداد!! ثم لماذا نكون بيزنطيين أكثر من أهل بيزنطة؟! لقد رضي أهل (الواحة) وأصحاب القضية. فهل نتشنج نحن بالرفض؟!

أما (خالد) ورفاقه فقد بذلوا جهوداً مضنية، وضاعفوا من نشاطاتهم لتوضيح الحقائق للناس! لقد كان تيار الرضا بالسلام المزعوم جارفاً أول الأمر، وكانت السباحة عكسه صعبة. لكنهم رجال المرحلة، وكانوا أهلها بحق. لقد جندوا الإعلاميين والفنانين والشعراء والأدباء في معركة الممانعة والصمود والمقاومة والحشد:

لا زالت (الواحة) مكبلة بالأغلال. لا زالت محاصرة بالقيود. لا زال على ثراها الطاهر يجثم الاحتلال..

وحملت الأصداء ألحان الشعراء ينشدون نشيد الإباء:

ورددت سماء (الأمل):

لا تصالح... ولو منحوك الذهب

أترى حين أفقأ عينيك!

ثم أثبت جوهرتين مكانهما... هل ترى؟!

هي أشياء لا تُشترى!!

هل يصير دمي بين عينيك ماء؟!

أتنسى ردائي الملطخ؟!

تلبس فوق دمائي ثيابا مطرزة بالقصب؟

إنها الحرب.... قد تثقل القلب؟

لكن خلفك عار العرب

لا تصالح ولا تتوخ الهرب...

وكانت أجواء (الأحلام) تجاوب الصدى!

لا تصالح على الدم.. حتى بدم.

لا تصالح حتى ولو قيل رأس برأس، أكل الرؤوس سواء؟!

أقلب الغريب كقلب أخيك؟!

أعيناه عينا أخيك؟!

وهل تتساوى يدٌ سيفُها كان لك...

بِيَدٍ سيفُها أثكلك؟!

سيقولون جئنا كي تحقن الدم

جئناك كن... يا أميرُ.. الحَكَم

سيقولون نحن أبناء عم!!

قل لهم أنهم لم يراعوا العمومة فيمن هلك..

واغرس السيف في جبهة الصحراء

إلى أن يجيب العدم

وتجاوبت مع النداء (السعادة):

لا تصالح

ولو توّجوك بتاج الإمارة

كيف تخطو على جثة ابن أبيك؟! وكيف تصير المليك

على أوجه البهجة المستعارة؟!

كيف تنظر في يد من صافحوك فلا تبصر الدم في كل كف؟!

إن سهماً أتاني من الخلف...

سوف يجيئك من ألف خلف!!!

فالدم الآن صار وساما وشارة

لا تصالح ولو توجوك بتاج الإمارة

إن عرشك السيف، وسيفك الزيف

إن لم ترد بذؤابته لحظات الشرف.. واستطبت الترف

ومعهم رددت مدينة (المرابطين):

لا تصالح

ولو قال من مال عند الصدام

ما بنا من طاقة لامتشاق الحسام

عندما يملأ الحق قلبك

تندلع النار إن تتنفس... ولسان الخيانة يخرس

لا تصالح ولو قيل ما قيل من كلمات السلام

كيف تستنشق الرئتان السم المدنس

كيف تنظر في عيني امرأة

أنت تعرف أنك لا تستطيع حمايتها؟

كيف تصبح فارسها في الغرام؟! كيف ترجو غدا لولد يتام؟

كيف تحلم أن تتغنى بمستقبل الغلام وهو يكبر بين يديك بقلب منكس؟!

لا تصالح ولا تقتسم مع من قاتلوك الطعام... وارو قلبك بالدم

وارو التراب المقدس وارو أسلافك الراقدين

إلى أن ترد عليك العظام

ثم رددت المدن العربية كلها!

لا تصالح

ولو ناشدتك القبيلة باسم حزن "الجليلة"

أن تسوق الدهاء وتبدي – لمن قصدوك– القبول سيقولون:

ها أنت تطلب ثأرا يطول

فخذ الآن ما تستطيع قليلا من الحق

في هذه السنوات القليلة إنه ليس ثأرك وحدك

لكنه ثأر جيل فجيل.. وغدا

وغدا سوف يولد من يلبس الدرع كاملة، ويوقد النار شامله

يطلب الثأر يستولد الحق

من أضلع المستحيل

لا تصالح ولو قيل إن التصالح حيلة

إنه الثأر

تبهت شعلته في الضلوع إذا ما توالت عليها الفصول

ثم تبقى يد العار مرسومة (بأصابعها الخمس)

فوق الجباه الذليلة

لا تصالح... لا تصالح... لا تصالح...

***

في قصر الملك، ظل (أفلاطون) يلحّ على (بيني) في أسئلته حتى اعترف له أخيراً بما حدث، وفسّر له سبب قتله الحاخام. ولم يكن (أفلاطون) بحاجة إلى كثير بيّنات ليصدق القصة، وهو ما لم يتوقعه (بيني) أبدا!! ثمّ إنّ (أفلاطون) ظل يقنع الملك بضرورة العفو عن (بيني) فاضطر أخيراً للاقتناع بشرط سماح ابنته (ليئات) بذلك، وقد فاجأه موافقتها على إطلاق سراح (بيني) دون أن تبدي أي اكتراث للأمر!!

ثم إن (بيني) ظل يقترب من (ليئات) حتى صاحبها، وظن أنها عشيقته، وهو لا يعلم أنها عشيقة الجميع، وأنه عندها كأي رجل تقضي معه بعض الوقت الممتع!!

***

لم يبق على موعد زفاف (ليث) سوى ثلاثة أيام. كان قد تأجل ثلاثة أشهر أخرى بطلب من أهل (بستان) لمزيد من التجهيز. خرج (ليث) من منزله باتجاه المدينة ضيّقاً صدره كأنما يصّعّد في السماء. كان على موعد

مع (شهيد) في إحدى الجبال غير البعيدة عن أطراف (الواحة). لقد طلب لقاءه لأمر هام يشغل باله منذ أسابيع. إنه يريد فسخ عقده مع (بستان) ولا يدري كيف السبيل إلى ذلك؟! كان يفكر طوال الطريق مما جعله يقصّر في أخذ الاحتياطات الكافية في التخفي والتّستّر. لمحه أحد عيون الشرطة فاصطحب (عينا) آخر، ثم تبعاه وقد اشتبها بحركته. لقد تم تدريبهما جيدا على مراقبة الناس. كانا يرصدان كل حركة يشكان أن لصاحبها صلةً بالثوار:

(أولئك الذين يريدون تدمير حلمنا الجميل!!)

لم ينتبه لهما (ليث). كان الوقت مساء بعد العشاء، وعندما جاوزا بيوت المدينة خلف (ليث) اتفقا أن يرجع أحدهما لإخبار (نبيل) ليستدعي قوةً تلقي القبض على هذا (المشبوه) فيما يواصل الثاني ملاحقته له، على أن يضع علامات متفقا عليها كلَّ عدة أمتار من سيره تدل صاحبه على مسار الطريق.

وصل (ليث) فوجد (شهيد) بانتظاره. لا حظ (شهيد) عليه القلق فبدأ يهدّئ من روعه:

– (شهيد): والآن ما الذي يقلق عريسنا الجميل؟!

أخذ (ليث) يفاتح (شهيد) بنيّته طلاق (بستان)...

كان الظلام دامسا ليلتها. كانت ليلة قد خاصمها القمر، وهجرتها النجوم إذ صاحبتها الغيوم السوداء!!! وبعد قليل وصلت قوة شرطية مع قوة مشتركة من جنود الغزاة وكانوا قريبا من المكان وأخذوا يقتربون بحذر

حتى شاهدوا خيال رجلين!! اقترب أحد الرماة من جنود الغزاة حتى إذا صار الرجلان في مرمى سهامه أخذ قوسه وبدأ يستعد للرمي!!:

– (ليث): لقد كان قراري خاطئا منذ البداية. إنها لا تفهمني. اهتماماتنا مختلفة، وتزيدنا الأيام اختلافاً لا اتفاقاً. كان عليّ أن أنهي ارتباطي بها منذ زمن.

– (شهيد): إنك واهم يا (ليث). هكذا كل الفتيات. بعد الزواج ستتغير. ستفهمك أكثر، وستتفهم ظروفك، وأنا متأكد أنها ستحمل معك رسالتك. إنها من بيت طيّب وأصيل.

انتبه (ليث) لصوت حركة قريبة. كان وجه (ليث) باتجاه الجنود فيما ظهر (شهيد) هو المقابل لهم:

– (ليث): ش.......ش......... (شهيد) هل تسمع؟

ولم يكد (ليث) ينهي جملته حتى لاحظ لمعان السهم ينطلق صوب ظهر (شهيد)، فأزاحه بسرعة فائقة ليتلقى هو السهم بالجانب الأيمن من صدره. تلقّاه وهو يصرخ:

– (ليث): (شهيد).... انتبه

أحس (ليث) مباشرة أنهما وقعا في كمين وأن (شهيد) هو الهدف، فما إن توجه إليه (شهيد) ليسعفه، حتى دفعه بكل ما أوتي من قوة باتجاه الوادي فأسقطه فيه، ثم تحامل على نفسه فنزع السهم، وهرب بالاتجاه الآخر.

سمع الجنود كلمة (شهيد) فأدركوا أن الحظ السعيد قادهم لصيد ثمين،

وأخذوا يتتبعون مصدر الحركة، ولكن بحذر وخوف شديدين، حيث أن الرعب يملأ قلوبهم من ذكر اسم (شهيد) حيث أرسلوا في طلب قوات إضافية...و واصلوا سيرهم الحثيث ولكن ببطء. شاهدوا الدماء على الأرض فتتبعوا أثارها. كان كل همِّ (ليث) أن يبعدهم أكبر مسافة ممكنة عن مكان (شهيد). كان يدعو الله من كل قلبه أن يفقد (شهيد) الوعي لفترة معقولة، كي لا يغامر باللحاق به لإنقاذه. إنه يعرف (شهيد) جيّداً. لن يتركه وحده مهما كلفه الثمن.

– (ليث): يارب ارحمِ أخي (شهيد). اكفه بما شئت وكيف شئت. يارب لا أكون السبب في وصولهم إليه.

كان جرح (ليث) بالغا جدا، لكنه كان يتحامل على نفسه الكثير. كان الجرح ينزف وهو يصرّ على المسير. وبعد ساعة من السير المتواصل غلبه الجرح فسقط مغشيّاً عليه.

وصل الجنود وأخذوا يقتربون منه بحذر. ظنوا أنه (شهيد):

– (مسؤولهم): به رمق حياة. هيا ضمّدوا جرحه، واحملوه سريعاً قبل أن يفارق الحياة. نريده حيا لننال المكافأة. يا لحظنا السعيد!!

حملوه والتقوا بالقوة الإضافية على أطراف المدينة:

– ارجعوا لقد كفيناكم الأمر ها هو (شهيد) في قبضة يدنا!!

وصل الخبر إلى (فرودو)، فغادر قصره سريعا وتبعه (ريمون)، بنفسه وعلى الحدود بين شطري المدينة التقى (فرودو) و(ريمون) بالجنود الذين يحملون الجريح. كان (فرودو) قد استدعى (نبيل) للالتقاء به، و لم يكن (ريمون)

و(فرودو) يصدّقان أنّ (شهيد) قد وقع في أيديهم بهذه السهولة!... تم إنزال الجريح من على أكتاف الجنود. كان لا يزال في وضع صعب... أجروا له العلاج الأوّليّ اللازم... وصل (نبيل) وعندما رأه صاح بهم:

– (نبيل): هذا ليس (شهيد)!

جن جنونهم:

– (ريمون): ماذا تقول؟! عليك اللعنة!! من يكون إذن؟!

– (نبيل): إنه (ليث بن ثابت)

عاود (فرودو) و(ريمون) استجواب الجنود الذين قصّوا عليهما ما حدث، فأدركوا أن (ليث) هذا قد افتدى (شهيد) بنفسه، واستدرج الجنود إلى مكان آخر لينجو (شهيد). أعطوا أوامرهم لجنودهم بمعاودة البحث من جديد في كل مكان، فعادوا وبقوا حتى الصباح دون فائدة، فرجعوا إلى مواقعهم.

في الفترة بين ذهابهم وعودتهم كان (شهيد) قد أفاق من إغماءته حيث فاجأته دفعة (ليث) فتدحرج في الوادي، وارتطم رأسه بالحجر، فغاب عن الوعي ساعة من الزمن، ولما أفاق قام كالمجنون يبحث عن (ليث)... تبع أثر الدماء حتى انقطعت، فأدرك أنهم ألقوا القبض عليه:

– (خولة)[وقد رأته باكيا يجرجر نفسه]:(شهيد) ما بك؟! ما الذي جرى؟! ما هذه الدموع في عينيك؟!

– (شهيد): لقد افتداني مرتين... تلقّى عنّي السهم بصدره، ثم دفعني باتجاه الوادي، وهرب في الاتجاه الآخر، كي ينشغلوا عني به...

ألقوا القبض عليه وهو جريح!! لا أدري ما حالة جرحه. سيعذبونه أشد العذاب. زفافه بعد ثلاثة أيام. يا إلهي!!

أوصل (نبيل) وشرطته الخبر لأهل (ليث)، وقد استدعوهم ليسألوهم عن علاقته (بشهيد)، ومن هم أصدقاؤه، وأصحابه. ولم يكن والدا (ليث) العجوزان يعرفان أي شيء عن ولدهما الصغير. كذلك كان حال إخوته الكبار المتزوجين والمنفصلين في بيوتهم الخاصة عن بيت الأسرة. كان (ليث) غامضا، ولم يكن يعرف عنه أحد حتى (بستان) التي لم يقطع بكاءها المتواصل إلا استدعاؤهم لها، واستجوابهم إياها، حيث لم يكن لديها ما تفيد به.

وما إن بدأ يفيق (ليث) من إغماءته بعد يوم كامل أمضاه فيها، حتى وجد أمامه (ريمون) و(فرودو) وعددا من الجنود في أحد السجون:

– (ريمون)[وقد أمسك برقبته]: عليك اللعنة أيها الوغد. أين (شهيد)؟ تفديه بنفسك أيها الحقير؟

وكانت هذه الكلمات أجمل هدية تقدم إلى (ليث). لقد اطمأن أن (شهيد) نجا، فابتسم بكل سرور مغالباً جرحه، ثم عاودته الإغماءة من جديد.

وبعد فترة أفاق (ليث) جيدا، وبدأوا بإطعامه ليعوّض ما فقده من دماء. لقد كانت حالته صعبة، ونجا من الموت بأعجوبة، ثم إن جولات من التحقيق المميت قد بدأت معه، وكان يشرف عليها (ريمون) بنفسه:

– (ريمون): هل تحبه كل هذا الحب؟ ستدفع ثمن ذلك؟ ما الذي

يجبرك على ما فعلت وزفافك كان موعده اليوم؟ لقد هرب صاحبك وتركك تواجه مصيرك. هرب مثل النساء.

فبصق (ليث) في وجهه، فأخذ يضربه بكل جنون، حتى أزاحوه عنه:

– ستعترف، وستخبرنا عن مكانه. نحن نعرف كيف نرغمك على ذلك.

كانوا يصبّون عليه العذاب صبّاً. يضعون الملح في جرحه، فيصرخ حتى يغمى عليه... وكثيراً ما كان يغمى عليه.

وأكثر من مرّة تذكر مشهدهم وهم صغار، عندما كان يمثل دور الأسير المقيد الذي يساوَم ترغيباً، وترهيباً على الاعتراف، فكان يرد مبتسما بكل عزة:

أفنى ويبقى في علا وطني الحبيب مخلدا

لقد رباهم(مصعب) على الصمود، وأحسن تربيتهم... وهيهات هيهات أن يأخذ السجانون منه حرفاً واحداً... ولأن يموت (ليث)، ثم يحيا، ثم يموت، ثم يحيا... ويكرر ذلك ألف مرّة... أهونُ عليه من أن يقول كلمة واحدة تدلهم على مكان (شهيد)... هل يقدّم لهم رأس أخيه، ليرتاح هو من بعض العذاب؟! وأية راحة هذه؟؟ وعدوه بالحرية والحياة والمال وما يشاء:

– يا لسخافتهم وغبائهم!! أهكذا رخصت في نظركم؟ وأية حياة هذه التي سيحياها؟! هل سيحيا بروح أخيه التي قدّمها لهم فانتزعوها؟! أم بنَفَس أخيه الذي ساعدهم على إخماده؟! أم بدماء أخيه التي أعانهم على

سفكها؟! بئست تلك الحياة إذن... ويا مرحباً بالموت..

واستمر التحقيق معه شهراً متواصلاً دون جدوى.

– (فرودو): يا سيدي (ريمون) أنا أكرهه مثلك إن لم يكن أكثر، لكنه سيموت، ونحن نريده على قيد الحياة. هل تتصور أن يدلنا على مكانه وقد افتداه بنفسه. إنه يحبه بجنون.لقد أحضرنا أمه، وأباه، وحتى خطيبته دون جدوى. ليس أمامنا إلا أن نلجأ للحيلة.

– (ريمون): ماذا تقصد؟

– (فرودو): إذا كان هدف إلقاء القبض على (شهيد) مقدماً على رغبتنا في الانتقام، فإن علينا خداعهم كما خدعنا (ثائر) وصحبه. سنتيح له أن يزور زوجته ويراسلها، وبالتأكيد سيحاول (شهيد) الاتصال به، أو سيحاول هو ذلك، وعندها نلقي القبض عليه. وما لا نأخذه بهذا [وأشار إلى ذراعه] نحصّله بهذا [وأشار إلى دماغه].

اقتنع (ريمون) بالفكرة، لكنه ظل يعتبر (ليث) عدوّه بشكل شخصي حتى يلقي القبض على (شهيد). إنه عدوه لأنه افتداه بعد أن كادوا يصلون إليه، وهو عدوّه لأنه لم يستطع أن ينتزع منه كلمة واحدة.

اتفقوا على أن يقدموه للمحاكمة بعد شهر، إذ يكون قد تعافى نوعاً ما من عذاباته وجراحه، على أن (ريمون) أصر أن يحكم (مدى الحياة) وذلك إرضاءً لحقده من جهة، ولمزيد من الاستفزاز ومن ثم (الاستدراج) (لشهيد). فضلاً عما فيه من رادع لكل أولئك الذين يفكرون بتقليد (ليث).

رجاهم (نبيل) ألا يعقدوا المحكمة في الشطر الجنوبي، وأن تكون عندهم في الشطر الشمالي خشية ثورة الناس، على أن يكتفوا بحضور أهله وذويه، لكن (ريمون) أصر على أن تعقد المحكمة أمام أكبر قدر من سكان (الواحة) تتسع لهم قاعتها في سجن إحدى الحصون في الشطر الجنوبي.

وفي يوم المحكمة سُمِح لأهل (ليث) بدخول الحصن مع عشرات من سكان (الواحة).بما تسمح به قاعة المحكمة من مساحة، وحضرت (بستان) و(زهرة) وأبواها المحكمة.

وأدخل (ليث) إلى القاعة... حاول أهله الاقتراب منه فمنعوهم.... بكوا، صرخوا... دون جدوى... كتم (ليث) دموعه بثبات، وأخفى آلامه وجراحه. كان أثر التعذيب بادياً عليه، لكنه كان كالجبل. كان ينظر حيناً باتجاه أمه وأبيه تطلب نظراته منهم المسامحة وقد تركهما وحيدين دون أن يفرّحهما بزفافه الذي طالما انتظراه، ثم يلتفت إلى إخوته يوصيهم بهما، ثم يوجّه ناظريه صوب (بستان). كانت عيونها مليئة بالعتاب والحساب، لكنه لأول مرة يشاهد فيهما بريقا غريباً لم يفهمه.

دخل القاضي... وقف الجميع إلا (ليث)... سرد القاضي التهم:

– مخرّب يتستر على المجرم (شهيد).. أياديه ملطخة بدماء الأبرياء من شعبنا... مصر على الإجرام حيث لم يعترف بكلمة واحدة... نحكم عليه بالسجن مدى الحياة...!

صرخت (أم ليث) باكية، وبكى أبوه وإخوته، ودمعت عينا (زهرة). أما (بستان) فقد كان لها رأي آخر:

– (بستان)[وقد خلعت خاتم خطبتها]: طلقني... طلقني يا (ليث)!!

وزاد بكاء (أم ليث) وصراخها، واهتزت القاعة...!

خلع (ليث) خاتم خطبته وقال لها:

– أنت طالق... أنت طالق....... أنت طالق.... سامحيني على ما سببته لك من ألم...

ثم حدث موقف عجيب!!

أخذت (زهرة) خاتم أختها وقالت:

– (ليث) هل تتزوجني؟ (ليث) أنا أنتظرك مدى الحياة... هل تتزوجني يا (ليث)؟

صمت (ليث)، وصمتت القاعة... نظر (ليث) في عيني (زهرة)، ورأى فيهما الحب والإصرار... أحس أنه يحبها كثيراً...أتراه الحب أم الإعجاب؟! ولكن كيف يرضى لها أن ترتبط به وقد حُكِم عليه ألا يراها مدى الحياة؟! أين الرجولة في أن يقابل موقفها النبيل هذا بالقبول؟! يربط مصيرها الواعد بمستقبله الأسير؟!... نظر في عيني إخوته... كانوا يتبسمون ويقولون له: نعم اقبل. كذلك أبوه... ثم أمّه... ابتسمت وأومأت برأسها للأسفل..وعاودت (زهرة) العرض:

– (ليث) هل قبلت؟! إني أحبك... أعلن على رؤوس الناس أني أحبك، وأفتخر أن يرتبط اسمي باسمك. هل ترضاني زوجة لك؟

دمعت عينا (ليث)، وابتسم، وأومأ برأسه بالقبول... ولبس الخاتم

ولبسته هي... وأطلقت (أم ليث) زغرودتها الفرحة الحزينة. وهز القاضي رأسه:

– مجانين... عرب مجانين !!

وصارت بطولة (ليث) و(زهرة) حديث (الواحة)... ولأول مرة منذ عقد الصلح يشعر الناس أن حريتهم زائفة، وأنه لم يتغير عليهم شيء، فالاحتلال هو صاحب الكلمة الأخيرة، ولا يوجد استقلال ولا تحرر!!!

أما (شهيد) فقد رفض أن يغير مخبأه بعد اعتقال (ليث)... لم يستمع لنصائح (خولة) و(إبراهيم) و(محمد). قالوا له:

– العقل والمنطق هو ما يحكمنا لا العاطفة. (ليث) اعتقل جريحا وقد يضعف فيعترف.

كان (شهيد) كلما ذكروا له فكرة اعتراف (ليث) ينظر إليهم بشدة!!! كانت ثقته بـ (ليث) لا حدود لها. لم يخامره شك واحد أن ذلك يمكن أن يحدث، أو أن (ليث) يمكن أن يتكلم بكلمة تؤذيه! وكان يرى نفسه خائنا لإخوّته إن سمح لها أن تعتقد بإمكانية اعترافه، ثم لمّا وصلت أخبار (ليث) وصموده قال لهم (شهيد):

– ألم أقل لكم؟! ما شككت للحظة واحدة، ولا خطر ببالي أبداً أن تكون النتيجة غير هذا. إني أعرف (ليث) أكثر من نفسي. ليس لأنه افتداني فحسب بل لأني أعرفه.

– أما (خولة) و(إبراهيم) و(محمد) فقد ظلّوا على رأيهم:

– حتى لو أن رهانك على صمود (ليث) كان في محله، لكن هذا لا

يعني أن قرارك كان صائبا. لقد كانت تحرّكك العاطفة لا العقل. لقد سلّمنا الله هذه المرّة، ولا ينبغي التكرار أو القياس، وليس ما حدث إلا الاستثناء الذي يثبت القاعدة. نحن نتربّى ونراهن على الصمود، لكننا نضع الخطة على أساس الاعتراف ونعدّ أنفسنا دائما للخيار الأسوأ.

– (شهيد): دعونا من ذلك. والآن لنفكر في خطة تحرير (ليث). لن يغمض لي جفن قبل أن أراه بيننا حراً [ونظر إلى (خولة) وكأنه يريد القول]: كما حررناك سنحرره...

فهمت (خولة) مغزى نظراته فقالت:

– لا... أنا من حررت نفسي بنفسي. والآن أثبتوا جدارتكم في تحرير (ليث)! هذا هو الاختبار الحقيقي.

ابتسم الجميع وقبلوا التحدي.

***

خفق قلب (زهرة) عندما طرق البابَ حاملُ بريد يحمل رسالة لها...:

– إنها من (ليث) إنه هو. [هكذا هتف قلبها]

تناولتها وعيناها تمتلئان بالشكر لحاملها... ودّت لو أنها تهديه شيئا ما، لكنه غادر سريعا... نظرت إلى أمّها وأبيها وإخوتها وأخواتها نظرة استحياء... ثمّ دخلت غرفتها وهي تضع الرسالة قرب قلبها:

بسم الله الرحمن الرحيم

(زهرة)........

لو استنجزت لقلمي كلَّ ما أراد أن يكتب، لضاقت السطور بما في الصدور، ولكن حسبي فيض خواطر للبيبة وحبيبة تقرأ ما بين الكلمات ما تحكيه العيون وينبض به الفؤاد....

(زهرة)....

بأي شيء يمكن لمثلي أن يكافئ حبك الكبير، ووفاءك العظيم؟؟!! لم تعودي تلك الزهرة الصغيرة التي تكتفي بتعطير منزلها الصغير.. أنت اليوم كبيرة في ضمير الناس... شذا عبيرك يملأ (الواحة) وما حولها معطّرا دنيا الناس... أنت اليوم (زهرة الواحة) التي تستعير منها كل الأزهار جمالها وعبيرها... وقبل ذلك ومعه وبعده فأنت زهرة قلبي المكلوم... تمدّينه بكل معاني الصبر والصمود... أنت زهرتي التي لايعتريها الذبول، وشمسي التي لا ينتابها الأفول... كم أنت رائعة عظيمة يا (زهرة)...

لك الله... لن يضيعك الله.. ولن يضيع (الواحة)... ولن يضيعنا... هو حسبنا ونعم الوكيل. زيارتي بعد ثلاثة أيام... أشواقي تسابق بعضها، وكذلك نبضات القلب... وإني بالانتظار...

ليث...

وقرأت (زهرة) الرسالة مرة.... ومرة... ومرة... قررت ألا ترد عليها إلا بعد الزيارة، ونامت ليلتها، وهي تضم رسالة (ليث) إلى قلبها الكبير..

***

ذهبت (خولة) مع (أم ليث) و(زهرة) لزيارة (ليث) وبقيت خارج السجن، وذلك بهدف معرفة مكان السجن تصفه للثوار، وقد تأتّى لها ما أرادت...

دخل الأهالي لزيارة أبنائهم الذين كانوا ينتظرون خلف قضبان السجن... وصلوا... وبدأ كل أسير ينادي على أهله وسمعت (زهرة):

– أمي... (زهرة)... أنا (ليث)... أنا هنا.

اتجهن نحو الصوت، وما إن رأينه حتى أجهشن بالبكاء..... دمعت عيناه وهو يقبّل يد والدته... ثم صافح (زهرة)، وظلت يده بيدها طوال الزيارة... خمس دقائق لم يتكلم فيها أحد... كانت وحدها العيون تحكي...

أخذ يسأل أمه عن أبيه وإخوته، فطمأنته، واطمأنت عليه، ثم قالت له إنها متعبة تود الجلوس بعيدا.

[وكانت تقصد تركه مع (زهرة) وحدهما]...

أخذ ينظر في عيني (زهرة).. وكانت كلما خفضت رأسها رفعه... ثم قال:

– هل وصلتك رسالتي؟

هزت رأسها بالإيجاب.

– أريد سماع صوتك...

– نعم.

– هل أعجبتك؟

هزت رأسها بالإيجاب.

– أريد سماع صوتك الجميل.

– نعم... نعم... يا (ليث).

– ما أعذب اسمي على شفتيك... (زهرة)... أحقا تريدين انتظاري مدى الحياة؟!... إني أشعر نحوك بالذنب وأخشى........

[قاطعته] وقالت:

– وحياةً تلو حياة يا (ليث). لا تعد لمثل هذا الكلام. إن كنت تحبني حقا فلا أسمعك بعد اليوم تتحدث بهذه الطريقة. أنا أحبك يا (ليث). وأنت في مقامك هذا اليوم أحبُّ إليَّ منك إلى جانبي قاعداً قانعاً متخلياً عن (الواحة)، وحريتها... ستتحرر يا (ليث)، وستتحرر (الواحة)، وسنتزوج ونحن أحرار، وسننجب أولاداً ليكونوا أحراراً... سنتحمل القيد كي نهبهم الحرية... الحرية قدرنا يا (ليث)، ولن تقف قيودهم هذه في وجه الأقدار.

ونادى المنادي بانتهاء الزيارة...

شدّ على يدها وهو ينظر في عينيها وهي تنظر في عينيه.. قالت له:

– ارفع رأسك وكن (ليث) الذي أحببت...

جاءت أمّه، فقبّل يدها، وحمّلها لذويه السلامات، وخرج الجميع.

عاد الأسرى إلى غرف سجنهم يعيشون مع ذكريات الدقائق الغالية... جلس كل منهم مع نفسه كما يفعل بعد كل زيارة يعيد على خياله لحظات الزيارة لحظة بلحظة، وكذلك الأهل في طريق العودة الشاق!!

***

كان كبير التجار في مدينة (الواحة)(أبو حبيب الحارثي)في محلّه التجاري الكبير يحدّث ولده حبيب ابن الرابعة عشرة من العمر حول انطباعاته عن الوضع الجديد:

– يبدو يا بني أنّا تسرعنا في الترحاب بالصلح الجديد وأهله... إن القناع يكشف شيئا فشيئا... لم تتحسن أوضاعنا الاقتصادية. كلُّ ما في الأمر أن بعض المنتفعين اغتنوا مرة واحدة لا يعرف أحد كيف؟؟ وزادت الضرائب بشكل مخيف، ويأتيك سفهاء الشرطة فتضطر لمجاملتهم اتقاء شرهم فهم لا يعرفون حرمة لصاحب مكانة، ولا يوقّرون كبيراً... أي شيء ينتظر بلادنا ترى يا بني؟

وفي هذه الأثناء دخل أحد الفقراء فرحّب به، وباعه بنصف الثمن، ثم أقبل أحد معاوني (نبيل) من بعيد... ابتسم التاجر له ورحّب به... اشترى ما يريد، و لم يدفع قائلا وهو يخرج:

– هذه ضريبة الوطن لحماته! أليس كذلك يا شهبندر التجار؟

غضب (حبيب) من الموقف، وغضب من أبيه الذي لاحظ في عينيه ما يريد قوله فقال له:

– (أبو حبيب): لا يا بني ما كان أبوك منافقا... النفاق شيء غير مداراة السفهاء. فالنفاق رذيلة أساسها ضعف الشخصية والتلوّن مع الناس وعدم الارتباط بالقيم الثابتة، أما مداراة السفهاء ففضيلة أساسها الضن بالكرامة والوقت، أن يضيعا مع أحمق لا يحسن الخطاب ولا السماع. وكم من الناس من أدعياء لا تنقصهم الجراءة والسلاطة، لو تنزّل المرء إلى

مستواهم لأزرى بعقله وخلقه، فما بدٌّ مِن سدِّ أفواههم حتى لا ينسكب منها ما يؤذي!!

***

وضع الفرسان خطتهم لاقتحام السجن الذي يعتقل فيه (ليث) بعد أن عرفوا مكانه... أوكلت المهمة إلى (محمد) مع مجموعة من أربعة فرسان هم (همام) و(فارس) و(عبد الرحمن) و(مازن)... وبدأوا التنفيذ.

راقب (همام) و(فارس) مدخل السجن، وتبعوا أحد حراسه حتى استطاعوا معرفة منزله... داهم منزله بعد منتصف الليل (محمد) و(عبد الرحمن) و(مازن)... لم يكن بالإمكان اقتياده خارج المنزل للتحقيق معه، ففعلوا ذلك داخل المنزل. حبس (عبد الرحمن) زوجته وأولاده في إحدى الغرف، ومنعهم من الحركة فيما حقق (محمد)و (مازن) مع الحارس طوال الليل، حتى عرفوا منه كلَّ ما يعرفه عن السجن ومداخله وأبوابه وحراساته وكلمات السرّ فيه، ثم إنهم قتلوه، بعد أن أخذوا بعض المال ليوهموا أنهم لصوص... وصل الخبر إلى (فرودو) مع بزوغ الفجر، وحضر بنفسه لمعاينة الموقف. قال في نفسه:

– هناك أثر تعذيب!! وإذا كان الأمر سرقة فلماذا يستغرقون في احتجازه عدة ساعات في غرفة منفصلة عن أهله؟! إن هناك أمراً ما وراء ما حدث... ما هو يا ترى...؟! ما هو ؟!

في اليوم التالي فعل الفرسان الشيء ذاته مع حارس آخر ليتأكدوا من

معلومات الحارس الأول، لكنهم بدأوا في وقت مبكر حيث اقتحموا منزله بعد المغرب مباشرة، وانتهوا منه قبل منتصف الليل بقليل، ثم توجهوا إلى السجن يلبسون زي الجنود ومعهم زي إضافي، ليلبسه (ليث). لم يجدوا صعوبة في دخول السجن، فإن كلمة السر التي كانت معهم كانت كافية لمرورهم دون أي شك!! كان عليهم بعد تجاوز الباب الخارجي أن يتجاوزوا ثلاثة أبواب أخرى داخلية، على كل بابٍ منها مجموعة حراس، ولكل باب كلمة سره الخاصة، وذلك قبل أن يصلوا الساحة التي يمرّون عبرها للوصول إلى حيث يعتقل (ليث) وعشرات الأسرى، حيث يحتجز في كل غرفة عشرة أسرى.... كانوا على معرفة بمكان احتجاز (ليث)... لم يكن بإمكانهم تحرير سواه... الباقي يحتاجون خطة مختلفة للتحرير... وصلوا الممر الذي يوصلهم لغرفة (ليث)... قتلوا حارس الغرفة وأخذوا مفتاحها، ثم توجهوا لفتحها... لم يصدق (ليث) عينيه عندما استيقظ على صوت الباب يُفتح... ظن نفسه في حلم... أفاق الجميع... تعانقوا بسرعة:

- (محمد): هيا يا (ليث) البس هذا اللباس واخرج معنا.

التفت (ليث) إلى بقية الأسرى ثم نظر إلى (محمد) وقال:

- (ليث): ماذا تقصد؟ أخرج وحدي؟! والبقية؟!

- (محمد): ليس معنا إلا زي واحد، وليس بإمكاننا تحرير عشرة دفعة واحدة. هناك خطة أخرى للتحرير لاحقاً.

- (ليث): لا يمكنني أن أخرج وأتركهم!!

– (محمد): (ليث)؟! ماذا تقول؟! لا تضيع وقتنا. الموقف صعب ولا يحتمل التأخير!!

– (ليث): إذا لم يكن بالإمكان تحرير أكثر من واحد فليكن (جعفر) فهو في السجن منذ سنوات.

– (محمد): (ليث) لقد جئنا لك أنت. قد يعاودون تعذيبك من جديد، ثم هذه أوامر من (شهيد).

– (ليث): لأول مرة سأعصي أمر (شهيد)، فليسامحني (شهيد). كيف سأنظر في عيون أهلهم وذويهم حين أتركهم ورائي؟!

– (محمد): سنعود لهم يا (ليث). الوقت يدركنا!!

قال الأسرى التسعة:

– اذهب معهم يا (ليث). نحن نثق بعودتكم لتحريرنا لا تضيّع الوقت.

– (ليث): قُضِيَ الأمر يا (محمد). لن أخرج إلا إن خرجوا كلهم!

– (مازن): (محمد) هناك فرصة لا بأس بها، إذ دلّنا الحارس على مخزن ملابس الجنود، وهو قريب. يمكن أن نحضر من هناك ملابس للبقية، ونخرج كلنا.

فكّر (محمد) جيدا ثم قال:

– (محمد): على بركة الله. ليذهب (مازن) و(عبد الرحمن). حاولا خداع حارس المخزن لا قتله..

في تلك الأثناء كان (فرودو) في منزل الحارس المختطف الثاني:

– نفس أسلوب الأمس!! ما الذي يحدث؟ لماذا يحتجز الجندي فترة قبل قتله؟ هل يتم التحقيق معه مثلا؟ ولماذا؟ ماذا يريدون منه؟! ثم ما العلاقة بين كلا الجنديين؟ أين يعملان؟

سأل (فرودو) فأجابوه:

– هما حارسان لسجن الأسرى العرب.

فكّر (فرودو)... ثم صرخ:...

– (اللعنة) إنهم سيقتحمون السجن لتحرير الأسرى!... تحرير الأسرى يشغل بالهم... آه... (ليث)... صاحب (شهيد) العزيز يريدون إنقاذه.... اللعنة!!..

وسريعاً جداً أمر بقوة كبيرة كي ترافقه إلى السجن...

اضطر (مازن) و(عبد الرحمن) لقتل حارس المخزن... أحضروا الملابس... لبس الجميع زي الحراس... طلب (محمد) إلى (ليث) أن يرافقه في المقدمة، لكنه أصرّ أن يظلّ آخر من يخرج... تقدم (محمد) وتجاوز الباب الأول ثم الثاني، فتبعه البقية الذين تجاوزوا الباب الأول دون مشاكل، فقد أوشك الفجر على البزوغ، وكان معظم الحراس شبه نائم... تجاوز (محمد) الباب الثالث، وبقي له الباب الخارجي.... في هذه اللحظة دخل (فرودو)، ومعه مجموعة كبيرة من الجنود... أعطى (فرودو) أوامره للحارس الخارجي ألا يُخرِجٍ أحداً دون إذنه، وأخبره أن هناك محاولة هرب، وطلب من آخر أن ينفخ في المزامير التي تعلن عن وجود حالة طوارىء... أدار (محمد) ظهره وتدارى قليلا، فلم ينتبه له (فرودو) الذي

توجّه سريعاً للداخل... كان (محمد) قد سمع ما قاله (فرودو)، فأدرك أن العملية كشفت، فقرر المغادرة وحده... دخل (فرودو) من الباب الأول، وتوجه (محمد) إلى الباب الخارجي وطلب من الحارس الخروج:

– (الحارس): آسف يا سيدي. معي أوامر ألا أخرج أحدا!!

فما كان من (محمد) إلا أن لطمه بشدة وصرخ في وجهه:

– (محمد): يا وغد كيف تخاطبني هكذا؟! ألا ترى ما نحن فيه؟ اغرب عن وجهي. عندما أخرج، أغلق الباب جيدا ولا تخرج أحداً بعدي.

ضرب الحارس له التحية:

– (الحارس): آسف يا سيدي. تفضل!!

فخرج (محمد)، ونجا، ووصل بعد بزوغ الفجر آمناً إلى موقعه...

عندما سمع الفرسان صوت المزامير كانوا على مشارف الباب الثاني قد أوشكوا أن يتجاوزوه، فعلموا أنهم قد كُشِفوا.... انقض (ليث) على حارس الباب الثاني، وقتله، وأخذ السيف ومفتاحه، وفتح الباب، وتجاوزه الجميع، وفي المسافة ما بين البابين الثاني والثالث التقى الطرفان... قرر الفرسان المقاومة والقتال.. كانوا أربعة مسلحين، وتسعة عزّل مقابل عشرات الجنود، وبدأت معركة غير متكافئة!! كان الفرسان رائعين... كان أبرعهم (ليث)... وكان الجنود يتهاوون أمامهم، و لم يجد (فرودو) إلا أن يسيطر على التسعة العزّل، ثم يضع السيوف على أعناقهم، ويهدّد (ليث) وأصحابه بأنه سيقتلهم إن لم يلقوا السلاح، فيضطرون لذلك ويعتقل الجميع...

كانت عينا (شهيد) تدمعان، وهو يستمع مع (إبراهيم) إلى (محمد) يخبره بتفاصيل ما حدث.

– (شهيد): سامحك الله يا (ليث). إني أسامحك، فهل تسامحني أنت؟! جئنا لنحرر أسيراً، فزدنا من أعداد أسرانا الأبطال!! لا حول ولا قوة إلا بالله!!

استخلص الفرسان العبر مما حدث، ودرسوا الثغرات التي حصلت، وقرروا تأجيل التفكير مؤقتاً بتحرير الأسرى، باتجاه إعادة تفعيل العمل الاستشهادي في قلب (الواحة) الشمالي:

– (شهيد): إذا كان لدى خصمك ذراع مدرّع يضربك به، فإن ضرباتك على ذراعه لن تؤذيه كثيراً، فما عليك أن تفعل وأنت الضعيف قليل الإمكانات؟

– (إبراهيم): تضربه في خاصرته، أو تحت الحزام، فتجبره على الاستسلام!!

– (محمد): وهذا ما نفعله باستشهاديينا في شطر (الواحة) الشمالي.

– (شهيد): وأذكركم... سنلقى محنة شديدة من بني جلدتنا، وعلينا الصبر.

– (إبراهيم): وعلينا أخذ الحيطة والحذر، فسنواجه خصمين لا خصماً واحداً.

تم توزيع الأسرى على سجون متفرقة، واقتيد (ليث) وحده إلى سجن القصر حيث يعزل انفرادياً هناك:

– (ريمون)[وهو يضحك]: أنت الآن عندي. تحت عيني. فليحررك (شهيد) إن كان رجلا.

***

في مخبأ (شهيد) الآمن وصله على غير ميعاد سابق (إبراهيم):

– (شهيد): أهلا يا (إبراهيم). ما هذه المفاجأة؟ خيراً إن شاء الله.

– (إبراهيم): عندي لك مفاجأة. أحد الأحباب يود رؤيتك [ثم نادى عليه بالدخول]:

تفضل يا ضيفنا العزيز...

دخل الضيف فإذا هو (خالد).... عانقه (شهيد) بحرارة بالغة، فقد كان في أشد الشوق له...رأى (خالد) أن الأوضاع في (الواحة) قد باتت صعبة، وأنه لا يكفي تبادل الرسل، فلا بد من المغامرة بزيارة من هذا النوع يتم تبادل الآراء فيها، ووضع الإستراتيجية للمرحلة القادمة.

شرح (شهيد) لـ (خالد) ظروف (الواحة) الجديدة بالتفصيل، وبالمقابل فقد وضع (خالد) (شهيد) في صورة استعدادات المدن العربية، وطمأنه أن الأمّة بخير، وأنها في طريق النهوض، وأن جهود رفاقه الآخرين في حشد الرجال، وتدريبهم، وإعداد الجيوش لنصرة (الواحة) متواصلة، وفي تقدم مستمر، و لم يخف عليه الآثار السلبية التي تركها الصلح الجديد، لكنه طمأنه أن الزمن لصالحهم، وأن تجاوزها مسألة وقت، فلا بد من الصبر، واستمرار المقاومة. وأخبر (خالد) (شهيد) أنه (أي شهيد) قد صار رمزا

للجهاد، ليس في (الواحة) فحسب، بل في كل المدن العربية، وأن صورته في كل بيت عربي، وأن كثيراً من الأمهات يسمّين أبناءهن الجدد باسمه، مما يدل على صحوة الأمة ونهضتها.

قال (خالد) ل (شهيد):

– يبدو أن علينا في هذه المرحلة المراوحة بين (الاستراتيجية) و(التكتيك)، فلا يمكن لخطة بعيدة المدى أن تحقق أهدافها ما لم تشتمل على مناطق فراغ، نتحرك فيها على خلاف توجه تلك الخطة، ولكن بما يخدمها من وجه آخر، وهكذا فإن الخطوة التي نخطوها للوراء هي في الحقيقة خطوة للأمام، وإن ظهر خلاف ذلك.

مكث (خالد) ثلاثة أيام تدارس فيها مع فرسان (الواحة) آفاق العمل المستقبلي، ثم غادرهم، بعد أن زوّدهم بما جمعه من مال طالباً من (شهيد) أن يحافظ على نفسه، فقد صار ملك الأمة كلها لا ملك نفسه!! وأوصى الفرسان به خيراً، فهو الآن مهوى الأفئدة، ومرمى الأبصار.

***

ظل (ريمون) حريصا على إبقاء طرف الخيط بين (ليث) والخارج عبر زيارة أمّه وخطيبته كل عدة أشهر إضافة إلى السماح باستمرار المراسلات.

وصلت (ليث) في زنزانة عزله الانفرادي رسالة (زهرة) تقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

في غابة الشرق نايٌ يبتغي نفساً   يا شاعر الشرق هل في صدرِك النّفسُ؟؟

ألا إني أستمع الآن إلى أنفاس نايِك السحرية....

يا فارس (الواحة)، وفارس زهرتها التي تفديك بالروح والعمر...

قلب يملي... وقلم يكتب... فتصلك مني هذه الأحرف النابضات...

لم يكن قراراي عاطفياً، أو وليد لحظة انفعال يا (ليث).. قد كان ثمرة امتزاج القلب والعقل، فأراني لا تزيدني الأيام إلا حبّاً وتعلّقاً. أظنني أسعد فتيات (الواحة) إذ حظيت بك.... منكم يا (ليث) تستمد أرضنا صلابتها، ونضارتها... أنتم رواسيها التي تمنعها أن تميد، وماء حياتها الذي يحميها من الجفاف والموت...

من صبرك أسقي زهرة صبري فلا تضعف

وإلى لقاء قريب بإذن الله........

زهرة....

***

مع أول عملية استشهادية تهز قلب (الواحة) الشمالي تفتك بخمسة عشر جنديا من الغزاة، أظهرت شرطة (نبيل) مخالبها للناس... اعتقل والد الاستشهادي وإخوته، وبدأت حملة اعتقالات واسعة في صفوف الناس شملت كل من يُعتقد أنّ له أدنى علاقة بالثوار، وعاش أبناء (الواحة) في كرب من نوع جديد:

الأخ يعتقل أخاه... ابن العم يعذب ابن عمه... والجار يتلصص على جاره ويشي به !!!

وبسطت الشرطة الجديدة خائنةَ أعينِها، وريبَةَ ظنونِها، ومسترَق سمعِها، ومختَلِس ذراعِها تنتهك كل حرمات الناس، وحرياتهم... وصار التساؤل يتردد على شفاه الناس:

– هل هذه الحرية التي وعدنا بها؟؟؟! أهذه هي (الواحة) الحرة؟؟!

ولكي يلهي الناس، عمل (نبيل) على نشر الملاهي الترفيهية، والإكثار من عقد الحفلات الراقصة، حتى باتت (الواحة) اليوم غير (الواحة) التي كان يعرفها الناس!

لم يعجب هذا الوضع الجديد (عامر) و(هاشم). أما (هاشم) فقد قرّر الاعتزال، وأغلق عليه بيته، في حين كان ل (عامر) رأي آخر، (قال لثائر):

– (عامر): لقد أحببت فيك ثائرا الثائر، ولمّا وقعت الصلح قلت: هي فترة عابرة وتمضي، نضع أقدامنا على أرض صلبة، ثم نواصل... لقد أطلقت يد (نبيل) ليفعل كل ما يسيء لك، ولكل حر... لم تعد تهمك إلا النتائج... المهم أن تحقق ما تريد أيّاً كانت الوسائل... لم أكن أتخيّل يوماً أنّ ثائراً يعتقل ثائراً!! وأن مجاهدا يطعن أخاه في الظهر!! إنهم يخدعونك (يا ثائر)... الآن أدرك ما قاله (شهيد) لك: إنهم يخدعونك... حين تقضي على المقاومة سينتهي دورك، ويقضون عليك.

لا يلام الذئب في عدوانه ... إن يكُ الراعي عدوَّ الغنَمِ

”لقد منحونا ظلاً لسلاح... وسيوفاً لا تحكمها أكفّنا... ثبّتوا أقدامنا الحافية على الرمل، وغيّروا اتجاه سهامنا، وحين أطلقنا النبال لحماية الوطن لم نجد على الرمل غير دمائنا!!! لقد جعلونا نتحرك في مواضعنا، وعندما مكّنونا من نقل أقدامنا اتجهنا إلى الوراء لا إلى الأمام!!! وحدنا الذين رهنّا تاريخ نضالنا السابق، وعذابات السنين... مقابل سيف صديء، وعرش من ورق... وحدنا خسرنا.... ووحده شعبنا من يدفع الثمن...!!!“

ما على هذا تبعناك.... وداعا يا (ثائر)...

ثم تركه وخرج!!!!

وظل (عامر) يبحث عن الثوار، حتى تعرف إلى (محمد)، فلما اطمأن إليه تم تجنيده للعمل في صفوف الفرسان، وكان بما يحمله من معلومات مكسباً لهم.

***

كتب (ليث) إلى (زهرة):

أمضـي أُقلِّب قلبـي كلَّ ناحيةٍ

بين الحبيب.. وبين الأرض والوطنِ!

هذا يريـــد بأن أحـيا بجانبِهِ

وذاك يطلب أن آتيــه في كفـــني!!

محبوبتي في ثياب العرس صابرةٌ

ترجو لقاي... مع الأحلام ترقبـني

حتى يعوّضها قربي الذي صَبرَت

وذلك الوطن المنكـوب يطلـبني..

لكنه ليس يرضى في الهوى مهراً

إلا دمـاي.. وبـذل الروح والبـدن

أشريكة العمر.. هل ترضين يا عمري

أن تركبي أبحري.. أن تركبي سفني؟

حتى نوجّـه للأوطـان أشـرعةً

أقـوى من الريـح والإعصار والمحنِ

هيا لنعقد فوق الريح حفلتنا

ريحـاً تسـافر للشـطآن في وطنـي

فكتبت تقول له:

إني رضيتك في صعبٍ من الزمن

أنّى ارتـحلتَ فقـد وجـهتُها سفـني

يا شاطئ الحب هل ترسو مراكبنا

مـلّ السفين من التفتـيش عـن وطني!

صبر الليوث على اللأواء فاصطبِرَن

ليثَ الليـوث.. وكـن للبأس والمحنِ

البحر دونك بحر دونه مدد

من البـحـار... فهلاّ تصمدي سفني؟؟

سأبتني من خيوط الصبر أشرعتي

وأنسج الخيط بعد الخيط من بدني

إني رضيت.. وأرضى يا فتى عمري

لا هائجُ الموج يثنيني.. ولا وهني

امضي لنقعد فوق الريح حفلتنا

ريحا تسافر للشطآن في وطني

إنها المرة الأولى التي يعلم فيها (ليث) أن (زهرة) تنظم الشعر، فكانت مفاجأة رائعة له!!

***

تمت إحاطة منزل (مصعب) بثلاثة حراس على مدار الساعة يُمنع من مغادرته إلا بإذن. وبعد تحريات طويلة استطاع (نبيل) أن يعرف أن (شهيد) متزوج من فتاة تُدعى (خولة) عرف مكان منزلهم، وذهب إليه مع مجموعة من الحرس... شاهدته إحدى صاحبات (خولة) فذهبت تخبر (مصعب) بالأمر...

طرقوا على أم (خولة) الباب بشكل مرعب قصدوه... نظرت من وراء الباب فعرفتهم، ففتحت، فدخلوا... أخذوا يفتّشون:

– (أم خولة): عم تبحثون يا أذناب الاحتلال؟

– (أحد الشرطة): أغلقي فمك.

– (نبيل): دعها... أين ابنتك (خولة)؟

– (أم خولة): حيث أخبرتك عيونك... أعماها الله.

– (نبيل): كيف ترضين لابنتك الوحيدة أن تدفن شبابها في الجبال مع رجل ميّت لا مستقبل له؟!

– (أم خولة): أفتظنّ أنك حيٌّ أنت؟! أنت والله الميت وما تدري!!

– (نبيل): كم مرة تزورك؟ متى زارتك آخر مرة؟ أخبريها أنها إن لم تسلّم نفسها لتنجو، وتدلّنا على مكان زوجها، فسيكون مصيرها كمصيره!! سنجوب الجبال شبراً شبراً... سننقِّب تحت كل حجر... وراء كل شجرة [قاطعته]:

– كالكلاب.........

في تلك اللحظة سمع (نبيل) صوت صراخ في الخارج خرج فإذا (مصعب) مشتبك في عراك (باليد واللسان) مع الجنود:

– (نبيل): ما الذي أتى بك وكيف خرجت؟

– (مصعب): أتحسب أن لديك رجالا؟! أنت وشرطتك أجسام ليس فيها رجالها!! إنهم مقيّدون عند البيت، فأرسل من يفكّ وثاقهم. اسمع [وتقدم نحوه وهو يحملق في عينيه] ستكون نهايتك على يدي في اليوم الذي يمسُّ فيه أمَّ (خولة) أي أذى... أفهمت؟؟ أما (خولة) و(شهيد) فهما أكبر من أن تنالهما، وأنت أصغر من أن أفكّر أنك يمكن أن تؤذيهما!! هذا تحذير أخير.. إياك وأم (خولة)!!

كانت عيون (مصعب) جارحة كالصقر... اخترق الرعب قلب (نبيل)، وأيقن بجدية التهديد، فسحب رجاله دون أي جواب، غير أنه

وضع حراسات وعيوناً حول المنزل تراقب كل دخول وخروج.

أما (شهيد) و(خولة) فقد كانا قررا منذ زمن أن يقطعا صلتهما بأهلهما تماما، فقد صارت (الواحة) كلها عيونا (لنبيل) !!

***

قلّل الثوار من استخدام العمليات الاستشهادية إلا للردع والرد بسبب صعوبتها من جهة، وبسبب ردّة الفعل الكبيرة عليها، وعاودوا أسلوب قنص الجنود في الشطر الجنوبي، حيث استخدموا الرماية عن بعد بالنبال، وكان أسلوباً فعالاً، رغم أنّ حصيلته كانت قليلة...لكنه كان كسراً لتلك الذراع المدرّعة بالحديد، وهو ما يعني كسر هيبة ذلك الجيش. ممّا يعمّق التساؤل لدى أبناء شعبه:

– هؤلاء الجنود لا يستطيعون حماية أنفسهم، فكيف سيحموننا؟! ما قيمة بقائنا في هذه الأرض إذاً؟!..

كان (شهيد) ينزل من الجبال على فرسه حتى إذا اقترب من المدينة نزل عنها..ثم تسلل من أطراف المدينة حتى يصل تجمعات الغزاة، فيصطاد أحدهم، ثم يلوذ بالفرار كما أتى. كانوا ينوّعون الأساليب، فمرة تأتيهم الرميات من داخل المدينة، ويلوذ المهاجمون بالفرار إليها، ومرة تأتيهم من خارجها، ويلوذ المهاجمون بالفرارمنها. وبعد عدة عمليات ارتأى الغزاة أن يملأوا مداخل المدينة الجبلية بالرماة، بحيث تكون بين كل اثنين منهم مسافة معقولة، وذلك بهدف رصد أية حركة، وكانت الأوامر

إليهم واضحة بإطلاق النبال على كل متحرك... كانوا يتواجدون في الليل وينسحبون في النهار... كان (شهيد) يحرص على تغيير تكتيكات هجماته شكلا ووقتا، ومكانا تحسبا للرصد... وفي إحدى الليالي عندما كان عائدا من عملية له، وحين صفر على فرسه يطلبها، سمعه أحد الرماة، واتجه نحو الصوت، فلمحه من بعيد... وفي أثناء ركوبه فرسه أطلق نحوه سهمه، فأصابه في ظهره... فانحنى على فرسه التي أخذته إلى (خولة). وبسبب الظلام الدامس لم يعرف الجندي الرامي نتيجة رميته، فلم يخبر أحدا من مسؤوليه.

وصل (شهيد) إلى مخبئه حيث (خولة)... لم يستطع النزول عن فرسه... أخذت بالصهيل، فخرجت (خولة)... كان الوقت بعد منتصف الليل... شاهدت إصابته... أنزلته ببطء وحذر... حاولت إدخاله للداخل، فلم يستطع المشي... أبقته خارج الكهف، وعكفت على علاجه... أخافها مكان السهم بعدما نزعته؛ إنه موقع يمكن أن يصيبه بالشلل ويمنعه عن الحركة!... كان (شهيد) قد أغشي عليه، وعندما أفاق في الصباح على أشعة الشمس، لم يستطع أن يحرك رجليه! لقد صدق حدس (خولة)... لقد شُلَّ (شهيد)، ولم يعد قادراً على استخدام رجليه!... كان خبراً كالصاعقة عليها وعليه! ثم إنها أخذت تسليه وتواسيه وتطمئنه أنه يمكن أن يشفى، لكنها كانت تعلم خلاف ذلك إلا أن يشاء الله.... دخل الكهف بمساعدتها. وبعد يومين وصل (إبراهيم) و(محمد)، وكادت قلوبهما تنفطر على الخبر... كان (شهيد) قد استوعب الموقف وتأقلم معه ورضي بقضاء

الله الذي لا يقضي إلا بالخير...

– (شهيد): قد كانت لي رجلان أتحرك بهما فقط، أمّا الآن فقد أصبحت لي أرجل وأرجل، فأنا أتحرك بأرجلكم جميعا، ثم إن عقلي ويداي لا زالا بخير وسيواصلان دفعهما زكاتهما من الجهاد حتى ألقى الله... يمكنني مع قليل من التدريب أن أعتمد على فرسي الأشقر في التنقل، ورمي النبال من على ظهره.. سيكون أمرا ممكنا. لن توقفني الإعاقة عن الجهاد. لقد ذقت حلاوة الجهاد في سبيل الله، ولن أتركه حتى تنفرد سالفتي. لن يهجر غبار المعركة ثيابي أبداً... لن أموت إلا الميتة المطهرة [وأشار إلى رقبته بالذبح]... لن أموت إلا على ظهر الجواد..

كانت عيون (إبراهيم) و(محمد) تدمعان، وهما يستمعان إلى (شهيد)، غير أنّ ما حدث لم يزدهما إلا تصميماً، ومضاءً... اتفق الفرسان على إخفاء الخبر، وتحاوروا في صعوبة الظروف الميدانية على الأرض بسبب تحالف الغزاة مع الشرطة، واشتداد الأذى والتعذيب للمجاهدين في السجون.

– (شهيد): سننتصر أيها الأخوة... سننتصر بإذن الله لأننا أصحاب حق، ولأن أرضنا للأبطال ولود، ورحمها خصيب. ولأنهم زبد لا بدّ أن يذهب جفاء لكي لا يمكث في الأرض إلا ما ينفع الناس... وسننتصر لأننا نحب الموت كما يحب أعداؤنا الحياة، فثقوا بالله واستمطروا رحماته، فالفجر لا يأتي إلا وليلٌ يسبقه يبشِّر به، وينثره في عيون الصابرين.

***

أرسل لها:

«لم أعد أفزع من الموت حتى لو جاء اللحظة!! لقد أخذت في هذه الحياة كثيراً... أعني لقد أعطيت!! لست أعني أنّ أحداً قد أعطاني شيئاً، ولكنّ سعادتي بما أعطيت لم تكن بأقل من سعادة الذين أخذوا.»

«إن السعادة مصدرها من الداخل، وليست في اقتناء الأشياء، وقانونها هو (خذ) وليس (هات). وسيعلم الذين ينفقون من دينهم وكرامتهم على جيوبهم وبطونهم، أنهم لن يكونوا سعداء ولا محترمين.»

يا لأولئك الصغار الذين لم يروا في (الواحة) إلا كعكة يخشون أن يشاركهم غيرهم في قضمها!! ويحهم وهم لا يرون في الوطن إلا مشروع استثمار تنمو به كروشهم وقروشهم وعروشهم.

ويا لصدق من قال: نحن في سعادة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها بالسيوف!!! إنهم لا يعرفون إلا لغة الأخذ، فيشهرون سيوف سلطانهم ومناصبهم كي يأخذوا حقوق الناس، ويسرقوا أموالهم بحثاً عن السعادة التي لن يجدوا طعمها... وهيهات.... إنهم يبحثون عنها في المكان الخطأ!! حيث (الأخذ). ولا يفقهون، ولن يفقهوا أن قانونها هو (العطاء)... فلنحن والله بما نعطي ونقدّم أسعدُ الناس، وهم بما يأخذون، وينهبون أشقى خلق الله!!

فكان ردها عليه:

لقد تعلمت معك يا (ليث) أن الحب يعني العطاء!! و لم يذق طعم الحب والله من كان مذهبه في الحب الأخذ.... أليست (الواحة) هي أول من

علمنا هذه الفلسفة في الحب؟! لقد أعطتنا الكثير، ومنحتنا الكثير، أفلا نكون أبناءها الأوفياء؟ والمحروم يا حبيبي من حُرِم هذا الحب...

ولذةٌ نحن فيها ليس يدركـها　　　إلا الذي عاشها في ظل رحمن
بغى الملوك علينا عندما علموا　　　أنّا سمـونا علـيهم دون تيجان

***

بعد سنة كاملة من المر والعلقم أذاقها الصلح المستسلم (للواحة)، كُشف فيها القناع عن القناع، وبدت سوءات وعورات..... بدأ (ثائر) يدرك أن الغزاة قد خدعوه، فأخذ يعد للانقلاب عليهم.... اتصل (بعامر) سراً وأخبره بنيّاته، فسرّ كثيراً، واتفقا على أن تكون الخطوة الأولى في مشروعهم إطلاق سراح جميع المعتقلين، وإلغاء الضرائب عن الناس. وحذر (عامر) (ثائر) من (نبيل)، وقال له أن ولاءه للغزاة أكثر من ولائه له، لكن (ثائر) قال له:

بل ولاؤه لجيبه، وأنا أعرف مفاتيحه، فلا عليك.

صعق (نبيل) من قرار (ثائر) المفاجئ، وجن جنون الغزاة...

خرج المعتقلون من السجن، وألغيت الضرائب، وعمت الفرحة بيوت (الواحة).

طلب (فرودو) (نبيل) ووبخه، واشتدّ عليه في التهديد والوعيد، وأخبره أن يوصل (ثائر) رسالة مفادها، أنه يلعب معهم بالنار، وأنه سيكون أول المصطلين بها. كان (نبيل) يرتجف من هول التهديد الذي أوصله (لثائر)،

لكن (ثائر) كان مطمئنا أنهم يهدّدون فقط، وأنهم محتاجون إليه، ولن يفكروا بالتخلص منه... ذلك أن البديل ساعتها سيكون (شهيد)، وهذا ما لا يريدونه، فهو مهما كان خيرٌ لهم من (شهيد)... لذلك فقد كان يتصرف بأعصاب حديدية ونفس مطمئنة.

نقل (عامر) للفرسان تحولات (ثائر) وأن قراره الاستراتيجي الجديد أن يطلق يد المجاهدين في فعل ما يشاؤون، كي يجبروا الغزاة على الانسحاب من شطر (الواحة) الجنوبي كاملا.

فقرر الفرسان قرارهم الاستراتيجي بتفجير الثورة، ولكنهم هذه المرة قرروا أن يملكوا زمام المبادرة، وألا يسمحوا للتجار بقطف ثمرة جهادهم،ليكون رأسهم الثمن!

أما الناس فقد كانوا في كبت شديد، فما أن شعروا أن الأمور قد تبدّلت، حتى ثاروا بشكل عفوي، وأخذوا يرجمون الغزاة بالحجارة والعصي، ثم إن الفرسان أعادوا تنظيم صفوفهم من جديد، وأشعلوا الأرض بالاستشهاديين من تحت أقدام الغزاة، وتصاعدت الثورة بشكل عجيب تجند لها كل الناس، ووصلت أخبارها إلى المدن العربية المجاورة، فعادت إليها الحياة.

واستغل (خالد) ورفاقه الموقف، وسرّعوا من عمليات الحشد والتنظيم والإعداد، ثم إن (خالد) أرسل إلى (شهيد): أن الجيوش العربية ستكون مستعدة في غضون عام تقريبا لنجدة (الواحة) وطرد الغزاة منها، وما عليهم إلا مواصلة الثورة العظيمة.

وبعد شهر من المواجهات العنيفة عُقد لقاء عالي المستوى جمع (الملك تيودور) و(آلفونسو)و(ريمون) و(أفلاطون) من جهة مع (ثائر)و(نبيل) و(عامر) من جهة أخرى.وكان (ثائر) أقوى وأصلب وأعند مما مضى. وصار واضحاً لديهم أنه لا أمل في تراجعه، وفشل اللقاء حسب وجهة نظرهم فشلا ذريعا.

اقتنع الملك (تيودور) أنه لا مناص أمامهم إلا أن ينفذوا مطالب (ثائر) وأن عليهم الانسحاب كاملا من شطر (الواحة) الجنوبي، وجنّ جنون (ريمون)، فاتخذ قراره النهائي بالتخلص من (تيودور) على يد (آلفونسو) ليتخلص من كليهما معا.

طلب (ريمون) من (فرودو) أن يجمعه مع (نبيل) الذي حضر على عجل، خاصة وأن لقاءه هذه المرة مع (ريمون) نفسه:

- (ريمون): هل تحب (ثائر) يا (نبيل)؟
- (نبيل): لا أدري؟
- أفهل تكرهه؟
- لا.
- هل تخشاه؟

سكت (نبيل).....

- حسناً... هل تكرهنا؟
- لا... لا.... ياسيدي.
- هل تحبّنا؟

– نعم

– هل تخافنا؟

وسكت (نبيل) مرة أخرى!...

– من تخاف أكثر نحن أم (ثائر)؟

لم يجب (نبيل)!

– هل تحب موت (ثائر)...؟

– ربما... الحقيقة بعد انقلابه على ما اتفقنا عليه بِتُّ أتمنى موته، أو اعتزاله... لقد دمّر كلَّ ما بنيناه، وأوقف مسيرتنا، ولا أدري ما دهاه!!

– لو كنت مكانه أكنت تفعل ما فعل؟

– أعوذ بالله يا سيدي...!

– تخيّل أنه مات الآن... واستلمت مكانه... ماذا ستفعل؟

– سأوقف كل هذا الجنون، وأعود إلى سابق عهدنا، واتفاقاتنا.

– ما رأيك أن نساعد السماء في التخلص من (ثائر)؟

ارتبك (نبيل)، وتلعثم، وتردد... وقال (ريمون):

– لا تخف يا (نبيل) أنت أضعف، وأجبن من أن تعتمد عليك السماء في مساعدتها... انتهى لقاؤنا... نراك قريبا.

تحدّث بعدها (ريمون) مع (فرودو) قائلا:

– يظن نفسه ذكيا هذا ال (ثائر)!! إنه لا يعرف مصير من يقف في وجهنا.

– (فرودو): ولكن يا سيدي ألا تخشى أن يكون (شهيد) هو البديل

عن (ثائر)؟؟!

– (ريمون): هذا ما كان يظنه (ثائر)، فأقام تحركه بناء عليه واطمأن إلى أننا لن نتخلص منه، وسنفضّله على (شهيد)، لكن الأحمق فاته أنّ من حوله ليسوا رجالا!! لقد عوّدهم على الخوف منه، فكرهوه... سيكونون سعداء بالتخلص منه، لأنه عطّل مصالحهم، وسيكونون هم البديل بعده، ونظن أن (نبيل) خير منه، فهو الذي سينفذ كلَّ ما نريد.

– (فرودو): ما رأيك يا سيدي أن نرسل له تحذيراً أخيراً: نقتل (عامر) لعله يشعر بالخوف، ويتراجع.

– (ريمون): جيد... على أن يكون ذلك سريعا، فلا وقت لدينا.

– (فرودو): اليوم..... اليوم... يا سيدي سنرسل رأس (عامر) هدية إلى (ثائر)!

وفي مساء ذلك اليوم وصل وفد من الغزاة إلى حصن (ثائر)، وقالوا له بحضور (نبيل):

– هذه هدية سيدي (ريمون) لك...

ثم رموا برأس (عامر) أمامه...

امتلأ (ثائر) غيظا وأخذ يصرخ بهم:

– ويحكم أيها الأوغاد...! قل لسيدك: (ثائر) لا يخاف الموت. اغرب عن وجهي...

أما (نبيل) فقد كان يرتعش من الخوف:

– (ثائر).... إنهم جادون...... سيقتلونك؟

– (ثائر): لا تكن غبيا وأحمقا.... لن يمسوني بسوء... مصلحتهم لا زالت معي، وهذه الألاعيب لا تنطلي على (ثائر).

أعلن (الملك تيودور) أنّ مسؤولياته تجاه شعبه تقتضي أن يتخذ قراره الصعب، لذلك فقد حدد موعداً لاجتماع هام بعد أسبوع، ليعلن لأركان المملكة قراره المصيري الذي لا رجعة عنه.

اعتكف (ريمون) ليلته في غرفته، وحضّر خطته للتخلص من كل خصومه في يوم واحد.

اتفق (ريمون) مع (آلفونسو) على التخلص من الملك قبل يوم إعلانه لقراره الكارثي... كانت خطة (ريمون) التي أقنع بها (آلفونسو) أن يجند (ريمون) أحد المتطرفين الغزاة الذين يرفضون فكرة الانسحاب من الأرض لأنها وعد الرب!! وذلك ليقتل الملك، فيقوم (آلفونسو) حينها بقتل ذلك المتطرف، ومن ثم تتم توليته ملكا على المملكة، إذ هو من اقتص من قاتل الملك، وهو نائبه، وقال (ريمون) لـ(ألفونسو) إنه سيغير حراسات الملك، ويضعهم بمعرفته، لإتمام المهمة، واتفقا على كل التفاصيل... أضمر (ألفونسو) في نفسه أن يكون أول عمل له هو سمّ (ريمون) في أول حفلة احتفال... غير أن (ريمون) كان الأخبث والأدهى.

في تلك الليلة الليلاء كان (ريمون) على موعد غرامي مع (ليئات)، فلما التقى بها قتلها، ثم توجه إلى أمّها التي واعدها أيضا في ذات الوقت.... قام بخنقها... لكنها أخبرته وهي تلفظ أنفاسها أن (ليئات) هي ابنته وليست ابنة (تيودور)، وأوصته بها خيرا.

– (ريمون): عليك اللعنة...... عليك اللعنة أيتها الشيطانة!!!

ثم رفع يده وأخذ ينظر إليهما:

– (ليئات).... ابنتي...!! ضاجعتها، ثم قتلتها... اللعنة!!

ثم أخذ يضحك تارة، ويبكي أخرى! ولولا أنه صلب لفقد عقله!!!

في تلك الأثناء كانت خطة (ريمون) تمضي في طريقها: متطرف معتوه يدخل على الملك و(ألفونسو)، فيقتل الملك، فيقتله (ألفونسو)، فيدخل حراس الملك الجدد فيقتلون (ألفونسو).

واجتمعت المملكة وأركانها، وانتشر الخبر كما أراد (ريمون): (ألفونسو) يقتل الملك (تيودور)، فيقتله حراس الملك... حضر (أفلاطون) و(بيريس) و(بيني) و(فرودو)، ثم حضر (ريمون)، ولمّا يُفِق بعد من أثر الصدمة التي مرّ بها، لذلك بدا عليه التوتر والغضب الحقيقي... وقرروا في تلك الليلة تتويجه ملكاً للملكة.

في ساعات الصباح كان شطر (الواحة) الشمالي يعلن موت الملك(تيودور)، وتولّي (ريمون) الملك مكانه، في حين كان شطر (الواحة) الجنوبي يعلن وفاة (ثائر) المفاجئة، واستلام (نبيل) زمام الأمور مكانه... أخبر الطبيب (نبيل) أنّ (ثائر) قد مات مسموما، فطلب منه أن يكتم الأمر، ثم أرسل من يقتله، ليبقى السّرّ دفيناً لا يعرفه أحد.

عاد (نبيل) إلى سياسته القديمة، وفتح سجونه للاعتقال وأعاد فرض الضرائب، وأمده الغزاة بالسلاح والمال... لكن الثورة كان قد اشتد عودها، وصارت عصيّة على الانهيار، متطاولة على الهدم، متعمّقة على الاجتثاث.

***

وصلت رسالة (ليث) إلى (زهرة) يقول فيها:

في زنزانتي الموحشة حيث الوحدة والضيق، لولا رحمة الله زارتني ضيفة، فقلت وقد ناجيتها وناجتني أحمّلها هذه الرسالة:

جاءت إليّ صديقة «الحمداني» وأتت يخالط شجوها أشجاني
هلاّ حملت رسالتي لأقارب ضلّوا طريق الرشد والإيمان
هلا طرقت بنبض قلبي سمعهم تحيي موات النائم السكران
قولي لمن باع البلاد رخيصةً وارتد.. يحرس دولة العدوان
لن يرحم السيف العدو رؤوسكم أنا أول ولأنت بعدي الثاني
لن يسمعوك فقد تغشى قلبهم سهمٌ وسهم.. ثمّ سهم هوان
هانوا وقد سهل الهوان عليهمو ماتوا فما ألموا لجرح سنان
صلي عليهم... كبّريهم أربعاً ولتقرئي الموتى: بسبع مثاني
أعشيقة الأسرى وكل مجاهد بالعمر يرسم لوحة الأوطان
أفلا اقتحمت على الغزاة حصونهم مثل اقتحامك خلوتي وأماني
قولي لهم لن يأمنوا في أرضنا أرض الإباء.. عصيّة الإذعان
القبر موطنكم.. وإلا فارحلوا لا عيش للمحتل في أوطاني
ثم انقلي ياحلوتي لحبيبتي حبّي المعذب.. مدّه شرياني
وإلى اللقاء الحر في أوطاننا عند ابتسامة أنهرٍ... وجنان

فكتبت له:

أنا عاتبة عليك كل العتب يا (ليث)... أما تعلم أني:

أغار عليك من عيني ومني ومنك ومن زمانك والمكان

ولو أني خَبَـــــأتُك في عيـــوني   إلى يـــوم القـــيامة مـــا كفـــاني

كيف تسمح لنفسك باستقبال ضيفة في زنزانتك؟ ثم تقول لها: يا حلوتي ؟؟!!

لولا أنك في الأسر... لما سامحتك!!! إياك أن تعود لذلك!!!

مع خالص حبي ودعائي

و لم يكن (ليث) و(زهرة) يعرفان أن هاتين الرسالتين ستكونان آخر رسالتين بينهما.

***

استدعى (فرودو) (نبيل) وقال له:

– (فرودو): اسمع يا (نبيل)... الثورة اليوم قوية، وهي في تصاعد مستمر، وقوتك ليست بالقوة التي تؤهلك للقضاء عليها...

– (نبيل): [مقاطعا]: ولكني أفعل كل ما بوسعي...

– (فرودو): لا تقاطعني يا (نبيل)!! أنا أعلم أنك تبذل قصارى جهدك، لكن هذا لا يكفي،لقد انسحبنا من حصن رابع وسلمناه لك لنرفع أسهمك، ونهدّيء الناس! لكن هذا لم يجد نفعاً!! ونحن لا يمكننا الانتظار طويلاً. شعبنا تنهار معنوياته، والقتلى في صفوفنا في ازدياد... هذا أمر لا يطاق!! لقد درسنا الأمور بجدّيّة، وعرفنا نقطة الانطلاقة الحقيقية التي ستغير مسار المعركة لصالحنا... قضينا على "الفارس الملثم"، فجاءنا تلاميذه... ثم (شهيد)، وغداً ربما تلاميذه وهكذا... كلّما تخلصنا من رمز

جاء آخر!!... هذه حلقة مفرغة... المشكلة في عقول العرب... في مناهج تربيتهم... يجب تغيير المناهج... يجب أن يكرهوا (شهيد)... يجب أن يتأكدوا أن المقاومة تضرّ بهم... لا بد أن ننزع حب (شهيد) والمقاومة من قلوبهم؛ مصطلحات: الشرف والبطولة، والرجولة والفداء، والمقاومة والحرية، والصمود والتحدي، والثورة والإباء، والعزة والشموخ، والجهاد والشهادة والشهداء...كلها يجب أن تختفي من قاموسهم.

– (نبيل): نعم.........نعم.

– (فرودو)[بغضب]: ماذا نعم؟؟ كيف ستفعل ذلك؟؟... اسمع. علينا إلقاء القبض على (شهيد)، ومن ثم محاكمته ومن خلاله نحاكم المقاومة والشهداء... سنقتله بالحجة والمنطق... سنثبت للناس مدى الضرر الذي سبّبه لهم... سنحشد جيدا للمحاكمة لتكون محاكمة العصر... سننجح يا (نبيل) وستكون النتيجة أن يمزقوا اصوره من على جدران منازلهم.......سينزعونه من قلوبهم.....وحينها سننقض على الثورة الانقضاض الأخير القاصم الحاسم... ملكنا (ريمون) سيشرف بنفسه على العملية، وعلى فصول المحاكمة... إنها فرصتنا الأخيرة، وستكون ضربتنا القاضية لهم... والآن هيا نضع كل إمكاناتنا لإلقاء القبض عليه، وإليك المطلوب منك في خطتنا هذه....

بدأ (نبيل) وشرطته بعملية واسعة لتغيير المناهج، واعتقال الأئمة والمعلمين، وخطباء المساجد الذين لا يلتزمون بالنهج الجديد، وتوظيف آخرين مكانهم ينشرون ثقافة (التعايش) ويتجنبون كل ما يسبب (العنف) و(الكراهية) بين الشعوب... تم حذف قصص الصحابة، والبطولات،

والتاريخ العربي الإسلامي المشرف من مناهج التدريس، حتى لا يبقى ما يثير المتعلمين، أو يبث فيهم الحماسة والحمية.....

***

في مخبئهم الآمن:

– (خولة): عندي لك بشرى يا قرة العين.

– (شهيد): أسمعيني يا حبة الفؤاد، فقد ضاقت علينا الأرض بما رحبت، وضاقت علينا النفوس....

– (خولة)[مع شيء من الحياء]: أنا حامل....

– (شهيد)[في غاية السرور]: الله أكبر... الحمد لله... أحقا؟... يالله!!.. ما أجمل هذا الخبر... انتبهي لنفسك يا حبيبتي....

ثم إنه نظر في السماء وقال:

– قد كنت أتمنى أن يولد بِكرنا بعد تحرير (الواحة) لأسميه (سلام)، فنحن نحمل رسالة السلام للبشر جميعا... لكنه سلام لن يقوم إلا بعد استئصال هذا الورم السرطاني الخبيث من أرضنا فنريح البشرية كلها منه...

– (خولة): أسأل الله أن يحقق أمنيتك يا (شهيد) فلا زال عمره أياما في بطني...

– (شهيد)[مبتسما]: ألا يفصلنا عن تحرير (الواحة) إلا تسعة أشهر فقط يا (خولة)؟! لا أرى الصورة هكذا، إلا أن يحدث بقدر الله ما

يجعلنا نختصر الزمن، ونتجاوز المراحل بسرعة، وهو ما لا أجده في عالم الأسباب... لا أقول هذا قنوطاً أو يأساً... أستغفر الله، ولكن هكذا تقودني حساباتي... على كلٍّ لعل (سلام) يكون ولدنا الثاني أو الثالث إن شاء الله...

– (خولة): إني أرجو أن يكون الأول إن شاء الله يا (شهيد)...

هز (شهيد) رأسه بالإيجاب مبتسما، وودعها، وقام لأداء مهمته. وقف (شهيد) متكئا على صخرة قريبة، وحمل قوسه ونباله، وصفر على فرسه، فجاءته إلى الكهف، فركبها وانطلق، وكان (شهيد) قد أصرّ ألا يعيقه الشلل عن الجهاد، فصار دوره أن يظل على ظهر فرسه في محيط (الواحة) بين الأشجار الكثيفة، فإذا ما وصل الفرسان راجعين من عملية في قلب (الواحة) وكان الجنود يتبعونهم، غطّى هو انسحابهم برميات سهامه باتجاه الغزاة، فيقتل ويصيب، ثم ينسحب بعد أن يطمئن إلى نجاتهم.

وكانت العمليات تتم في الليل، وكان (شهيد) مسرورا بأداء مهمته، ولم يسمح للشلل أن يشعره بأنه أقل من إخوانه، أو أن يحول بينه وبين أن ينال شرف الجهاد.

وفي ذلك اليوم كان الغزاة نشروا جنوداً متخفين بين الأشجار على ظهور جيادهم، وهي المرة الأولى التي يستخدمون فيها الجياد، وذلك بهدف اللحاق بالفرسان.

عاد الفرسان من عمليتهم، وتبعهم الجنود وما إن خرجوا من (الواحة)، وأمسوا بين الأشجار حتى بدأت سهام (شهيد) تنهال على الغزاة كالعادة

تأمينا لانسحاب الفرسان... سمع (شهيد) صوت صهيل خيول قريبة، فأدرك أن ثمة كميناً ما، فأطلق لجواده العنان، وفرّ سريعا من المكان.. كان جواده سريعاً لم يستطع أحد اللحاق به، لكن كثرة الخيول المنتشرة في المكان جعلته يمرُّ في مرمى سهام أحد الجنود الذي أطلق السهم باتجاه فرس (شهيد)، فأصابه إصابة بالغة جعلت هذا الفرس يسقط على الأرض، ليسقط معه (شهيد).

تحامل (شهيد) على جراحه وآلامه وزحف باتجاه فرسه يحاول نزع السهم الذي أصابها، وما كاد ينزعه حتى سمع اقتراب الجنود منه. لم تتمكن فرسه من الوقوف فزحف بعيداً عنها، وحاول الاختفاء بين الأشجار... كانت سهامه قد نفدت، ولم يكن يحمل سيفه... اقترب الجنود الذين رأوا الفرس، وكان يقودهم (بيني)، وجدّوا في البحث، حتى وجدوا (شهيد) ملقىً على الأرض... عرفوه من صورته التي كانت منتشرة في أرجاء (الواحة)، وكل بيت من بيوتها... كان حدثا لا يقدر بثمن بالنسبة ل (بيني)، ثم إنهم تفاجأوا أنه مشلول لا يستطيع الحركة، فحملوه على ظهر الخيل مقيداً.

ثم حضر (فرودو) الذي قال له:

– كم أتمنى أن أشرب من دمك.... مكانك المقبرة وعليك شكرنا إذ نمنحك الحياة... سنسلمك ل (نبيل) كي يحاكمك شعبك الذي سببت له المآسي والويلات.

سُلِّم (شهيد) إلى (نبيل)، وأودع في السجن بحراسات مشددة أشرف

عليها جنود الغزاة الذين كانوا يرتدون الأقنعة كي لا يعرفهم أحد.

وفي صباح اليوم التالي أفاقت (الواحة) على خبر اعتقال (شهيد)، وأعلن (نبيل) أن محاكمة عادلة ستقام له ويشهدها كل أهالي (الواحة) وذلك بعد شهر من الآن.

وفي حين بدأ (نبيل) و(فرودو) بإشراف (ريمون) الإعداد للمحاكمة والتجهيز لترتيباتها، كان (إبراهيم) و(محمد) و(خولة) يضعون خطتهم لتحرير (شهيد) من المحكمة، وأن يجعلوا من يوم المحكمة شرارة جديدة للثورة.

أي مشاعر لك في الأسر يا (شهيد)؟!.... البطل الذي عشق الحرية... عشقها لشعبه وأمته... عشقها (للواحة)، كما عشقها لأبنائه أن يولدوا أحراراً... ها هو حبيس القيد حيث توأد الحرية، وتموت معانيها... القيد أصعب خيار على نفس المجاهد!... كم طلب الشهادة... طاردها... بحث عنها... لكنها مشيئة الله.... لا بأس، فكل ثمن في سبيل حرية الشعب يهون.

أما (ريمون) فقد أخذ يغايظ (ليث) بخبر اعتقال (شهيد) وهو ما لم يصدقه (ليث)، فوعده أن يجلبه مكبلاً عنده عقب محاكمته.

في حين كان (خالد) ورفاقه يحشدون العرب ضد المحاكمة:

- أيها الناس: كيف تحاكم الأمة أبطالها؟؟! كيف تحاكم الأمة (الشهيد) رمز عزتها وكرامتها؟! كيف يحاكم القاعدون المتخاذلون المجاهدين والثوار؟؟! من يحاكم من؟! لقد سمي الشهيد شهيدا لأنه الشهيد على قعود القاعدين، وتخاذل المتخاذلين... إنه يفضح عجزهم،

ويعرّي خيانتهم، لذلك يلجأون لمحاكمته... بئست أمة تحاكم مجاهديها وشهداءها.... أيها العرب: هل ترضون بمحاكمة (شهيد)؟؟!...

وكان الناس يهتفون بكل حرارة:

– لا.........لا........

بالروح بالدم نفديك يا (شهيد)...

فليسقط العملاء... الخزي والعار (لنبيل)...

والمجد والرفعة والعزة والخلود....

للمجاهدين والشهداء...

والتهبت مشاعر الأمة، وخرجت المظاهرات في كل المدن العربية تندد بالعملاء، وتهتف بالمجد (لشهيد).

قرر (خالد) أن يتواجد في (الواحة)، وأن يحضر المحاكمة، فدخل (الواحة)، والتقى بـ (إبراهيم) و(محمد) و(خولة)، ووضعوا خطتهم بعد أن عرفوا مكان المحاكمة وإجراءاتها.

عكف (نبيل) بإشراف الغزاة على إعداد قاعة المحكمة... وكانت عبارة عن مساحة واسعة محاطة بمدرجات يجلس عليها الجمهور أشبه بملاعب الرومان القديمة. سيدخل النساء من باب، والرجال من باب آخر... حيث إجراءات الحراسة، والتفتيش على باب الرجال مشددة للغاية، على عكس باب النساء.... سيتواجد إضافة إلى الشرطة عشرات من جنود الغزاة يرتدون الأقنعة، حتى لا يكتشف وجودهم أحد. في حين سيختفي (فرودو) ومجموعة من جنوده خلف بيت زجاجي على المنصة،

بحيث يرون ما يجري، ويشرفون عليه ولا يراهم أحد... كانوا حريصين أن يظهروا أنّ المحاكمة عربية لا أثر فيها للغزاة، كي لا تثار حمية العرب وحفيظتهم، ثم إنهم أعدوا فصول المحكمة وبيناتهم فيها، وحشدوا ما استطاعوا من مكر، ودهاء، وأدوات.

بناء على ذلك قامت خطة الفرسان أن يتم تهريب كميات كبيرة من السلاح داخل القاعة، عن طريق النساء صاحبات (خولة) [فقد جاء دورهن الآن]، ويدخل الفرسان المحكمة على أنهم جمهور حضور، وبعد بدء المحاكمة بفترة تبدأ مجموعة أخرى من الفرسان بالهجوم من الخارج مباغته الحراس، وبتحالف مع بعض الشرطة الذين تم تجنيدهم، ثم يشتبك الفرسان في الداخل رجالهم ونساؤهم، ويحرر (شهيد)، وينقل إلى مكان آمن، وكان رأي (خالد) أن يستغل الفرسان الظرف والمفاجأة فيقودوا الناس لمهاجمة حصون الغزاة الثلاثة، لعلهم يحدثون فيهم إصابات بالغة بفعل المفاجأة... واتفق رأيهم أن يؤجلوا إقرار هذه الخطوة لساعة الحدث، معتمدين على الظرف حينها.

عاشت (الواحة) أيامها بترقب شديد، وتعمّد الفرسان التهدئة الكاملة طوال هذا الشهر، ليطمئنوا خصومهم، وهو ما تأتّى لهم.

***

جاء صباح المحاكمة وخرجت (الواحة) عن بكرة أبيها إلى ساحة المحكمة.... الرجال والنساء والشيوخ والأطفال.... هجرت البيوت

سكانها، حتى لو أن سارقاً أراد أن يسرق من أيِّ بيت لفعل بكل سهولة، لكن اللصوص أيضاً كانوا في المحكمة.... كانت إجراءات الحراسة والأمن مشددة على الرجال. أما (خولة) وصاحباتها فتمكنّ بسهولة من تهريب كل السلاح المطلوب في ملابسهن. دخل (خالد) لقيادة الفرسان في الداخل، و(خولة) لقيادة النساء، وبقي (إبراهيم) و(محمد) في الخارج لقيادة الهجوم الخارجي.... وصل الناس، وامتلأت المدرجات، ثم وصل (نبيل) على المنصة يوجّه قاضي المحكمة بتوجيه من (فرودو) كيف يدير المحكمة، ثم دخل (شهيد) مقيداً محمولاً على لوح من الخشب!... وللمرة الأولى يشاهد الناس (شهيد) بعد اختفائه الطويل.... (شهيد) الذي حفرت صورته وبطولاته في كل قلب.... لكنهم الآن يرونه مشلولاً لا يتحرك....

الأسد تزأر في الحديد ولن ترى   في السجن ضرغاماً بكى استخذاء

هذا المشلول حرك الأمة كلها... لم يقعده الشلل عن أداء رسالته في تحرير (الواحة).... وكان مشهداً مهيباً لم تشهده (الواحة) طوال حياتها.

وأخذ الناس يهتفون بعفوية:

- (شهيد)... (شهيد)... (شهيد)...

فأسكتتهم الشرطة... لتبدأ المحاكمة..

***

كان (سلام) يصغي باهتمام منقطع النظير لحديث (أبي البشائر) الذي قال له:

– (أبو البشائر): لو رأيتهم يا بني وقد حشدوا، واحتشدوا، وأجلبوا بخيلِهِم، ورَجِلِهِم، وأعدّوا، وجمعوا، وخططوا، ومكروا..... كان ما أبعدهم عن قتله رغم أنه لم يكن أقرب إلى سيوفهم من دمه.....!!

كانوا حوله آحاداً، رغم أنهم كانوا بالمئات.... وكان بينهم أمة، رغم أنه كان وحيداً!....

أرادوها محاكمة العصر ليحاكموا فيها ال (شهيد)، والمقاومة، فحاكمتهم المقاومة وحاكمهم ال (شهيد)، وكانت بحق محاكمة العصر.. !

– (سلام): وهل كان أبي خطيباً مفوها يا عمّاه، حتى يبزّ حجّتهم، ويدحض إدعاءاتهم، ويكسب قلوب الناس، وعقولهم؟...

– (أبو البشائر): «الخطيب القدير يا بني هو الذي ما إن يثور، حتى يغلي الجو، ويضطرب الشهود، فإذا ما هدأ سكنت الأسماع، وخفتت الأرواح.... يرثي في مقام الرثاء فينسي الناس الخنساء، ويعزّي فيَذهب حرُّ المصاب مع برد العزاء... يصف الليل وهو في الظهيرة، فتحس أنك تحت أسمال الدجى، وتحت أجنحة الدياجير... ويصف النهر فتلمس ثيابك أن تبتلَّ وأنت ناءٍ عن النهر... ويصف جيش الأعداء البعيد، فتنظر إلى مطالع الجبال كأن الطلائع أقبلت، والكتائب دنت».... كذلك كان أبوك يا ولدي، وإني لم أره قويا كما رأيته في ذلك اليوم... لقد كانت قوة منطقه أقوى من منطق قوتهم، وكان حقه الذي يحمله في صدره يتنزل على لسانه تنزّل قطرات الغيث من مشبعات الغمام على مُجدِب الأرض

تحييها، وهي في ذات الوقت تصمُّ بصواعق رعدها آذان المبطلين...

***

نظر (شهيد) حوله فرأى جموع الناس، ومن بين الرجال وقف أبوه (مصعب) يرفع يده اليمنى موحّداً بسبابته، وكانت تلك علامة الثبات على العهد بينهما، فأشار إليه بمثلها... ثم التفت شمالاً فإذا أمّه تحيّيه بيديها، وهي تمسح عن خدّيها الدموع... تحركت شفتاها، فقرأ عبارتها التي كان يحب:

– قلبي وربي راضيان عليك يا (شهيد).....

كانت المرة الأولى التي يشاهداه فيها مشلولاً!... وكان مشهداً عجيباً...

ثم جال بنظره بين النساء فإذا (خولة) ترفع له يديها... ثم إنها أشارت له إشارة فهم منها أنّ هناك خطةً لتحريره، حيث عملت يديها على شكل سفينة بشراع، لتذكّره بتحريرها في البحر، فابتسم وهز الرأس...

ثم إن (شهيدا) قد استبشر برؤية (خالد) بين الحضور، فاطمأن وزاد ثباتاً وقوة....

وبدأت المحاكمة...

– (القاضي)[ووراءه نبيل]: ما اسمك أيها المتهم؟!

– (شهيد)[مبتسما وبأعلى صوته]: أسماني أبي (شهيد)... كي أكون الشهيد:

الشهيد على جريمة العالم الذي يدّعي الحضارة، والعلم في الغرب، حين طرد شُذّاذ آفاقِ بلاده، كي ينشروا في بلادنا الموت والدمار.

أدهى من الجهلِ علمٌ يطمئنُّ إلى   أنصافِ ناسٍ طغَوا بالعلم واغتصبوا

ثم لأكون الشهيد:

على الأخ الذي يغلق عليه بيته، حين يسرق اللصُّ بيت أخيه، فلا تحرّكه دماء أخيه النازفات، ولا تهزه صرخات نسائه والأطفال... وما درى أن دوره قادم!....

ثم لأكون الشهيد:

على كل القاعدين، والمتخلفين، والمخذّلين الذين رضوا بالدون، واستمرؤوا الذّل والهوان...

ثم لأكون الشهيد:

على كل خائن يبيع وطنه، ويصافح اليد الملطخة بدماء شعبه، ويطعن المجاهدين أبناء جلدته في الظهر، بخنجر الغدر والخيانة...

أنا الشهيد عليهم في الدنيا، يوم تصرخ أشلائي الممزقة في سبيل الله لنصرة أوطاني.... تصرخ تدين المجرمين والقاعدين والخائنين...

وأنا الشهيد عليهم يوم يقوم الناس لرب العالمين، فليعدّ كلٌّ جوابَه، فقد أعددتُ الجواب......

أنا الشهيد الحي: (شهيد بن مصعب)

هذا أنا فمن أنت؟!.......

– (القاضي): أكلُّ هذا اسمك؟! حاول الاختصار فلا وقت لدينا نضيّعه........ كم مضى من عمرك؟!

– (شهيد): مضى من عمري سبعمائة وعشرون عاما...!! العشرون عاماً الأولى قضيتُها متعلّماً أتربّى، وأعدّ، وأتجهز لساعة الولادة الحقيقية لي... فكان عامُها يساوي عاما... فيما يعيش الخانعون الهامشيون مائة عام، فلا يكون عمرُ أحدِهِم إلا صفراً، فهو ميّت في ثوب الأحياء!.... ثم إن الله أكرمني بالجهاد، فامتطيت صهوة جهاده، وأشهرت سيف عدالته، وخضتُ للحق، وركبت إليه الغمرات، فإذا سبعة أعوامي من يومها، وحتى اللحظة، سبعمائة عام؛ عامها بمائة... مضاعفةً من الله لأعمار المجاهدين... غير أن عمري لا حدود له!... فيوم أفوز بالشهادة بسيوف غدركم، أو على مشانق ظلمكم سيمتدّ عمري إلى خلود الخالدين... لتفوزوا أنتم بذلّ الدنيا، وخزي الآخرة، ولتكتشفوا حينها أنّ عمري أطولُ من عمر الجلاّدين، والخائنين، والغزاة المحتلين...

فثارت الجموع، وصاح الناس:

– لا.. لن يموت (شهيد)... لن تقتلوا (شهيد)...

– (القاضي)[وقد أخافه غضب الناس]: لماذا تقول ذلك؟؟! نحن لا نريد قتلك، إنما نحاكمك فقط... والآن سأسرد عليك التهم، وأرجو أن ترد عليها واحدة واحدة:

التهمة الأولى: أياديك ملطخة بدماء الأبرياء، والمسالمين فأنت قاتل ومجرم.

– (شهيد): اسمعوني أيها الناس... فلتسمعني كل الدنيا:

كما يولد كل أطفال العالم، وُلِدتُ طفلاً يحلم بمستقبل آمن وادع، لا يرى يده إلا وهي تحمل قلم العلم تنشر به الفضيلة والخير، أو تحمل الفأس، والمنجل تحرث الأرض، وتزرع فيها ما ينفع الناس.... وكنت أحلم ببيت وزوجة وأولاد...... فإذا هؤلاء الغزاة قد صادروا كل أحلامي: كسروا القلم، والفأس، والمنجل.... احتلوا الأرض، وهدموا الدار وشرّدوا الناس..... أمام عيني قتلوا صاحبي على مقاعد الدراسة... لا زال بكاء أمّه وأبيه يهز فؤادي... شاهدت النساء والأطفال يُقتَلون.... رأيت المنازل تهدم فوق رؤوس أصحابها.... سمعت صيحات الثكالى والمحرومات... كم اغتصبت أمام أبيها، أو زوجها فتاة، أو امرأة، فمات من شدة الغيظ... كم... وكم.. وكم. أفإن قتلت بسيف البغي من سلّه، ورميت بسهام الغدر من سنّ نصالها، ورددت عني وعن شعبي وأهلي ظلم المعتدين، وثرت أنصر الأرض والإنسان، أبغي حرّيتهم.... أُتّهم بالإجرام؟! كيف تدان الضحيّة ويُبَرّأُ الجلاد؟! لا... والله ما كنت أحبُّ أن يأتي هؤلاء الغزاة من أقاصي الأرض كي يُقبروا في أرضنا، إذ لا مكان في أرض الأحرار للغزاة إلا القبر. أيها الناس.. يا كل الدنيا: إن كان الدفاع عن الأوطان والأعراض جريمة فأنا أوّل المجرمين.. وإن كانت نصرة المستضعفين من الأرامل واليتامى والأطفال قتلاً فأنا أول القاتلين.

– (القاضي): إذن تعترف أنك قاتل مجرم!! التهمة الثانية: أنت تحارب ثقافة التعايش والأمن والسلام. وتنشر ثقافة الكراهية والحقد بين الشعوب.

أنت مشروع موت للبشرية فماذا تقول؟!

– (شهيد): بل أنا مشروع حياة... حياة لك ولأهلي وشعبي... حياة للبشرية كلها.... ولكنها الحياة الكريمة القائمة على الحق، والخير، والعدل، والإنصاف... الحياة التي لا يَقتُلُ فيها الإنسانُ أخاه الإنسان، ولا يغتصب داره وأرضه، وماله وعرضه، فإن فعل، كان تخليص البشرية من شرِّه، هو أسمى معاني الحياة... وهل انتزاع الورم السرطاني من الجسد، أو بتر العضو المجذوم فيه، إلا حياة لذلك الجسد؟!وهذه هي رسالة المجاهدين والشهداء... نحن لا نكره أحداً من الناس... نحن لم نذهب إلى ديارهم لنحتلَّها! ولا حيث نشأوا وترعرعوا ووُلِدوا فنقتلَهم!... لقد جاؤوا ديارنا لصوصاً سارقين، وقاتلين مجرمين... أفنُحني لهم ظهورَنا كي يركبوا؟ أو نطأطئ لهم هاماتِنا كي يطأوا؟ أم ترانا نمدّ لهم رؤوسنا كي يجزوا؟ ثم يُسَمّى هذا سلاما وتعايشا؟ كيف يتعايش الضحية مع الجلاد، والمقتول مع القاتل؟ كيف أصافح اليد الملطخة بدماء شعبي، أطفاله ونسائه ورجاله؟؟! قل لأسيادك ومن عيّنوك لمحاكمتي: لن ينعموا بالأمن في بلادنا... لن يحلموا بالسلام على جماجمنا... فليرحلوا عن أرضنا... كلِّ أرضنا إن أرادوا السلام... وإنهم والله لابدَّ راحلون، وإلا فليحفروا لهم ها هنا القبور...

– (القاضي): وتعترف إذن بهذه التهمة أيضا...

وهنا قاطعه (نبيل) وقد اغتاظ من سير المحاكمة بهذا الشكل، ورأى تعاطف الناس مع منطق (شهيد)، فأخذ يدير بنفسه بقية المحاكمة... وفي

تلك الأثناء دخل (إبراهيم) و(محمد) بتعاون مع بعض الشرطة العرب. الساحة الخارجية متجاوزين الباب الخارجي، وبدأت في ذلك المكان بينهم وبين الغزاة والشرطة معركة حامية الوطيس لم ينتبه لها أحد داخل ساحة المحكمة، حيث الكل مشغول بما يجري فيها... كانت الأوامر واضحة للفرسان: كل من يلبس قناعاً فهو من الغزاة، فيقتل، أما الشرطة العرب فلا يُقتل منهم أحد، ويُكتفى بأسرهم، أو ضربهم، أو جرحهم عند الاضطرار.

ونترك الفرسان في معركتهم لنعود إلى (نبيل)...

– (نبيل): اسمع يا (شهيد) تحاول خداع الناس البسطاء، مستغلا عواطفهم النبيلة، ومعوّلا على طيبة أخلاقهم. توهمهم أنك تحارب، وتقاتل دفاعاً عنهم، ونصرةً لهم، لتبدو في أنظارهم البطل والرمز والمَخَلِّص!.. توهمهم أنما ثرت، لكي ترفع عنهم آلامهم، وأنت من سببها لهم؟... أعمالك الإجرامية هي سبب قتلهم، وتدمير بيوتهم، وهلاك حرثهم، ونسلهم. توهمهم أنك لهم مشروع حياة، فيما أنت لم تجلب لهم سوى الموت، و لم تمنحهم إلا الموت، و لم ترسل أبناءهم إلا للموت...

ما ذنب هذه المسكينة (أم فارس).....

اخرجي يا (أم فارس)

[فتخرج من وراء ستار أمّ بائسة حزينة مسكينة، تجرجر نفسها من البؤس، والحزن] ثم يواصل (نبيل):

ما ذنب هذه المسكينة، حين ترسل ولدها الأكبر الذي كان يعُولُها،

وأطفالَها الأيتام؟؟! وَأَدتَّ شبابه في ريعانه... غرّرت به، وهو ابن الثامنة عشرة من العمر... أرسلته للموت، وأنت تخدعه بمصطلحات الشهادة والخلود، وتركت أمّه الثكلى تتجرع أحزانها، وتندب حظَّها العاثر!!.... من لها بعد الآن؟!

أهذه هي الحياة التي تهبها لشعبك؟! أجب...؟! أهذه هي الحياة.. وأنت يا (أم فارس). تقدّمي، وأخبري الناس... حدثيهم عن إجرام هذا الرجل في حقك... كوني مثالاً لباقي الأمهات...

وتتقدم المسكينة... تُقَدِّمُ رِجلاً، وتؤخِّر أخرى.... نظرت إلى الأرض، ثم التفتت إلى (نبيل)... ثم قالت:

– (أم فارس): كان ولدي الأحب... كان ينفق على الأسرة بعد موت أبيه... لم يعد لنا معيل بعده...من لأطفالي اليتامى؟! أنا لن أسامحك يا (شهيد)... لن أسامحك... [وأخذت تبكي]...

سكت (شهيد) قليلا.. كان الموقف صعباً، بل ما أصعبه!! وضجّت القاعة بحديث الناس بين متأثر بهذا المنطق مؤيّد له.. أو معارض لم تعد تُسعِفُه الحجة والبيان..

وشعر (نبيل) أنه ضرب ضربته القاضية.......

وفي تلك اللحظة خرج من بين الجموع طفل في الثانية عشرة من العمر، وصاح في الناس.. فسكتوا من هول المفاجأة:

– (الطفل): أيها الناس.. اسمي (عمّار)، أنا شقيق الشهيد (فارس)، أخبركم بما حدث... فاستمعوا إليّ:

قبل أيام جاءنا المدعو (نبيل)، وهدّد أمي أمام عيوننا بأنه سيقتلنا جميعاً إن لم تنفذ أمره، وتقول ما قالت لكم الآن...

وهنا حاول الحراس أن يمنعوا الغلام من إكمال كلامه، لكن الناس التفوا حوله وحالوا بينهم وبينه فأكمل:...

– يأماه لا تخافي لا تحزني... إنّ رزقنا بيد الله لا بيد (نبيل).. قولي الحقيقة للناس: ألم يقتل الغزاة أبي وأخي (عمراً) ابن السادسة عشرة من العمر، عندما كان راجعاً من مدرسته، متجها لأبي ليساعده في الحقل، فقتلوهما معا!!! ألم تقولي يومها ل (فارس): يابني! قُتِل أبوك وأخوك، وهما مسالمان، لم يرفعا سيفاً أو حتى صوتاً. ولا أريدك أن تموت هكذا. قم واثأر لهما. ابحث عن (شهيد) كي يرفع باستشهادك رأسي... وأخبره أني من أرسلك، لأنه كان لايقبل إلا من استأذن أهله... ما دام الموت لا بد منه، فليكن الموت العزيز الكريم... ألم تفرحي يا أمّاه يوم كنّيت نفسي (بأبي شهيد)؟.. قولي للناس أنك زغردت يوم عاد إليك (فارس) محمولا على الأكتاف....قولي للناس أن (شهيد) هو من كان ينفق علينا، ويرسل لنا الأموال، وأن شرطة(نبيل) من سرقها... قولي الحقيقة يا أمّاه...

فهزت (أم فارس) رأسها ثم أطلقت زغرودتها...

وهنا وقفت (أم محمد) بين الجموع تقول:

– أنا (أم محمد)... أرسلت أبنائي الثلاثة إلى (شهيد) كي يشرِّف باستشهادهم أسرتي... لقد رفع (شهيد) رؤوسنا، وأذاقنا طعم العزّة،

والحياة...

ثم أطلقت زغرودتها.... وكذلك فعلت كل النساء.

فقال (شهيد):

– أيها الناس: «إنّ الشجاعة قد تكلّف صاحبها فقدان حياته، فهل الجبن يعفي صاحبه من شر المهالك؟؟!.. كلا، فالذين يموتون وهم يولّون الأدبار، أضعاف الذين يموتون وهم يقتحمون الأخطار. وللمجد ثمنه الغالي الذي يتطوّع المرء بدفعه، لكن الذلّ لا يعفي صاحبه من ضريبة يدفعها وهو كاره مهان!!... والأمّة التي تضنّ ببنيها أيام الحرب تفقدهم أيام السلم، وتلك التي لا تقدم للحرية أبطالاً يُقتَلون وهم سادة كرام، تقدِّم على مذبح العبوديّة أشباهاً يشنقون وهم أذلاّء لئام... ومن ثمّ فمن لم يسهر نفسه للتعليم أياماً أسهره الجهل أعواماً... ولو حسبنا ما فقده الشرق تحت وطأة الفقر، والجهل، والمرض، والتخلف لوجدناه أضعاف ما فقده الغرب وهو يبحث عن الغنى، والصحة، والعلم، والتقدم... فإذا كان الشيء وضده يكلفان الكثير، فلماذا نرضى باليسير، والصغير، والحقير، ولا نطمع في العظيم، والخطير، والكبير؟؟!»

فلتسمع كل الدنيا... كل الدنيا فلتسمع...

سنجوع، ونعرى...قطعاً نتقطع...

لكنا أبداً.. لن نركع...لن نركع...

فامتلأت القاعة بالتكبير، والهتاف بأعلى الصوت...

وفي تلك اللحظة وصل الفرسان ساحة المحكمة الداخلية، وصاروا

بين الناس وبدأت المعركة التي أذهلت الجميع....

عشرات النساء امتشقن السيوف في لحظة واحدة يقاتلن جنود الغزاة!... عشرات السيوف صارت في متناول أيدي الفرسان...

الناس... (نبيل).. (فرودو)... الكل في ذهول عجيب!!!...

يسيطر (شهيد) على حراسه، فيقتل الأول بسيفه، ويأخذه منه، ثم يقاتل وهو في مكانه لا يتحرك.....لا يقترب منه جندي إلا قطع رأسه.

(خولة)، (إبراهيم)، (محمد)، (خالد)، (مصعب)... الكل يقاتل... وفي تلك اللحظة رأى (فرودو) تأزم الموقف، ولم يكن أحد ينتبه إلى وجوده... خاف أن يتم تحرير (شهيد)، فكسر غرفته الزجاجية، وأخذ رمح أحد جنوده، ثمّ رماه إلى ظهر (شهيد) غدرا وغيلة فأصابه في مقتل!!

وسقط (شهيد) على الأرض... هوى البطل الرمز مضرّجاً بدمه الطاهر.... ارتقى (شهيد) شهيداً أمام أهل (الواحة) الذين أحبّوه، وحفروه في قلوبهم، ووجدانهم... رأوه يُقتَل غدراً على أيدي الغزاة... وهنا حدث ما لم يكن في حسبان أحد!....

***

كانت عينا (سلام) قد اغرورقتا بالدموع، وهو يستمع إلى تفاصيل استشهاد أبيه فقال (أبو البشائر):

– (أبو البشائر): «كم من شهيد ما كان يملك أن ينصر عقيدته، وفكرته، ولو عاش ألف عام، كما نصرها باستشهاده!... وما كان يملك أن يُودِعَ القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفّز الألوف إلى الأعمال الكبيرة

بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزاً محركاً للأبناء، والأحفاد... وربما كانت محركاً لخطى التاريخ كله على مدى أجيال.»

كذلك كان استشهاد أبيك يا بني.

***

كان أول الواصلين إلى (شهيد): أبوه (مصعب)، و(خالد). وضعه أبوه على صدره، وأخذت عيناه تدمعان.. وأخذ (خالد) بيده يقبلها وهو يبكي... فنظر (شهيد) إليهما مبتسما، وقال لأبيه:...

– فزت يا أبتاه... الحمد لله... لهذا اليوم قد ولدتني أمي... فزت ورب الكعبة...

ثم وجه كلامه (لخالد):

– (ليث) يا (خالد)... حريته أمانة في أعناقكم... أبلغوه أني أحبه، وأن لقاءنا في جنان الخلد...(ليث)، يا (خالد). أخوك (ليث)... أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله... [ثم لفظ أنفاسه]

وقام (مصعب) خطيباً في الناس:...

– أيها الناس لا يرعكم مصرع ولدي (شهيد)، فإن مصارع الأبطال هكذا... قد أعد (شهيد) جوابه للقاء الله. فماذا أعددتم أنتم؟؟....

فبكى الناس، وكبّروا، وهتفوا:

– بالروح... بالدم... نفديك يا (شهيد)

ثم انتفضوا، وثاروا جميعا... هجموا بصدورهم العارية على جنود الغزاة، وصارت ملحمة لا مثيل لها...

توجه (خالد) و(إبراهيم) و(محمد)، إلى (فرودو) ومن معه، فحاصروهم، وأسروهم، وقُتل كل جنود الغزاة، ووطئ الناس (نبيل) بأقدامهم، فمات تحت نعالها. ثم إن جموع الغاضبين... (الواحة) كلها... توجهوا بقيادة الفرسان نحو حصون الغزاة المتبقية في شطر (الواحة) الجنوبي... توجهوا إليها لتحريرها...

وصلت (أم شهيد) إليه، فأخذته من حضن أبيه، وأخذت تقبّله وهي تبكي، وتبكي... ثم وصلت (خولة)... للمرة الأولى تبكي... جاءت معها أمّها التي كانت تبكي هي الأخرى، متذكّرة مشهد زوجها (حسن)، الذي يتكرر مع ابنتها.... إنها المرة الأولى التي ترى فيها ابنتها، وهي تبكي مثل هذا البكاء... وصلت (شهيد) فضمّته إلى صدرها وهي تبكي وتقول:

- (شهيد)... حبيبي (شهيد)... يا فارس (الواحة) الأجمل، والأروع. قم يا (شهيد)... انهض، فلا زال في الوقت متسع لمعركة لم يخضها الصادقون، ولا زال في الوقت فسحة لأن تقول ما لم تقله بعد... فسحة لخطوة كنت تعتزم أن تخطوها... ولركعة في صلاة القتال لم تتمها رغم عناء السفر الطويل...

إلى أين:

لا الأحباب من فيضك ارتوت ... ولم يرْوَ من عذب الأحاديث معشرُ
أتمضي ولمّا تبلغ الشوطَ خيلُنا ... ولمّا تزل ساح الجهاد تَسعَّرُ
فمن يحشد الأبطال بعدك للفدا ... ومَن بالجهاد الحقِّ فينا يذكّرُ؟!

أستودعك الله... يا قرة العين، وحبة الفؤاد... ولدك سيحمل الراية

من بعدك... سيسير على خطاك... (الواحة) كلها ستحمل رايتك يا (شهيد).

جاء (خالد)، و(إبراهيم)، و(محمد) إلى (شهيد). قبّلوه، وعانقوه، ثم بكوه... عاهدوه على مواصلة المسير، قبل أن يتوجهوا لقيادة جماهير الناس الثائرة التي ذهبت تقتحم حصون الغزاة... وزعوهم ثلاث فرق، كلٌّ فرقة بقيادة أحدهم تتوجه نحو أحد الحصون الثلاثة. وكانت مفاجأة مذهلة للغزاة في حصونهم... أفقدتهم صوابهم... هجم عليهم الناس بالسيوف، والسهام، والحجارة والعصي.... كانوا كالبحر الهائج، والسيل الجارف... لا يقف في طريق زحفهم أحد.

وحدث أمر غريب!..

ترك الغزاة حصونهم، وأسلحتهم، وعتادهم، وركضوا باتجاه النهر فراراً نحو شطر (الواحة) الشمالي لم يلووا على شيء!!... سقط من سقط منهم في النهر، وقُتِل من قُتِل، ونجا الباقون... وصلوا الشطر الشمالي، وأغلقوا أبواب الجسور بين شمال (الواحة) وجنوبها.... وكان خبرا كالصاعقة وقع على مسامع (ريمون) الذي جن جنونه:

– في اليوم الذي أعددناه للانقضاض على المقاومة، تنقلب الأمور، ويحرّر شطر (الواحة) الجنوبي كاملاً، ويؤسر (فرودو)، وتسعة من معاونيه، ويُقتَل (نبيل)، ويسيطر الثوار على مقاليد الأمور.... أي يوم مشؤوم هذا؟!

واحتفلت (الواحة) بيوم التحرير... احتفلت وهي تحمل (شهيد) على

أكتاف الرجال.... حمله (مصعب) و(إبراهيم) و(خالد) و(محمد)... حملوه ودموعهم تبلل لحاهم ووجوههم... وكان الكل يهتف:

بالروح.... بالدم.... نفديك.... يا (شهيد)

بالروح.... بالدم.... نفديك.... يا (شهيد)

***

كان (سلام) يبكي فيما (أبو البشائر) يقول له:

– (أبو البشائر): قد صدق والله أبوك، فقد كان عمره أطول من عمر جلاديه وقاتليه.. إنه الآن على كل لسان في (الواحة)، وفي كل قلب فيها، بل في كل مدننا العربية والإسلامية... إنه في أمجد صفحات التاريخ وأشرفها يا بني نعم:

رُبَّ عمرٍ طال بالرفعة لا بالسنواتِ
وقُطَيراتِ زمانٍ ملأت كأسَ حياةِ

أجل والله:

ويعيـــش أقـــوام وليس تحسُّهم — فكـــأنهم لهـــوانهـــم ما كانوا
وترى عظائم من عظامٍ خُلِّدوا — ما عمّروا، ومضَوا وهم شبان
إن الحيـــاة بقدر مـــا أعطيتـــها — ليست بما مـــدّت لك الأزمانُ
إن لم تزدها كنـــت فيهـــا زائداً — مهمـــا تعمّـــر أيـــها الإنســـان

***

اجتمع (خالد) و(إبراهيم) و(محمد) و(أبو البشائر) و(مصعب) وتوجهوا نحو (فرودو) والمأسورين:

– (إبراهيم): تقدم يا (أبا البشائر) لترد لطمته لك قبل سنوات... أكنت تظن أن هذا اليوم سيأتي يا (فرودو)؟؟...

تقدم (أبو البشائر) ولطم (فرودو) لطمة قوية... وقال له:

– واحدة بواحدة... أتذكر...؟! لكني أذكر! لقد صدق(شهيد)... ها قد رددتها!!

– (محمد): زده يا (أبا البشائر)...

– (أبو البشائر): لا حاجة لي، ذلك شأنكم، فاقتصوا منه على كل جرائمه ضد (الواحة).

– (خالد): والله إن جزاءه القتل. هذا قصاصه العادل، ولولا أنا سنفديه بأسرانا لما استحق الحياة. لقد استشهد (شهيد) وهو يوصينا ب (ليث)...

غادر الفرسان المكان، ووزعوا أدوار العمل بينهم...

يرجع (خالد) فيواصل الدعم والحشد في المدن العربية استعداداً للمعركة الفاصلة. ويتولى (محمد) و(مصعب) و(أبو البشائر) إدارة شؤون (الواحة)، ويتابع (إبراهيم) عملية تبادل الأسرى.

وفي الجهة الأخرى من النهر أدرك (ريمون) خطورة الموقف، فأرسل للامبراطورية العظمى وفدا ضخما يطلب فيه مددا من السلاح والرجال والمال، ويغريهم ويحثّهم على غزو المدن العربية. وبالمقابل فقد قبل صفقة

تبادل الأسرى، حيث يسلّم كلُّ جانب كل أسراه. وبدأت الترتيبات ليوم تبادل الأسرى، غير أن (ريمون) كان يضمر الخديعة!!

اتفقوا على أن يصل اثنان من كل طرف إلى الضفة الأخرى للنهر، وبعد أن يتم الاطمئنان إلى حياة الأسرى، وأعدادهم تتم عملية التبادل. كان عدد الأسرى الغزاة عشرة. وكان عدد الأسرى العرب ألفا... أرسل (إبراهيم) (محمد) وفارسا آخر إلى الضفة الأخرى، وتعمّد إرسال (محمد) ليشرف بنفسه على العملية خشية خداع الغزاة، فلن يرتاح باله حتى يرى كل الأسرى وعلى رأسهم (ليث) أمام عينيه... تمت المرحلة الأولى بنجاح، حيث تأكد كل طرف من أسراه. وظل (ريمون) يتلكأ في تنفيذ الخطوة الثانية حتى حلّ المساء، وهو ما أقلق (إبراهيم) للغاية. ثم بدأت المرحلة الثانية.

عشرة سفن على ضفة النهر الشمالية لنقل أسرى (الواحة)، وسفينة على الضفة الجنوبية لنقل أسرى الغزاة. وقف (صامد) عند النهر يعدّ من يرسلهم إليه (محمد)، فإذا اكتملت المجموعة الأولى (مائة)، وركبت السفينة رفع راية بيضاء ليفرج عن أسير من الغزاة على الضفة الجنوبية، فيركب السفينة، ثم تتحرك السفينتان معاً حين اكتمال الأعداد. وكان (محمد) هو من يتأكد من خروج دفعات الأسرى أولاً، فلا يبدأ باستلام الدفعة التالية حتى يشير له (صامد) أنه استلم الأولى كاملة... أصر (محمد) أن يكون (ليث) في الدفعة الأولى... مرّ عنه فعانقه بحرارة وكانت المسافة بين (محمد) و(صامد) طويلة، وحولها أشجار، ولا يتحرك الأسرى إلا واحداً واحداً. وفي المسافة بين (محمد) و(صامد) تحرك (ليث). وأثناء مشيه انقض عليه مجموعة من

الحراس. فقيّدوه وحالوا دون صراخه، واستبدلوا به أحد الغزاة الذي كان قد لبس نفس لباسه، ولأن (صامد) لم يكن يعرف (ليث)، فلم ينتبه لما حدث، أما (محمد) فقد كان اطمأن لتحرير (ليث).

تمت العملية كما خُطّط لها، وركب (محمد) في السفينة الأخيرة، وتحركت السفن العشرة تقلّ ألف أسير، وتحركت السفينة الأخرى تقلّ (فرودو) وتسعة جنود. وفي الطريق انسل الجندي الغازي الذي كان متخفيا، وقفز في النهر دون أن يراه أحد، حيث الأسرى جميعا فرحون، منشغلون بالتفكير بلحظات اللقاء القادمة مع الأهل. وترك ذلك الأسير الغازي في السفينة رسالة من (ريمون) لأهل (الواحة)...

وصلت السفن الأحد عشر... كان الأهل جميعا بانتظار أسراهم الذين بدأوا بالنزول، وتعانقوا مع أهلهم وأحبابهم، واختلطت الدموع بالزغاريد.... كان من بين المنتظرات (زهرة) حيث كان أَبَوا (ليث) قد توفيا قبل أيام من موعد تحريره وهو لا يعلم.... أخذت (زهرة) تبحث عن (ليث)... كان قلبها يخفق كلما نظرت في وجه أسير فلا تجده!! رأت (محمد) فسألته عنه، فأكد لها أنه موجود، فاطمأنت لكنها لم تجده... عاودت سؤال (محمد) فقلق... سأله (إبراهيم) عن (ليث) فروى له ما حصل.... صاحت (زهرة) بأعلى صوتها:

– (ليث)....... أين (ليث)؟

وسكت الجميع، وخيم على المكان سكون قاتل... أخذت تبكي وتصرخ:

– (محمد): لقد خرج في السفينة الأولى. أنا متأكد. لقد عانقته!

صعدوا إليها وفتشوها فوجدوا رسالة (ريمون):

– حين تقرؤون الرسالة يكون (ليث) بين يدي أتلذذ بتعذيبه... هذا درس في مكر بني شعبي فهل تعلمتم؟! (ليث) صيد ثمين ما كان لي أن أفرط فيه..إلى لقاء قريب مع دروس أخرى..........

ملك (الواحة): (ريمون)

وانهارت (زهرة)، وفقدت وعيها، أما أشقاء (ليث)، فما توقفوا عن البكاء.

وفي اليوم التالي كانت كل بيوت (الواحة) تحتفل بعرس أسراها، إلا (زهرة) التي كاد البكاء يفلق كبدها... جاءتها أختها (بستان) تحمل ولدها من زوجها الذي تزوجته عقب طلاقها من (ليث).... لم تستطع أن تكلمها... لكن عينيها كانتا تشيان بالكثير:

– مسكينة أنت يا (زهرة)!! ألم أقل لك أنك تفكرين بعاطفتك؟؟ لماذا حكمت على نفسك بهذا البؤس؟ لماذا جنيت على نفسك يا (زهرة) ؟؟!

أما (زهرة) فكأنما قرأت عيني أختها، فجفت دموعها فجأة، وقالت بنبرة تحد عجيبة:

– لقد اخترت طريقي. وإني راضية. وسيجعل الله من بعد عسر يسراً.

***

حاصر (ريمون) شطر (الواحة) الجنوبي وسدّ منافذ الطرق المؤدية إليه، بهدف تجويع الناس، ومن ثم تركيعهم واستسلامهم... كان جنوده يملؤون كل مداخل (الواحة). في حين توجّه هو على رأس وفد كبير لإقناع الإمبراطورية العظمى بغزو بلاد العرب، الذين يتجهزون للانقضاض عليهم في (الواحة)، وظل (ريمون) يغري الإمبراطور بخيرات العرب، ويحذره من شوكتهم إن تركهم وشأنهم، حتى نجح في إقناعه، وعاد وهو في غاية السرور يتابع حصار (الواحة).

أما (خالد) فقد أخذ على عاتقه توفير المؤن، وتأمين قوافل الإمدادات (للواحة)، وحشد سكان المدن العربية لنجدة إخوانهم وفك الحصار عنهم. كان الناس يتسابقون للتبرّع (للواحة) بثيابهم، وطعامهم، وشرابهم، وأموالهم... حتى النساء أبين إلا أن يشاركن بحليهن، وجواهرهن... وكانت مشاهدَ رائعة في الأخوة والتكافل. ورغم خطورة الطرق، حيث كان يستشهد العديد من الناس في قوافل إمدادات (الواحة) إلا أن ذلك كله لم يحل بين الناس وبين نصرة إخوانهم المحاصرين... اختار الإمبراطور الأعظم مدينة (الأحلام) عملاً بنصيحة (ريمون)، وأرسل جيشا عملاقا لغزو المدن العربية، بادئا (بالأحلام). وأعلن الفرسان الذين أعدوا طويلاً لهذا اليوم النفير... (سعد) و(المثنى)، ثم تبعتهم بقية الفرسان بكتائبها من كل المدن العربية (حسن) و(علي) و(عزام). وأخذت مدن (السعادة) و(الأمل) و(المرابطين) تمدّ (الأحلام) بالرجال والسلاح، كما تمدّ (الواحة) بالطعام والدواء.

كان جيش الإمبراطورية عظيماً جراراً، غير أن الفرسان كانوا له بالمرصاد، ودارت معارك طاحنة بين الفريقين استمرت أكثر من ستة أشهر

من القتال المتواصل. واستشهد من القادة العرب (مثنى)، فيما تساقط جنود الإمبراطورية بالمئات.

اشتد الحصار على (الواحة) وعاش الناس في ضيق شديد، غير أن نماذج التكافل، والأخوّة والإيثار كانت مضرب الأمثال، حيث تلاحم الناس، وقسّموا بينهم رغيف الخبز، وشربة اللبن. ولم تكن (الواحة) تخلو من ضعفاء أو مخذّلين لسان حالهم ما قال أسلافهم المنافقون من قبل:

– (ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا).أهذا هو النصر الذي وُعدنا به؟ أهذا هو الانتصار الذي ملأتم الدنيا صياحاً، وأنتم تبشّرونا به؟؟! لم ننل منكم إلا الجوع، والخوف!!!!

***

جلس (ليث) في زنزانته وحيداً يفكّر...

– لا إله إلا الله... كانت الحرية مني قاب قوسين أو أدنى... سبحان الله... أي قدر تخبئه لي يا رب؟! أي خير ادّخرته لي يا إلهي الرحمن الرحيم؟ أثق بقدرتك وحكمتك... اللهم ارحم ضعفي، وصبّرني، ورضني بقضائك الحكيم...... ويلي عليك يا (زهرة) ترى كيف استقبلت يوم التحرير وماذا تقولين الآن؟! أتراك نادمة على الارتباط بي؟ ما كان ينبغي أن أقابل وفاءك بالقبول!! كان عليّ أن أحكّم عقلي، ولكنه الصبر الجميل... والله سبحانه المستعان... ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم أنشد يقول:

شطّ النوى وتقــادم العهــد وجرى الزمان بما قضى الوعد

والعمر تحمله خطىً خفيت   تطوي السنين وخلفها تعدو
نجري ولكننا بغير خطى   فكأنما قد غلّنا قيدُ
ونعدّ أياماً وأزمنة   فيملُّ من تعدادنا العدُّ
فقْدُ الأحبة لا نطيق له   حملا.. إذا أنكى بنا الوجدُ
قُسِم الفؤادُ، فشطره وطنٌ..   للموجعات... وشطره وقدُ
يا أيها الوطن الذي انغرست   فيك الخطوب فأورق الجهد
صبراً فمن طالت مرارته   سيطول أكثر بعدها الشهد
يا أيها الوطن المباح على   مرأى بينه وبيننا سدُّ
غرباء يا وطني فمعذرة   ذبح الوريد، وصودر القصد
لكننا قدر.. ولن يقفوا   دون الإرادة إن طغى المدُّ
فاصبر فإن غدا لنا قمرا   ولهم وإن جهلوه مربدُّ
لن يغفل التاريخُ صانعه   أو يكتب التاريخَ مرتدُّ؟!
من كان يعشق مذهباً وجفا   عشق الديار فعشقه ردُّ
قرب الأحبة والرضا وطن   إن أدبرا... لم يقبل السعد
شط النوى ونأى أحبتنا   عنا... ولكن ما نأى العهد

أما (زهرة) فقد جلست في غرفتها وأنشدت تقول:

هل ترانا نلتقي أم أنها   كانت اللقيا على أرض السراب
ثم ولت.. وتلاشى ظلّها   واستحالت ذكريات للعذابِ
هكذا يسأل قلبي كلما   طالت الأيام من بعد الغيابِ

فإذا طيفــك يــرنو باسـما   وكأني في استمـــا ع للجـواب
أو لم نمــضِ عـلى الحق معـاً   كي يعـود الخير للأرض اليباب
فمـضينا في طريـق شــائك   نتخـلى فيـه عـن كل الرغاب
ودفنّــا الشـوق في أعـماقنا   ومضينـا في رضـاء واحتساب
قد تعـاهدنا على السـير معـاً   ثم آجـلتَ مجيـبا للذهــاب
فليــعد قلبــكِ مـن غفـلته   فلقــاء الخلد في تلك الرحـاب
أيـها الراحـل عـذراً في شكاتــي   فإلى طيفــك أنّـــات عتاب
قـد تركـت القلبَ يدمـي مثقـلا   تائها في الليل في عمق الضباب
وإذا أطـوي وحــيداً حـائراً   أقطع الدرب طويلا في اكتئاب
وإذا الليــل خِضَـمٌّ موحـشٌ   تتـــلاقى فيه أمـواج العـذاب
لم يعــد يبرق في ليـلي سماه   قد توارت كل أنوار الشـهاب
غــير أني سوف أمضي مثلما   كنت تلقانيَ في وجه الصـعاب
سوف يمضي الرأس مرفوعا فلا   يرتضي ضعفاً بقولٍ أو جـواب
سوف تحدوني دمـــاءٌ عابقاتٌ   قد أنارت كلَّ فجٍّ للذهــــاب

***

– (أبو البشائر): وفي الشهر السادس من حرب الإمبراطورية العظمى ضد العرب، حيث هي سجال طاحنة كان حصار (الواحة) يدخل شهره السابع مشتدّاً قاسيا، وبلغت قلوب الناس الحناجر، وزلزلوا زلزالاً شديداً... في ذلك اليوم ولدت أنت يا (سلام)... وكان يوماً ما أبهج

سروره على (الواحة) كلها، وليس على أمّك، وجدك، وجدتيك فحسب، ولم تسمّك أمّك، وآثرت الانتظار حتى تسميك (سلاما) في يوم التحرير الذي كانت تراه قريبا... وصار الناس ينادونك (شهيد) على اسم أبيك.

– (سلام): إذن أنا (الشهيد سلام بن شهيد).... أليس كذلك؟!

ابتسم (أبو البشائر) وواصل روايته

***

أخذ ميزان الحرب بين الإمبراطورية العظمى، والعرب تترجح كفته لصالح العرب الذين استشهد منهم أبطال كثيرون، وبدأت معنويات جنود الإمبراطورية في الانهيار، وكان شعراء العرب يلهبون حماسة الناس:

الحرب قانون الحياة فلا تكن ... إلا حساما.. نطقه وحوارُ
فالأرض ما هدأ الصراع ببطنها ... تتصارع الطبقات والأحجارُ
والريح وهي الريح عاتية القوى ... عصفَ الرياح تقاوم الأشجارُ
ولكي تؤدي دورها ونتاجها ... ستحارب الأغصان والأثمارُ
وترى صغار الطير في أعشاشها ... عن عشهن تدافع الأطيارُ
أرأيت ثعبانا يهاجم عشها ... سيقاوم الجنحان والمنقارُ
هو قاتلٌ، هو مجرمٌ متمرِّسٌ ... لكنهم أبناؤها... والدارُ
أفلا تعلّم خانع متخاذل ... منها إذا غزيت لديه الدارُ؟؟
أو لم تشاهد نملة قد دوهمت ... في الرمل كيف تحارب الأظفارُ؟
أو نحلة لسعت غريبا عاديا ... حربا عليه إذا استبيحت دارُ

وتمـوت حـالة لسعه لكنـــما   في موتهـــا دون الحقـوق فخارُ
الكل حارب كي يصون حقوقه   الأرض والحيـــوان والأشجـارُ
كلٌّ يحارب حسبما امتلكت يد   سرّاً بهــا قـد أودع الجبـــارُ
ما جار عدوان عليها واعتــدى   فالكائنـــات جميعـــها ثــوارُ
ما بال شعبي لا تثــور جمـوعه   وعلى حماه تكــالب الأشـرارُ
الحرب يا شعبي عــدوك لا يعي   إلا لغـــات حـــرفهن شـــرارُ
الحرب يا نـــاس العـــروبة إننا   أحـفاد خـــالد جيــشه الكرّارُ
أبداً نـــكرُّ ولا نفرُّ حيـــاتنـــا   لا ليس منـــا في الوغـــى فرّارُ
يا نفس ويحك ما القعود براحة   أيريـــح ذلٌّ أو يريـــح صغـــارُ
يا نفس قد قعد الجبان فـما نجـا   قـبل الجميـع سيهـلك الخـــوارُ
يا نفس ما خوف المنيـة مانـــعٌ   منهـــا.. وليـــس يردّهـا الإدبارُ
فتعلــمي الإقـــدام.. إلا تقتـلي   في الحرب، موتُك في فراشك عارُ

ومات الإمبراطور الأعظم، وجاء خليفته الذي كان ضد الحرب، فاتخذ قراره بالانسحاب. وانسحب جيش الإمبراطورية العظمى، وقد أثخنته الجراح، بعد أن دفعه غرور القوة، وحماقة التجبر إلى أن يتورط في أرض لا تنصاع لأقدام الغزاة، ولا تقبل الباغي الدخيل. أما العرب فقد احتفلوا بنصرهم الكبير وشعروا أن بإمكانهم ما توحدوا تحت راية الجهاد أن يحرروا الأرض والإنسان، واكتسب مقاتلو العرب والمسلمين مع المعنويات العالية خبرة في القتال كبيرة، وتمرساً على فنون الحرب...

وبدأ الفرسان بقيادة (خالد) يعدّون عدتهم، ويجهزون الجيوش

استعداداً ليوم الزحف الأكبر لتحرير (الواحة).

وفي حين وصلت أخبار انتصار العرب والمسلمين إلى (الواحة)، فكانت كالماء البارد في عطش الصحراء، أدرك (ريمون) أن هزيمة الإمبراطورية العظمى كان يعني بداية النهاية لهم، وأن العدَّ التنازلي لعمر مملكتهم قد ابتدأ....

وصارت وفود الغزاة ترحل تباعا... عبر البحر الذي جاؤوا منه... وذهبت محاولات ترغيبه وترهيبه أدراج الرياح في صدهم عن ذلك:

– يا للسماء!! هل يتهاوى حلمنا الذي بنيناه؟! هل تسقط المملكة على يدي؟! هذا لن يكون...

وكان يطارد (ريمون) كابوس مزعج منذ استلم عرش المملكة... كانت تأتيه (ليئات) بمظهر بريء، ثم تتحول كأنها شيطان يتقدم نحوه يحاول قتله فيفرّ صارخا:

– لا... لا.. أمك هي الشيطانة... لا.. يا ابنتي (ليئات)... أمك من قتلك لا أنا....

ثم يقوم فزعا من ذلك الكابوس.... وفي إحدى المرات سمعه (أفلاطون)، فأدرك الحقيقة، وعلم أنه قاتل (تيودور) و(ألفونسو) و(مادلين) و(ليئات) فاتخذ قراره المصيري...

في منتصف إحدى الليالي طرق باب (أبي البشائر) طارق غريب....!! فتح (أبو البشائر) الباب فإذا هو (أفلاطون) بزي عربي ويحمل بيده كتاباً كبيراً...

– (أبو البشائر): ويحك ما الذي جاء بك ألا تخاف؟ ادخل...

– (أفلاطون): لا أريد الدخول. إنما جئتك مودّعا، فقد عزمت على الرحيل... لقد كنت أعلم منذ اليوم الأول أن كل كلمة قلتها لي كانت صحيحة!.... لا مقام لنا هنا ولا أمان، سنعود من حيث أتينا....

– (أبو البشائر): بإمكانك البقاء ضيفا مستأمنا، وأنا أجيرك.

– (أفلاطون): لا حاجة لي بذلك. مكاني ليس هنا. ما شعرت يوما بالأمان والراحة كما أشعر الآن. لقد كذبنا كذبة كبيرة وصدقناها!! وقد جاء وقت الحقيقة... إليك هذا الكتاب فيه كل مذكراتي من أول يوم وصولنا هنا... ستجد فيه أسرار وخبايا المملكة، أقدّمها لك هدية صداقتنا، فلم يعد لأي شيء عندي قيمة.

ثم ودّعه، وانصرف.

أذاع الفرسان بين صفوف الغزاة أنهم سيسمحون بالرحيل لكل من يرغب بذلك، وأنهم سيعطون شهراً كاملاً لذلك، وبعدها فإن كل من وجدوه من المحاربين في (الواحة) سيتم قتله.

وأرسلت الإمبراطورية العظمى العديد من السفن الحربية مع عتادها ورجالها لنصرة (ريمون)، لكن ذلك كله لم يكن كافيا، حيث دب الرعب في نفوس الغزاة وبدأوا بالرحيل الجماعي.

– (بيريس): سيدي الملك، الأمور تزداد تعقيدا وصعوبة. جنودنا في تناقص مستمر. والأهم من هذا أن معنوياتهم في الحضيض!! الأوضاع في تدهور مستمر يا سيدي.

– (ريمون): كيف هي حالة الفيلة؟؟؟ المهم هو المحافظة على قادتها وسوّاسها... سنفاجئهم بها... لن يصمدوا أمامها.... ستسحقهم سحقا.

[ثم التفت إلى (بيني) وقال له]:

– نعتمد عليك في متابعة إخراجها للمعركة في اللحظة الحاسمة... سنفاجئ العرب بما لم يحسبوا حسابه...

– وعندما صار عمر (سلام) ثلاثة أشهر، جاءت امرأة عجوز إلى (خولة) تقول لها:

– (العجوز): لولا أن المرسل عزيز وحبيب إلى قلبي لما قبلت القيام بهذه المهمة، وإني والله في أشد الإحراج.

– (خولة): قولي يا خالة. ما الأمر.........

– (العجوز): لا أدري من أين أبدأ؟!... ترى لو تقدم لك خاطب أتقبلين؟!

صمتت (خولة) قليلا ثم قالت:

– (خولة): أقبل بثلاثة شروط:

الأول: أن يكون من أصحاب (شهيد).... فارسا مثله،

والثاني: أن يكون مهري رأس (فرودو) الذي قتل حبيبي (شهيد)،

والثالث: أن يعاهدني على أن يواصل درب الجهاد لننشئ بيتا مجاهداً، وأسرة مجاهدة.

– (العجوز)[وهي في غاية السرور]: هو من أصحاب (شهيد)...

وأحسب أنه سيقبل بالشرطين الباقيين... إنه (إبراهيم)....

قبل (إبراهيم) شرطي (خولة)، واتفقا على تأجيل الحديث في الأمر حتى تحرير (الواحة)....

***

– (أبو البشائر): لقد كانت أمك يا بني رائدة فيما فعلت.......

– (سلام): لم أفهم قصدك يا عماه. وأي غرابة فيما فعلت؟! كل نساء (الواحة) يتزوجن إن توفي عنهن أزواجهن...

– (أبو البشائر): لم تكن الصورة كذلك قبل زواج أمك من (إبراهيم).... كانت الفتاة الشابة يستشهد عنها زوجها، فتُجبَرُ على الزواج من أخيه، ولو صغرها أو كبرها بحجة تربية أبناء أخيه، أو أنها تبقى بلا زواج حتى ولو كانت في ريعان الشباب، وذلك لكي لا يتربّى أبناء الشهيد عند غريب، كما يتذرع الناس!! وكان ذلك عرفا ظالما... فجاء زواج أمك وهي الرمز والقدوة، ليكسر هذا العرف الخاطئ.... ومن يومها أصبح الأمر الطبيعي أن تتزوج امرأة الشهيد أو أرملة المتوفى، ومن أرادت ألا تفعل فهي تقوم بذلك بإرادتها، لا بثقل العرف الاجتماعي الخاطئ... أرأيت يا بني كم كانت أمك رائدة فيما فعلت؟!

***

بدأت الجيوش العربية بقيادة (خالد) و(سعد) و(علي)و (حسن)

و (عزام) زحفها الأكبر نحو (الواحة) في ذات الوقت الذي بدأت فيه زحوف أهل (الواحة) بقيادة (إبراهيم) و(محمد) التحرك هي الأخرى من جهة النهر داخل (الواحة).

أما في القصر فقد لا حظ، (ليث) حركة غريبة، وهو الذي كان لاحظ أنّ تغيراتٍ هامة طرأت خلال الأيام الفائتة... رأى حارسه مرتبكا لا يدري ماذا يفعل، فناداه يطلب شربة ماء، وما أن اقترب منه، حتى قتله، وأخذ مفتاح زنزانته، وخرج بعد أن أخذ سيفه... لقد كان حراسه أكثر من خمسة على الدوام، أما الآن فلا يوجد إلا واحد، فما الذي يجري؟! ثم إنه لمح في القصر حركة مضطربة... وفجأة لاحظ (بيني) يتقدم نحو إحدى الغرف... فتبعه دون أن يراه، وأخذ يتنصت إلى حديثه.... كان (بيني) يصدر أوامره لساسة الفيلة أن يتجهوا الآن لتحريكها (وهي بالعشرات) كي تباغت الجيوش العربية المهاجمة، ثم وجه أوامره للرابع منهم كي يفتح الزنزانة المائية في سرداب القصر، ليفرُغَ ماؤها، حتى يتمكن الملك وأعوانه من الفرار في اللحظات الأخيرة إن لزم الأمر، ثم يعيدون إليها الماء، فيحولوا دون إمكانية اللحاق بهم.

و لم يكد (ليث) يصدق ما يسمع:

– أهو في حلم أم ماذا؟! ياإلهي ما الذي يجري؟! أحقا زحفت جيوش العرب؟ أحقا يعدُّ الغزاة أنفسهم للرحيل؟ الله أكبر.... أمر لا يكاد يصدق...

خرج (بيني) من الغرفة، فاختفى (ليث) من أمامه، ثم دخل الغرفة وباغت رجالها الأربعة، فقتلهم جميعا...

في قاعة القصر الكبرى كان (ريمون) و(فرودو) ينتظران الأخبار فوصلهما (بيريس) و(بيني) لاهثين:

- سيدي سقطت المملكة. علينا الفرار...
- (ريمون): اللعنة أين الفيلة؟؟ لماذا لم تتحرك؟
- (بيني): لقد أعطيتهم الأوامر يا سيدي. يبدو أن في الأمر خيانة!
- (ريمون): اللعنة!! ما الذي يجري بحق السماء؟ هل نفرّ هكذا؟!
- (فرودو): لا وقت لدينا يا سيدي... هيا نفرّ عبر السرداب...

غادر الثلاثة: (بيرس) و(بيني) و(فروردو)، ثم تبعهم (ريمون)، وهو يكاد يجن. كان ينظر للقصر.. للممتلكات.. للأرض... لكل شيء بحسرة، وندامة!!

لكنهم تفاجأوا عندما وجدوا الممر مليئا بالماء!! إنّ أحداً لم يفرغ منه الماء!!

- (ريمون): وهل هذه خيانة أيضا؟؟! خونة... ملاعين...
- (بيريس): أعرف طريقا آمنة يا سيدي. يمكن إن عدنا إلى القاعة أن نغادر منها... هيا بنا...

وما إن عادوا إلى قاعة القصر، بغية الخروج حتى واجههم أربعة فرسان: (ليث) و(إبراهيم) و(محمد) و(خالد)، وتفاجأ الغزاة وأسقط في أيديهم، وقال (ليث):

- قد أبقيتني هنا حتى هذا اليوم يا (ريمون) كي تكون نهايتك على يدي... قد أبقيتني لأقتلك... أنا من قتل سوّاس الفيلة، فعطّل عمل سلاحكم

الفتاك الرادع هذا... وأنا من قتل حارس السرداب المائي، فحلت بينكم وبين الفرار... أرأيت إلى الخبث والشر كيف يفتك بصاحبه؟؟!!

ردّوا عن رقابكم سيوفنا إن استطعتم !!!

توجه (ليث) إلى (ريمون). و(إبراهيم) إلى (فرودو). و(محمد) إلى (بيريس). و(خالد) إلى (بيني).

فدارت بينهم في قاعة القصر مبارزة مذهلة!! كان الكل بارعاً في القتال، غير أن الكفة أخيراً قد رجحت لصالح الفرسان، فقتل كلُّ فارسٍ مبارزَه.....

وتحررت (الواحة).... وارتفعت صيحات التكبير، والتهليل.... وتعانق الأبطال، وبللت وجوههم الدموع، ثم وصلت (زهرة)، واجتمعت مع (ليث)، ووضعت يدها بيده، وسط زغاريد النساء....

وكان عرس (ليث) و(زهرة) هو عرس كل ليث من ليوث (الواحة)، تربّى فيها شبلاً، ثمّ شبّ ليثاً، يعيش لحمايتها... يذب عنها ويفادي...

وعرس كل (زهرة) من زهرات (الواحة) تنشر عطرها الأخّاذِ عبيرُه في سمائها لتمتلئ بساتين حريتها شذى وورودا.....

وصار (ليث) و(زهرة) رمزاً لكل (الليوث) وكل (الزهرات).

وزار (ليث) قبر (شهيد)... جعل زفة عرسه تبدأ من هناك؛ إنهم الشهداء من منحونا هذه الأعراس، والأفراح. ولدمائهم، وتضحياتهم ندين...

و عاد (خالد) حاملاً مفتاح بيته الذي ورّثه إياه أبوه، وعادت معه أمه

العجوز... عادوا إلى بيتهم الذي هجّروا عنه رغماً، وقسراً... كما عاد كل المهجرين الذين اختلطت دموعهم مع ابتسامات الفرح.

وأطلقت الزغاريد، وعادت إلى (الواحة) أفراحها، وابتساماتها بعد طول حزن ودموع...

وكانت (بستان) تنظر إلى أختها (زهرة) وهي في غاية السرور... ومن يدري؟! فلربما كانت تتمنى في تلك اللحظة أن لو كانت مكانها!....

وذهب (ليث) إلى قبر (شهيد) وأخذ يخاطبه:

قم... قم يا أخي.. قم أيها الشهيد.. قم وانظر كيف صدقنا اللهُ وعدَه.. قم وانظر إلى ما كنا نتهامس به بيننا سرّاً، ها قد صار على كلِّ لسان.. انظر إلى حلمنا الجميل كيف حققه الله.. انظر إلى الجيل الذي ربيناه، ها هو يقود الناس نحو الخير.. ها هي أمانينا قد باتت حقيقة.. ثم انظر إلى الغزاة الذين أفزعوا الكون.. ها قد صاروا جزءاً من الماضي.. لقد كانوا مجرد حلم عابر..ويح المهزومين! كم أخرونا عن هذا اليوم.. هاهي أرضنا التي زكّيتها بدمك الطاهر.. ها هي تلفظ الغزاة فلا نامت أعين الجبناء!

نحن مدينون لدمك الطاهر.. أنت من كان يجب أن يتسلم راية النصر والفتح المبين.. عزاؤنا أيها البطل الشهيد أنك الآن في دارٍ لا كالدار.. وجوارٍ أعز من كل جوار.. سنظل على العهد.. نم واسترح، فإن دمك المدرار سيظل عنوان الانتصار....

***

- (أبو البشائر): وحققت أمك حلم أبيك، وأسمتك (سلام) في يوم التحرير بعد ثلاثة أشهر من ولادتك، ثمّ توفّي جدّك (مصعب)، عندما بلغت الثالثة من العمر، ثمّ جدتاك بعده بعام واحد، ثمّ ها أنت الآن ترسم مستقبلك الواعد، تشارك إخوتك من أمّك وعمّك (إبراهيم) الذي يحبك أكثر من أولاده، رسالة الحضارة والخير........
- (سلام): كم أنا مدين لآبائي ياعماه!؟... كم هي البشرية كلها مدينة لهم اليوم!؟ لقد خلّصوها من ذلك الورم السرطاني الذي كان يفتك بجسدها، وينهش فيه...
- (أبو البشائر): ومن يومها يا بني عمّ السلام ربوع الأرض والحمد لله رب العالمين.

حمل (سلام) قلمه وقال [مشيرا إليه]:

- (سلام): بهذا ياعماه اليوم، نسافر للدنيا ننشر فيها روائع حضارتنا، وقيمنا، وثقافتنا... وسيبقى هذا [وأشار إلى سيفه] في غمده، ولكن مستعداً يرصد حركة كلِّ ماكر شرير، فيطيح برأسه كلما نوى الغدر، أو حاول أن يعيث في الأرض الفساد.

ثم حمل حمامته البيضاء وقال لها:

– هيا يا صاحبتي الجميلة كي ننشر في الأرض رسالة العلم والحضارة والحب والسلام.

تمّت الرواية بحمد الله......